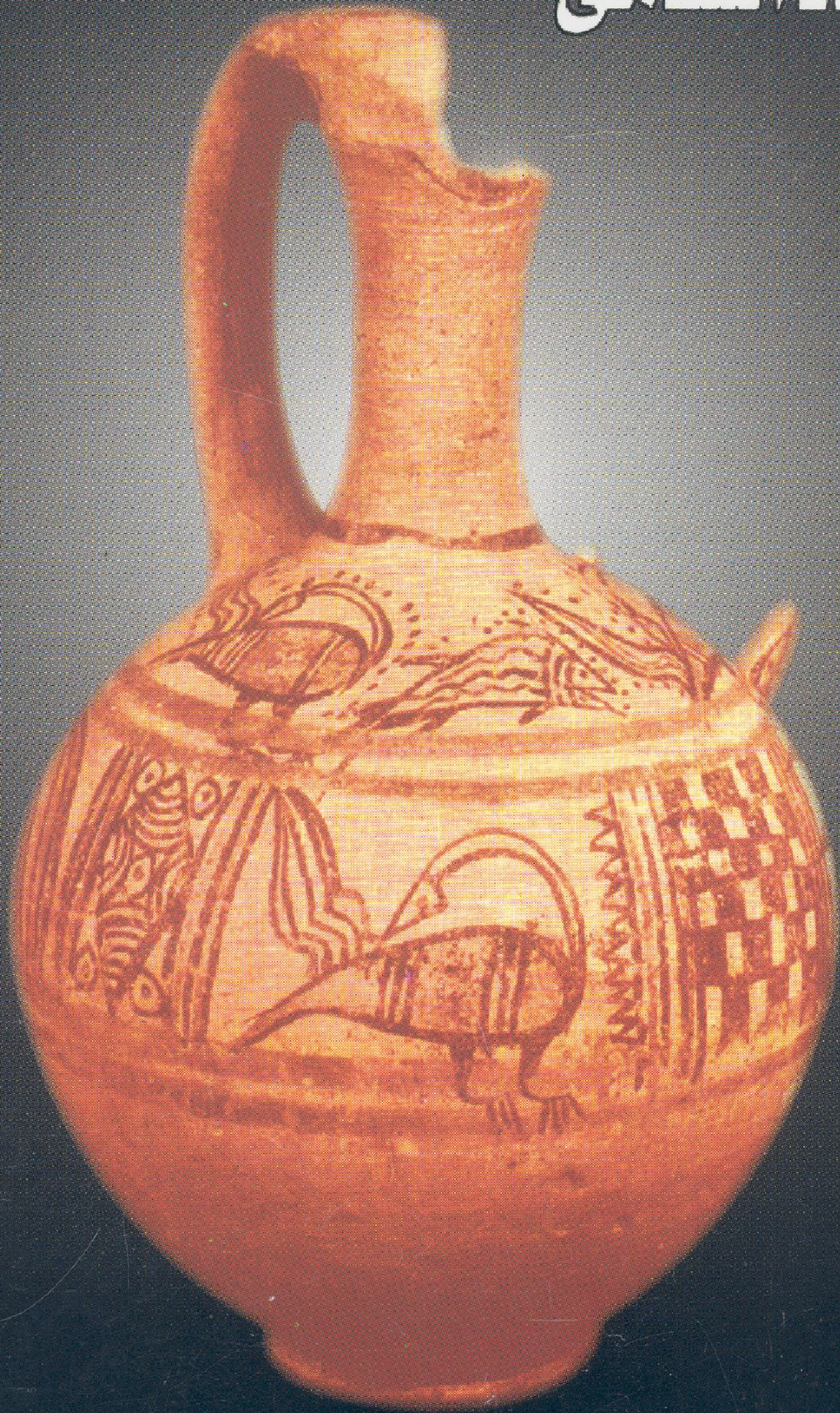


العبرانيون وبنو إسرائيل في العصور القديمة بين الرواية التوراتية والإكتشافات الأثرية

ترجمة وتقديم

د. رشاد الشامي



العبرانيون وبنو إسرائيل في العصور القديمة بين الرواية التوراتية والاكتشافات الأثرية

أبراهام مالمات
حييم تدمور

ترجمة ونقد
دكتور/ رشاد عبد الله الشامي

الطبعة الأولى

القاهرة ٢٠٠١

الكتاب: العبرانيون وبنو إسرائيل في العصور القديمة

بين الرواية التوراتية والاكتشافات الأثرية

أبراهام مالمات

حييم تدمور

ترجمة وتقديم: دكتور/ رشاد الشامي

رقم الإيداع: ٢٠٠١/٢٠٨٦

الترقيم الدولي: ISBN

977-5841-51--8

تاريخ النشر: ٢٠٠١

الناشر: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات

حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة للمكتب المصري لتوزيع المطبوعات

الإدارة: هـ ش مصطفى طموم — المنيل — القاهرة

تليفاكس: ٣٦٥٥٤٨٧

الجزء الأول

بدايات تاريخ بني إسرائيل

تأليف
أبراهام مامات

ترجمة وتعليق
دكتور رشاد عبد الله الشامي

★ في كتاب «تاريخ شعب إسرائيل» (تولدوت عم إسرائيل) - الجزء الأول
«تاريخ إسرائيل في العصور القديمة» (تولدوت إسرائيل بيمى قديم) - دار
نشر «دفير» تل أبيب - ١٩٦٩.

وثيقة إسرائيلية دامغة بعدم صحة الرواية التوراتية

نقدم في الصفحات التالية شهادة ووثيقة إسرائيلية دامغة تعترف بعدم صحة الرواية التوراتية حول نشأة وتكون بني إسرائيل في العصور القديمة، وكل ما هو متعلق بالإقامة في مصر والته في الصحراء وغزو أرض كنعان بالقوة المسلحة وقيام مملكة إسرائيلية موحدة في فلسطين بين الحضارات الكبرى في المنطقة..

إن هذه الشهادة تثبت كل زيف الادعاءات الصهيونية حول الحق الديني والتاريخي في فلسطين وحول مملكة داود والقدس وغيرها!!!

صاحب هذه الوثيقة هو عالم الآثار الإسرائيلي زئيف هرتسوج، وقد نشر قبلته هذه في صحيفة هآرتس العبرية الإسرائيلية بتاريخ ١٩٩٩/١٠/٢٩ :

البروفيسور زئيف هرتسوج، هو مدرس في قسم أثار وحضارة الشرق القديم في جامعة تل أبيب، وكان قد شارك في حفريات حصور ومجيدو مع ريجال يادين وفي حفريات تل عارا: وتل بئر السبع مع يوحنا أهاروني، كما أجرى حفريات في تل ميخال وتل جديسا، وأخيرا بدأ بالحفر في تل يافا، وقد نشر هرتسوج كتباً عديدة حول آثار المدينة في «أرض إسرائيل» وجاراتها وحول حفريات تل السبع وحفريات تل ميخال، ونشر كتابا إجماليا حول علم أثار المدينة.

الفترة التوراتية لم تحدث على الإطلاق ولا توجد أدلة تؤكد صحة الروايات التوراتية

من المعتقد أن سكان العالم كله، وليس مواطنو إسرائيل وأبناء الشعب اليهودي وحدهم، سيذهلون لسماع الحقائق التي باتت معروفة لعلماء الآثار الذين يتولون الحفريات في أرض إسرائيل منذ فترة من الزمن. ففي العشرين سنة الأخيرة حدث انقلاب حقيقى فى نظرة علماء الآثار الاسرائيليين إلى التوراة باعتبارها مصدرا تاريخيا. إن أغلبية المنشغلين فى النقاشات العلمية فى مجال توراة وآثار وتاريخ شعب إسرائيل الذين كانوا حتى الآن يبحثون فى الأرض عن البراهين والدلائل للحكايات الواردة فى العهد القديم، يتفقون الآن على أن مراحل تكون شعب إسرائيل كانت مغايرة تماما لما جاء وصفه فى التوراة.

إنه من الصعوبة بمكان قبول ذلك، ولكن من الواضح للعلماء والباحثين اليوم، إن شعب إسرائيل لم يقيم فى مصر ولم يتيه فى الصحراء ولم يحتل البلاد من خلال حملة عسكرية ولم يستوطنها من خلال أسباطة الإثنا عشر، والأصعب من ذلك أيضا هو هضم الحقيقة التى تتضح رويدا رويدا، بأن مملكة داود وسليمان الموحدة التى وصفتها التوراة، على أنها دولة عظمى اقليمية، كانت فى أحسن الأحوال مملكة قبلية صغيرة، إضافة إلى ذلك من المتوقع عدم ارتياح ذلك الذى سيضطر الى العيش مع المعلومة القائلة أن يهوذا إسرائيل كان متزوجا، وأن الدين الاسرائيلى القديم تبنى التوحيد فقط فى أواخر عهد المملكة وليس على جبل سيناء.

وكابن للشعب اليهودي وكتلميذ للمدرسة التوراتية أدرك عظم الاحباط الناجم عن الفجوة بين التوقعات للبرهنة على العهد القديم كمصدر تاريخى وبين

لحقائق التي تتكشف على الأرض، إنني أعيش هذا الوعي «على لحمي» وأفحص وانتقد التحليلات والاستنتاجات السابقة قبل كل شيء، الى جانب انتقادي للتأويلات الحديثة لأعمال زملائي.

وأنا أنوى أن أعرض عليكم باختصار تاريخ علم الآثار القصير في فلسطين وألقى الضوء على مراحل الأزمة والثورة التي حدثت في العقد الأخير، وأخيرا سأحاول أن أستوضح سبب عدم وصول الحقائق الآخذة في الانضاح الى وعي وإدراك الجمهور العريض.

علم الآثار يتطور:

لقد تطور علم الآثار الاسرائيلي كعلم في مرحلة متأخرة نسبياً في أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، وكانت الحضارات الامبريالية المصرية واليونانية وما بين النهرين والرومانية يبحثون عن دلائل من الماضي، في أغلب الأحيان، بتكليف من المتاحف الكبيرة في لندن وباريس وبرلين، وقد قفزت هذه المرحلة في الواقع عن فلسطين الصغيرة التي كانت متنوعة ومقطعة جغرافياً، ولم تكن في البلاد ظروف لتطور مملكة واسعة كما لم يكن بالإمكان أصلاً أن تنهض بها حركات استعراضية ناهضة مثل المقدسات المصرية أو قصور حضارة ما بين النهرين، وكانت الدفعة الأساسية للأبحاث الأثرية في فلسطين دينية ومصدرها هو العلاقة بين البلاد والكتب المقدسة.

إن المدرسة النقدية لتاريخ التوراة التي ازدهرت في ألمانيا بدءاً من النصف الثاني للقرن التاسع عشر زعمت تاريخ روايات التوراة وادعت أن التاريخ الجغرافي التوراتي صيغ «واختلف» بدرجة كبيرة في عهد شتات بابل، والباحثون في التوراة، وخصوصاً الألمان، إدعوا أن تاريخ شعب اسرائيل كتسلسل أحداث بدءاً من عهد ابراهيم وأسحق ويعقوب ومروراً بالنزوح الى مصر والاستعباد هناك ومن ثم الخروج -

من مصر وانتهاء باحتلال أرض كنعان وتوطن اسباط اسرائيل فيها، ليست إلا استرجاعا لاحقا للماضى لأغراض لاهوتية دينية.

وعلم الآثار وحده هو الذى استطاع أن يدحض هذه النظرية، وقد انطلق فى طريقه. وأول المنقبين عن الآثار فى أريحا ونابلس كانوا باحثين توراتيين بحثوا فى مطلع القرن عن بقايا المدن التوراتية، ومرت الأبحاث الأثرية بنهضة كبيرة مع وصول وليام فوكسويل أولبرايت أحد باحثى «أرض اسرائيل» والشرق القديم، وأولبرايت أمريكى، وهو ابن لاسقف صقلى بدأ بالعمل فى فلسطين فى مطلع العشرينيات وقررت منهجيته المعلنة أن علم الآثار هو الوسيلة العلمية الأساسية لتحويل الإدعاءات النقدية ضد تاريخ روايات التوراة وخصوصا مدرسة فلهاوزن.

وقد اعتقد أولبرايت أن التوراة هى وثيقة تاريخية مرت بالفعل بمراحل تحرير وتأليف، إلا أنها فى الأساس تعكس الواقع القديم، وكان على قناعة أنه إذا اكتشفت البقايا القديمة فى «أرض اسرائيل» فستوفر الأدلة القاطعية لصدق تاريخ الأحداث التى تتعلق بشعب اسرائيل فى البلاد. وقد أدى علم الآثار التوراتى الذى تطور بتأثير أولبرايت وتلاميذه، إلى إجراء حفريات واسعة النطاق فى المواقع التوراتية الهامة: مجيدو، لخيش، جازر، نابلس، أريحا والقدس، همى، جبعون، بيت شان، بيت شيمس، حاصور، تعناخ وغيرها.

يادين يتجول فى أقطار التوراة:

فى الخمسينيات والستينيات والسبعينيات ازدهر علم الآثار كمدرسة توراتية بدون تردد وبدون تداول فى المسائل النظرية، وكانت الطريق معبدة وواضحة، وأسهم كل اكتشاف يتم التوصل إليه فى تركيب وبناء الصورة العامة، وربطت الكتب الأساسية فى علم الآثار، دائما بالتوراة أوب «الأرض المقدسة».

وقد كتب يـجـآل يادين «نظرية الحرب فى بلاد التوراة» وكتب يوحنا اهارونى «أطلس كارتا اعهد التوراة» وغيرهما. وأدى علم اثار «أرض اسرائيل» الهدف المرجو منه: بناء صورة منسجمة للماضى تقوم على التوافق والانسجام بين المصادر الأدبية والمكتشفات الأثرية على الأرض، وتخصص الباحثون فى جوانب مختارة من المكتشفات مثل الأدوات الفخارية، الأسلحة، الوثائق المدونة، الفن المعمارى، التحف الفنية وغيرها وعرضوا تتاليا مذهلا فى مصداقيته وتفصيله وأدعى هؤلاء لفترات متماربة أنهم يجيدون التمييز بين الأدوات الفخارية من القرن الحادى عشر مقابل تلك التى صنعت فى القرن العاشر قبل الميلاد أكثر بكثير مما يمكننا نحن أن نقارن بين القرن العاشر والقرن الحادى عشر الميلاديين.

وقد أفسح التناظر بين علم الآثار والتاريخ المصرى، مثل ذكر رحلة النزوح الى أرض كنعان فى التوراة والمكتشفات المصرية البارزة، الطريق أمام تدعيم التوثيق الاسرائيلى، وباختصار أخذت لوحة البازلت تستكمل وفقا لهذه التوجهات. وقد كشف علماء الآثار الذين تبنا بحماس المهجية التوراتية «فترة التوراة» التى تلقت مغزى واسعا من الماضى لمجالاتها التاريخية. وفى كتب التوطئة وضعت الفصول التى تتعلق بالتاريخ الاسرائيلى فى العهود السابقة لعهد التوراة بمئات آلاف السنين.

وهكذا قمنا بدراسة، ووصفنا وعلمنا فترة الآباء والأجداد وتركيبه المدن الكنعانية الهائلة وهدمها على يد بنى اسرائيل إبان حملة احتلال الباد وحدود مستوطنات أسباط اسرائيل والمواقع الاستيطانية التى تميزت ب «البؤر الاستيطانية» و«أبواب سليمان» فى حصور ومجيدو وجازر و«اسطبلات سليمان»، وهناك أيضا من أوغلوا ووجدوا جبل سيناء فى جبل كركوم فى النقب أو مذبح يشوع فى جبل عيبال.

لوحة البازلت تصبح غامضة:

رويدا رويدا بدأت تبلور الثقوب فى الصورة وبشكل متناقض نشأ وضع بدأت

فيه المكتشفات الكثيرة تزعم المصدقية التاريخية للوصف التوراتى بدلا من تعزيزها.

وبدأت مرحلة الأزمة وهى مرحلة لا تنجح فيها النظريات فى حل عدد كبير ومتزايد من الأسور المجهولة وتأخذ فى إيراد تأويلات غير ملائمة تماما، وبذلك يلف الغموض لوحة البازلت التى تبنىها المكتشفات الأثرية ليتضح أنها غير قابلة للاستكمال.

وسأورد لاحقا عدة أمثلة عن انهيار اللوحة المنسجمة التى بنيت سابقا.

عهد الأجداد:

وجد الباحثون صعوبة فى الإتفاق بينهم على الفترة الأثرية التى تتوافق مع عهد الأجداد، متى عاش ابراهيم واسحق ويعقوب؟ متى تم شراء مغارة المكفيلة واستخدمت كقبر للأباء والأمهات؟ بناء على التسلسل التوراتى أقام سليمان الهيكل المقدس بعد ٤٨٠ سنة من الخروج من مصر (الملوك أو ١) ولكن يجب أن تضاف لذلك ٤٣٠ سنة أخرى من المكوث فى مصر وكذلك فترة التواصل العمرية الطويلة للأجداد لتصل الى تاريخ القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد الذى هو تاريخ هجرة ابراهيم الى أرض كنعان.

ولم تظهر فى الحفريات الأثرية أية دلائل قادرة على تأكيد هذا التسلسل، وادعى أولبرايت فى مطلع الستينيات أن هناك توازيا بين فترة ترحال ابراهيم وبين العهد البرونزى (القرن ٢.٢ - قبل الميلاد)، ولكن بنيامين مازار رائد الفرع الاسرائيلى لعلم الآثار التوراتى اقترح تشخيص الخلفية التاريخية لعهد الأجداد بألف سنة بعد ذلك أى فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد، أى إبان فترة الاستيطان.

وقد نفى الآخرون تاريخ الروايات واعتبروها أسطورة حول الأجداد نسجت فى عهد مملكة يهوذا، والمهم من كل هذا، أن الاجماع السابق بدأ يتزعزع.

الخروج من مصر، التيه في الصحراء وجبل سيناء:

لا تتطرق الوثائق المصرية المعروفة لنا، بالمرّة إلى مكوث شعب اسرائيل في مصر أو لخروجهم منها، وقد تطرقوا في وثائق ومستندات كثيرة إلى عادات وتقاليد الرعاة - الرحل (الذين يسمون شاشو) في الدخول إلى مصر إبان القحط والجوع والاستيطان في أطراف الدلتا، ولكن لم يكن ذلك بالحدث الوحيد: فمثل هذه الأحداث ظهرت في أحيان متقاربة خلال آلاف السنين، ولم تكن ظاهرة شاذة (البروفيسور ابراهام ملمات وهو من آخر المؤيدين لتاريخ الوصف التوراتي وسع صيغة التوراة «أرسل شعبي» إلى «أترك شعبي يذهب ويذهب ويذهب»).

وقد حاولت أجيال من الباحثين وصف موقع جبل سيناء ومحطات وقوف اسباط اسرائيل في الصحراء، رغم الأبحاث التي تم تبنيها، إلا أنه لم يتم اكتشاف أثر واحد يمكنه أن يتلاءم مع الصورة التوراتية. وتحرك قوة التقاليد الى اليوم الباحثين «لاكتشاف» جبل سيناء في شمالي الحجاز أو - كما ذكرت سابقا - في جبل كركوم في النقب، هذه الأحداث المركزية في التاريخ الاسرائيلي لا تحظى بالدعم والتأكيد من الوثائق الخارجية للتوراة أو من خلال مكتشفات أثرية، وتجمع أغلبية المؤرخين اليوم على أن المكوث في مصر والخروج منها كانا في أقصى الأحوال مجرد تصرف لبعض العائلات وتم توسيع حكاية هذه العائلات وتأميمها «من أجل خدمة الأيديولوجيا اللاهوتية الدينية لتشمل الشعب كله».

احتلال البلاد:

تعتبر حكاية احتلال البلاد من ايدي الكنعانيين إحدى الدعائم الأساسية لشعب اسرائيل في التاريخ الجغرافي التوراتي، وهنا ظهرت المصاعب الأخطر والأشدّ تحديدا في محاولات اكتشاف دلائل أثرية للرواية التوراتية حول احتلال البلاد على يد بني اسرائيل.

وقد خيبت الحفريات المتكررة التي اجرتها البعثات المختلفة في أريحا وعلى
المدينتين اللتين وصف احتلالهما بشكل مفصل جدا في سفر يشوع، الآمال
بشكل شديد، واتضح رغم جهود التنقيب، أنه في أواخر القرن الثالث عشر وفي
آخر العهد البرونزي المتأخر، وفي فترة متفق عليها كفترة الاحتلال، لم تكن في
هذين الموقعين أية مدن ولم تكن بالطبع اسوار يمكن اسقاطها.

وقد اقترح الباحثون التوراتيون منذ عشرين سنة اعتبار حكاية الاحتلال هذه
أسطورة، حيث اتضح أن المواقع الاستيطانية قد دمرت أو هجرت في فترات زمنية
مختلفة وتعزز الاستنتاج بأنه لا يوجد أساس يقوم على الحقائق لحكاية التوراة حول
احتلال «أرض اسرائيل» على يد اسباط اسرائيل في إطار حملة عسكرية بقيادة
يشوع.

المدن الكنعانية:

ضخمت التوراة من قوة وحصانة المدن الكنعانية التي تم احتلالها ولكن
الآثار كشفت النقاب عن مواقع غير محصنة حيث وجدت في أحيان كثيرة مباني
قصر الحاكم فقط وليس مدنا حقيقية، وقد إنهارت الحضارة المدية في أرض
كنعان في العهد البرونزي المتأخر في عملية استمرت مئات السنين، ولم يكن ذلك
بفعل الاحتلال العسكري.

وإضافة الى ذلك فإن الروايات التوراتية لاتعترف بالواقع الجيوسياسي في
أرض كنعان التي كانت خاضعة لحكم مصر حتى أواسط القرن ١٢ قبل الميلاد،
وأشرف المصريون على حكمهم هذا للبلاد من خلال مراكز ادرية اقيمت في غزة
ويافا وبيسان، وظهرت المكتشفات المصرية أيضا في مواقع كثيرة على جانبي النهر،
ولم يذكر هذا التواجد المصري البارز في روايات التوراة، ومن الواضح أنها لم تكن
معروفة لمؤلف الروايات التوراتية ومحرريها.

إذا من نكون نحن؟

إن المكتشف الأثرى يناقض بوضوح الصورة التوراتية: مدن كنعان لم تكن ضخمة ولم تكن محصنة ولم تكن رؤسها في السناء (كما ورد في التوراة)، بطولة المحتلين والاقلية في مواجهة الأكثرية (اليهود ويشوع ضد الكنعانيين) وتخليص الإله الذي قاتل الى جانب شعبه، ما هي الا بدعة لاهوتية وليس لها أساس من الحقيقة.

أصل الاسرائيليين:

أثار دمج الاستنتاجات النابعة من التأويلات السابقة التي تتعلق بمراحل تبلور شعب اسرائيل، النقاش حول المسألة الأساسية وهي هوية شعب إسرائيل، إن لم يكن هناك دلائل حول الخروج من مصر وحول الرحلة في الصحراء، وإن كانت حكاية احتلال المدن الكنعانية عسكريا مدحوضة من قبل علماء الآثار، فمن يكون بنو اسرائيل هؤلاء؟

إن الاكتشافات الأثرية أكدت حقيقة هامة وهي أنه في مطلع العصر الحديد في المرحلة التي اعتبرت بأنها «فترة الاستيطان» توطدت في منطقة الجبل المركزي لأرض كنعان مئات التجمعات الاستيطانية الصغيرة التي عاش فيها المزارعون والرعاة، فإن لم يأت هؤلاء من مصر فمن أين جاءوا؟ يبدو لي أنه لا يوجد اليوم مؤيدين للنموذج التوراتي «للاحتلال العسكري» (آخرهم كان يجال يادين). ومازال بعض الباحثين يعتقد أن الاسرائيليين كانوا بدوا رحل جاءوا من عبر نهر الأردن وتوطنوا في مستوطنات هادئة، في مناطق جبل «أرض اسرائيل» (هذا النموذج الذي طوره الباحثون الألمان البرخت الت ومارتين نوت وتبناه بنيامين مازار ويوحنا اهاروني).

وقد طور الباحثون الأمريكيون: جورج مندهول ونورمان جوتفيلد «النشورية الاجتماعية» القائلة، أن المستوطنين الجدد هم كنعانيون من سكان القرى في منطقة الساحل الذين ملوا من حكم الطواغيت من ملوكهم، وتمرد الفلاحون وتركوا الممالك في المدن في الأغوار واستوطنوا منطقة الجبل التي لم تكن مستوطنة قبل ذلك. واقترح اسرائيل فنكلشتاين النظر للمستوطنين على أنهم الرعاة الطبيعيون الذين تجولوا في منطقة الجبل في كل العهد البرونزي المتأخر (تم اكتشاف مقابر لهم بدون تجمعات سكنية)، وبناء على هذا الوصف كان لهؤلاء الرعاة خلال العهد البرونزي المتأخر اقتصاد تبادلي للحم مقابل الأسماك مع سكان الأغوار، ومع انهيار النظام الحضري والزراعي في الأغوار اضطر الرحل للاصطياد بأنفسهم ومن هنا أصبح لديهم دافع للتوطن والاستقرار.

المملكة الموحدة ومكانة القدس:

تسببت الآثار في حدوث إنعطافه أيضا في النظر للواقع في الفترة المسماة «عهد المملكة الموحدة» لدواد وسليمان، ووصفت هذه الفترة في التوراة باعتبارها قمة الاستقلال السياسي والعسكري والاقتصادي لبنى اسرائيل في العهود السابقة. وبعد احتلال داود امتدت امبراطورية داود وسليمان لمساحات كبيرة، من نهر الفرات حتى غزة، ولكن الاكتشافات الأثرية في مواقع كثيرة أظهرت أن حركات البناء التي تحدثت عنها التوراة في هذه الفترة كانت شحيحة وقليلة، والمدن الثلاث حتصور ومجيدو وجازر المذكورة في سياق الحركات العمرانية لسليمان حُفرت بشكل واسع في الطبقات الملائمة، وكانت حتصور محصنة فقط في النصف العلوي من المدينة، وكانت في جازر على ما يبدو قلعة محاطة بجدار حديد.

القدس الصغيرة:

وتتعدد الصورة أكثر على ضوء الاكتشافات الأثرية في القدس عاصمة

المملكة الموحدة، حيث حفرت أجزاء واسعة من المدينة خلال ١٥٠ سنة الأخيرة، وخلال ذلك اكتشف بقايا مثيرة من العهد البرونزي الأوسط والعهد الحديدي «ب» (أيام مملكة يهودا). ولم تكتشف من عهد المملكة الموحدة (حتى حسب التوثيق الذي يحظى بالاجماع) آثار لمباني بناء ولم تكتشف فقط إلا مجموعة من الأواني الفخارية.

وعلى ضوء هذه الآثار المحفوظة من العهود السابقة واللاحقة أصبح واضحاً أن القدس في عهد داود وسليمان كانت مدينة صغيرة، وربما كانت بها قلعة ملكية صغيرة، إلا أنها لم تكن بأى شكل عاصمة الامبراطورية الموصوفة في أسفار التوراة، حيث عرف مؤلفو الوصف التوراتي القدس في القرن الثامن قبل الميلاد بأسوارها وآثارها الغنية التي حفرت في أجزاء المدينة المختلفة وعكست الصورة المتأخرة لعهد المملكة الموحدة. وقد حظيت القدس بمكانتها المركزية بعد دمار السامرة خصمها الشمالى فى عام ٧٢٢ قبل الميلاد.

وإذا اندمجت المكتشفات الأثرية بشكل جيد فى استنتاجات الباحثين التوراتيين الانتقadiين، فإن داود وسليمان كانا حكام بمالك قبلية تضم مناطق صغيرة: الأول فى الخليل والثانى فى القدس وفى المقابل بدأت تنتظم مملكة منفصلة فى جبل السامرة تجدد تعبيرها فى الروايات حول مملكة شاول.

وكانتا مملكتى اسرائيل ويهودا من البداية مملكتين منفصلتين مستقلتين، وفى أحيان كثيرة كانتا متخاصمتين. ومن هنا كانت المملكة الوحدة الكبرى إختراعاً تاريخياً جغرافياً مبتدعاً دمر فى أواخر عهد مملكة يهودا، وربما كان البرهان الحاسم على ذلك، هو حقيقة أننا لانعرف اسم هذه المملكة. وإلى جانب الاختبارات التاريخية السياسية تثار أيضاً شكوك حول مصداقية المعطيات حول العقيدة والعبادة، وما ذكرته سابقاً حول يهوه الاله المتزوج (يهوه وزوجته أشيرة).

تهديد لحقنا:

استكمل علم آثار «أرض اسرائيل» فى آخر القرن العشرين عملية الانتقال للاستقلالية العلمية، وهو مستعد للاصطدام مع اكتشافات البحث التوراتى والتاريخ القديم كأساس متساوى القيمة، ولكن فى المقابل تحدث ظاهرة مثيرة عى تجاهل الأمر من قبل المجتمع الاسرائيلى، حيث أن الكثير من الأمور التى ذكرتها معروفة منذ عشرات السنين وتكثر الأدبيات من مناقشتها ويتبنى أغلبية الباحثين جوهرها، إن لم يكن كلها.

ورغم ذلك لم تتغلغل هذه الأمور الثورية الانقلاية فى الوعى الاسرائيلى، لأن التاريخ الجغرافى التوراتى هو أحد احجار الزاوية الأساسية فى بناء الهوية القومية للمجتمع الاسرائيلى اليهودى، وتبنى العلمانيون فى اسرائيل الذين رفضوا الأسس التوراتية لليهودية القائمة على التلمود، مضمون العهد القديم.

والخلاصة هى، أن المجتمع الاسرائيلى ناضج جزئيا للاعتراف بالظلم الذى لحق بسكان البلاد العرب ومستعد لقبول المساواة فى حقوق النساء، إلا أنه ليس منيعا بشكل كاف لتبنى الحقائق الأثرية التى تدحض الأسطورة التوراتية.

مقدمة المترجم

أولاً: تحديد مفاهيم المصطلحات:

نظراً لأن الباحثين العرب في حقل الدراسات اليهودية والاسرائيلية، وحتى من بين الاسرائيليين أنفسهم، يحدث لديهم خلط بين عدد من المصطلحات التي تستخدم في مجال مثال هذه الدراسات مثل: عبري ويهودي واسرائيلي، فقد إرتأيت أن هذا الأمر يستوجب الايضاح، وذلك تحديداً للأطر التي استخدمت بها هذه المصطلحات عبر الدراسة:

(أ) عبري Hebrew

هي التسمية الأكثر شمولية للدلالة على أسباط بنى إسرائيل، وربما للدلالة على بعض الشعوب التي تقترب منهم من جهة النشأة واللغة. وتعتبر هذه التسمية هي أقدم التسميات التي عرف بها بنو إسرائيل في التاريخ. وقد اختلف العلماء حول أصل هذه التسمية، فهناك؛ من يربط بين الاسم «عبري» وبين واحد من الأجداد القدامى للساميين، وهو عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام وهناك من ينسبه إلى عبور نهر الفرات الذي عبره ابراهيم ومن معه، بعد أن هاجروا، من مدينة أور الكدانية، أو نهر الأردن الذي عبره هؤلاء إلى الضفة الشرقية منه. ويرى آخرون أن الكلمة مشتقة من الفعل الثلاثي «عبر» بمعنى قطع مرحلة من الطريق وتدل على التنقل الذي هو من أخص ما يوصف به سكان الصحراء وأهل البادية، فكلمة عبري مثل كلمة بدوي. أي ساكن الصحراء والبادية.

وهناك رأى آخر، يرى أن أصل الكلمة هو كلمة «خاييرو» Habiri وهي قبائل ظهرت في فترة معاصرة لظهور العبريين وكانت تغزو فلسطين وتتوغل فيها من ناحية الصحراء في بلاد خاضعة للنفوذ المصري، وورد ذكرهم في رسائل أمراء فلسطين الكنعانيين إلى عزيز مصر. ولم يرد ذكر هؤلاء الخاييرو بعد ذلك، بينما

ظهر الاسم «عبرى». ولكن أكثر العلماء يتحفظ في تقرير أن «العبرى» والخابيرو من أصل واحد. إذ يشيرون إلى أن «عبرى» صفة تدل على النسب والانتماء بوجود ياء النسب في آخرها بينما «الخابيرو» لاتعنى غير المزاملة والمراقبة وتدل على مجموعة من الناس تقوم بعمل واحد، أو تقيم فى اقليم واحد، دون أن تنتسب بالضرورة إلى أصل واحد.

ومن الآراء التى قيلت حول هذه القضية وتستحق التأيد لمنطقيتها، ذلك رأى القائل بأن هذا الاصطلاح هو اصطلاح ذو مغزى طبقى، ويستند هذا الرأى إلى ما ورد فى سفر الخروج (٢١ : ٢) بشأن الاصطلاح الاجتماعى «عبد عبرى»، وبعض الاشارات الأخرى مثل «أبرام العبرى» (التكوين ٢٤ : ١٣) الذى كان غريبا فى أرض كنعان ولا يتمتع بحقوق المواطنة الكاملة، وكذلك المكانة الاجتماعية المتدنية التى كانت لبنى اسرائيل فى مصر. ولهذا فإن بنى اسرائيل قد التصقت بهم صفة «العبرى» كجماعة من بين الجماعات التى كانت فى نظر الشعوب الحضارية بمثابة شعوب «عبرية»، أى أدنى منهم حضارياً.

ويجدر أن نشير إلى استخدام مصطلح «عبرى» للإشارة الى نوع معين من العبيد، وهو أحد أبناء الشعب الذى يباع للرق ويتم استئجاره لمدة ٦ سنوات، وذلك لتمييزه عن العبد الغريب أو الكنعانى: «إذا اشتريت عبدا عبرانيا» (خروج ٢١ : ٢). وفى نفس السياق نجد إلتقاء مثيرا للاهتمام بين صفتى الهوية: العبرى واليهودى، داخل فقرة واحدة: «أن يطلق كل واحد عبده وكل واحد أمته العبرانى والعبرانية حرين حتى لا يستعبدهما أى أخويه اليهوديين أحد» (إرميا ٣ : ٩). ويمكن أن نستخلص مما تقدم، أنه فى عهد إرميا فى أخريات فترة الهيكل الأول، كان هناك تحديد تام للصفتين، ولم يعد لفظ عبرى مستخدما إلا كمصطلح يشار به إلى الرق والعبيد.

لقد كان يوسف «رجلا عبرياً» فى نظر زوجة بوطيفار (سفر التكوين ٣٩ : ١١)، و«شاب عبرى» فى نظر رئيس الخبازين (سفر التكوين ٤١ : ١٢) ونطالع فى الاصحاح الأول من سفر الخروج أمر القابليتين العبرانيتين (خروج ١ : ١٥)، موسى رأى رجلا مصريا يصرع «رجلا عبريا» (خروج ٢ : ١١). وحينما أتى موسى إلى فرعون تحدث معه باسم رب إسرائيل، فلم يعرف فرعون من هو إله إسرائيل وكان موسى فى حاجة لأن يوضح له أنه يقصد «رب العبريين». والنبي يونان يقول للفلاحين الأجانب فى السفينة «أنا عبرى»، ومعنى هذا أن التسمية «عبرى» كانت أقدم وكانت تشمل شعوبا أخرى تجمعها رابطة واحدة مثل : مديان وعمون ومواب وأدوم وغيرهم. ويمكن أن نجد قرينة على هذا فيما هو شائع فى يامنا حيث يطلق على الشعوب التى تتحدث باللغة العربية وتنحدر من أصول عربية اسم «الشعوب العربية» ولكنهم بينهم وبين أنفسهم «مصريون» و«سوريون» و«عراقيون» .. الخ.

وفى بعض مراحل التاريخ اليهودى كانت كلمة «عبرى» تستعمل مرادفة تماماً لكلمة يهودى. واستخدم بنو إسرائيل فى التحدث والكتابة تلك اللغة التى استخدمتها سائر الشعوب «العبرية» فى أرض كنعان مثل : المؤابيين والعمونيين والأدوميين وغيرهم، وقد كان لهذه اللغة صفة جغرافية ولم تكن لها صفة قومية، وكانت فى نظرهم «لغة كنعان» أو «اللغة اليهودية» أى اللغة التى تحدثوا بها فى أرض كنعان أو فى مملكة يهودا (أشعيا ١٩ : ١٨، وأشعيا ٣٦ : ١٣، والملوك الثانى ١٨ : ٢٦، ونحميا ١٣ : ٢٤). ولذلك فإن اسم اللغة العبرية لم يرد فى كتاب «العهد القديم» إشارة إلى اللغة التى تحدث بها بنو إسرائيل، وقد أطلقوا عليها بعد ذلك تسميات مثل «اللغة المقدسة» و«لغة التوراة» و«لغة الحكماء» لأن اليهود لم يكونوا يتحدثون بلغة واحدة فى الفترة التى تلت سبى بابل فى القرن السادس ق.م. واقتصر استخدامها على الجوانب الدينية البحتة.

أما في العصر الحديث فإن كلمة «عبري» ترتبط على ألسنة المفكرين الصهيانية بالتراث الثقافي «العبري»، فنجدهم يحرصون على عبارة «اللغة العبرية» و«الثقافة العبرية» و«الأدب العبري» و«الجامعة العبرية» و«الصحافة العبرية».. الخ. ومن هنا فإن هذا المصطلح أصبح بعد زوال حالة القداسة عن اللغة العبرية في العصر الحديث مصطلحا قاصرا على المجالات اللغوية والثقافية، ومعبرا عن الواقع اليهودي الجديد الآخذ في التكوين على أرض فلسطين منذ عام ١٨٨١، في انفصال تام عن الواقع اليهودي الشرق أوروبى، أو على حد تعبير أحدهم، المفكر الصهيونى «آخر يهودى وأول عبري» فى إشارة واضحة للخصوصية الثقافية التى تجسدها الصهيونية فى إطار الواقع الاستيطاني الصهيونى فى فلسطين.

(ب) إسرائيلى Israeli

تنسب هذه التسمية إلى سيدنا يعقوب، حيث ترد فى التوراة قصة مفادها أنه خاض عراكا ضد رجل حتى مطلع الفجر عند جدول صغير فى منطقة الأردن يدعى «يبوق»، ولما رأى الرجل أنه لا يقدر عليه، طلب منه أن يطلقه، فقال له لا أطلقك حتى تباركنى، فباركه وقال له «لن يدعى إسمك يعقوب من بعد، بل إسرائيل، لأنك صارعت الله والناس وغلبت». ولفظة إسرائيل مكونة من كلمتين ساميتين قديمتين هما: «إسر» بمعنى غلب، و«إيل» بمعنى الإله أو الله. ونحن نطالع فى سفر الخروج ١ : ٩ : «شعب بنى إسرائيل»، «طائفة إسرائيل»، (الخروج ١٢ : ٣)، ودار الحديث فى سفر اللاويين ١٦ : ١٧ عن «جماعة إسرائيل»، كما يرد التعبير «شعب إسرائيل» فى صموئيل الثانى (١٨ : ٧) وكذلك فى سفر اللاويين (٢٤ : ١٠) ترد تعبيرات مثل : «ابن السيدة الاسرائيلية» و«رجل إسرائيلى». وفور إنقسام عرى المملكة وإنقسامها إنكمشت المساحة الدلالية لمصطلح إسرائيل وغدت صفة قاصرة على المملكة الشمالية أو مملكة إفرايم التى إعتبرها التراث

اليهودى المملكة المارقة، للتمييز بينها وبين مملكة يهودا التى تمتعت هى وآل داود بهالة القداسة والشرعية.

وفى أدبيات التلمود، أصبح المصطلح «إسرائيل» يطلق على العامة من الشعب على وجه الخصوص: «إسرائيل واحد يخطىء فيعاقب الجميع» (مخيلتا، فصل يثرون..). وهكذا يتضح أن الاسم «إسرائيل» هو اسم لعموم اليهود، وكان التعبير يستعمل للفرقة بين اليهودى العادى وبين الكهنة واللاويين. وقد أصبحت هذه التسمية مصدر فخر من الناحية القومية لبنى إسرائيل وأصبحوا ينسبون أنفسهم لها فيقولون: «بيت إسرائيل» أو «آل إسرائيل» أو «بنى إسرائيل». وكثيرا ما يختصرون التعبير فيقولون «إسرائيل» فقط، كما رأينا فى مآثور التلمود. والاسم العبرى لفلسطين هو «إيرتس يسرائيل» أى «أرض إسرائيل».

وبالرغم من أن تيودور هرتسل زعيم الصهيونية السياسية، ورئيس المؤتمر الصهيونى العالمى الأول الذى انعقد فى مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧. لم يتردد فى تسمية كتابه المتضمن لدعوته هذه «دولة اليهود»، فإن هذه الدعوة الصهيونية أثرت عند الكتابة عن فلسطين أن تسميها «أرض إسرائيل» لا «أرض اليهود»، حرصا على تأكيد انتماء هذه الأرض الى من يزعمون أنهم أسلافهم الأول، وهم أبناء يعقوب، أو بنو إسرائيل.

وعندما أعلنت الصهيونية عن قيام دولتها فى فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨، أطلقت عليها اسم «إسرائيل»، وطبع هذا الاسم فى الأعداد الأولى من «الجريدة الرسمية» فى رأس صحيفة تدعى «إسرائيل». ولكن بعد أن قامت موجة من النقد تجاه هذه التسمية غيرت الحكومة الإسرائيلية الاسم بعد ذلك الى «دولة إسرائيل»، وإن كان الشائع هو استخدام الاسم المختصر فى كافة أجهزة الإعلام الإسرائيلية.

وقد فضل الصهاينة استخدام هذا الإسم «دولة إسرائيلية» لدولتهم بدلا من الإسم الذى كان قد اختاره هرتسل وهو «دولة اليهود» لأسباب نذكر منها:

- ١ - إيجاد تناسق بين إسم الدولة والإسم العبرى لفلسطين وهو «أرض إسرائيل» .
- ٢ - إشار الصفة العنصرية الكامنة فى إسم إسرائيل على الصفة الدينية فى لفظة اليهود.

٣ - عدم الرغبة فى التذكير بالحدود القديمة لمملكة يهودا البائدة، التى لم تكن تشمل إلا القسم الجنوبى من فلسطين بدون ساحل البحر، مما يمثل قيذا تاريخيا للمطامع التوسعية الاستعمارية للصهاينة الذين يريدون أن يضعوا تحت قبضتهم أوسع رقع ممكنة من الوطن العربى.

وقد خلقت هذه التسمية عدة مشاكل أمام المشرعين الصهاينة، حيث أنتقلت صفة الإسرائيلى من الشعب وهى (وهى صفة مذكرة فى العبرية) إلى الدولة (وهى صفة مؤنثة فى العبرية)، وهو الانتقال الذى أدى إلى انطباق هذه الصفة على كل من يقيم داخل إسرائيل من العرب المسلمين والمسيحيين، وأرغم السلطات الصهيونية على إعتبار هؤلاء العرب، المقيمين فيها فى عداد المواطنين الذين يتحتعون بالجنسية الإسرائيلية، بالرغم من رغبتها فى التخلص منهم بالطرد والتشريد. وهذا الأمر، يرى يتسحاك أفيرى أنه «يتناقض مع تقاليد إسرائيل ويزعج الأذن العبرية» .

وقد أصبح اليهودى المقيم خارج إسرائيل، وفقاً لقانون العودة، الصادر فى ٥ يولى، ١٩٥٠، هو الآخر «إسرائيلياً» .

والخلاصة هى، أن «الإسرائيلى»، وفق هذا المفهوم، هو أولاً وأخيراً، اليهودى المقيم فى إسرائيل، واليهودى المقيم خارج إسرائيل أيضاً، بشرط أن يكون صهونيا

متمسكا بالولاء لإسرائيل. ومن هنا اكتسبت لفظة «إسرائيلي» في المصطلح السياسي المعاصر دلالة مختلفة تماما عن الإسرائيلي قبل الصهيونية، والإسرائيلي في بداوة العبريين الأولى.

وهنا تجدر الإشارة إلى عدم الخلط في إطار تحديد مفاهيم هذه الاصطلاحات بين اصطلاحات مثل «دولة إسرائيل» و«أرض إسرائيل». إن «دولة إسرائيل» هي اصطلاح سياسي محدد، بينما «أرض إسرائيل» هي اصطلاح جغرافي. فدولة إسرائيل يمكن أن تمتد على كل «أرض إسرائيل» أو على جزء منها، أو حتى على أجزاء ليست تابعة «لأرض إسرائيل» (مثل شرم الشيخ والجولان على سبيل المثال). ودولة إسرائيل هي الإطار الحاسم بالنسبة للمبدأ الصهيوني.

(ج) يهودى Jew

نسبة إلى يهودا أحد أبناء يعقوب الاثني عشر، أو إلى المنطقة التي أقام فيها سبط يهودا في منطقة النقب الصحراوية الفقيرة في جنوب فلسطين، حيث ظهرت أسماء جغرافية تنسب إليهم مثل: «جبل يهودا» (القضاة: ١: ٣) و«أرض يهودا» أو «بلاد يهودا» (عاموس ٧: ١٢)، «ورقة يهودا أو إقليم يهودا» (إشعيا ٢٥: ٢٨)، و«مدن يهودا» (إرميا ٤: ١٨)، أو نسبة إلى مملكة يهودا في جنوب فلسطين.

وأول شخص في العهد القديم (المقرا) حمل اسم «يهودى» كان «يهودى بن نتياهو عبد الملك يهوياقيم» (إرميا ٣٥: ١٤)، ومن الواضح أنه اسم علم. وورد اسم «يهودى» مرة أخرى على أنه اسم ذات مطلق، ولكن حدث ذلك في فترة متأخرة، وتمثل ذلك في كنية مردخاى (سفر إستير ٢: ٥) وربما كان صفة نسبية. وكانت زوجة عيسو تسمى «يهوديت» (تكوين ٢٥: ٣٤). ولكن لفظ «يهود» كصفة تدل على كيان إثني معين لم تظهر سوى في سفر إرميا: «وسألتهم عن اليهود البقية الباقية من السبي وعن أورشليم» (إرميا ٣٢: ١٢).

وقد كثر استعمال لفظة «اليهود» بمعنى رعايا مملكة يهودا. وبعد عودة اليهود من السبي البابلي تحت حماية قورش امبراطور الفرس فى القرن الخامس ق.م. كانوا يسمون «اليهود»، كما كانت اللغة العبرية تسمى «اليهودية» (الملوك الثانى ١٨ : ٢٦)، وكان ذلك بسبب فقدان الأسباط العشرة التى كان تشكل مملكة اسرائيل الشمالية التى كانت عاصمتها السامرة.

وقد أصبحت كلمة «يهودى» منذ ذلك التاريخ تستخدم للإشارة لكل من يؤمن بدين موسى (اليهودية) بغض النظر عن الانتماء الجغرافى لمعتقد هذه الديانة، مما جعل هذا المصطلح مفرغا من عنصر الزمان والتاريخ.

ثانياً: التفسير الصهيونى للرواية التوراتية:

عندما قامت الحركة الصهيونية فى نهاية القرن التاسع عشر فى أوروبا الشرقية معلنة بذلك، بفعل أحداث ١٨٨١ فى روسيا، فشل حركة التنوير اليهودية (الهسكalah) التى كانت تدعو لاندماج اليهود فى مجتمعاتهم التى يعيشون فيها، ثم انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بازل السويسرية عام ١٨٩٧ بزعامة زئيف تيودور هرتسل، وبدء دعوة اليهود فى كل أرجاء العالم الأوروبى مشرقه وغربه للهجرة إلى فلسطين (أرض الميعاد) لإقامة دولة يهودية فيها، لم يكن أحد فى العالم العربى المحيط بفلسطين يستشعر خطورة ما وراء تلك الحركة وذلك السعى وهذا الهدف الصهيونى. وحتى ذلك الحين وإلى ما بعد إقامة دولة إسرائيل كان الباحثون العرب يعرضون تاريخ فلسطين القديم فى إطار من الإلتزام بما هو وارد فى أسفار العهد القديم وفقاً للترتيب التاريخى الذى دون فى هذه الأسفار، على إعتبار أن الإلتزام بهذا هو جزء من الإيمان بكامل ماورد فى هذا الكتاب المقدس الذى لايجوز أعمال التمحيص أو التأمل أو المراجعة، لما ورد فيه. ولم تكن أصداء الدراسات النقدية للعهد القديم والتى بدأت فى أوروبا مبكراً فى القرن التاسع عشر

قد وصلت بعد إلى الشرق العربي، ومن استطاع أن يطلع عليها، أو يدرسها خلال بعثاته العلمية، أثر الصمت وعدم الإشارة إليها خشية أن يتعرض لما لا طاقة له به من تحمله من هجوم وعقاب، ترتباً على إتهامه بالكفر والإلحاد والهرطقة والتشكيك في محتوى الأسفار المقدسة.

ومن هنا، وبالرغم من أن الصراع العربي الإسرائيلي أخذ في الستينيات أبعاداً مختلفة من الصراع العسكري، فإن تناول تاريخ العبرانيين وبنى إسرائيل ظل كما هو «تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم» مع تركيز مبالغ فيه على «بروتوكولات حكماء صهيون».

واغتراباً من السبعينيات، بدأ يتزايد الاهتمام لدى عدد من الباحثين العرب بالتاريخ القديم للمنطقة العربية (سوريا والعراق وفلسطين) في محاولة لتأصيل الوجود العربي في هذه البلاد تاريخياً وثقافياً ولغوياً، باعتبار أن هذا التأصيل ينطوي بقدر ما، على تفنيد لمقولات الصهيونية بخصوص الحقوق الدينية والتاريخية لليهود في أرض فلسطين. ورويد رويداً بدأ باحثون آخرون في الاهتمام بتناول التاريخ القديم لبنى إسرائيل، بطريقة إختيارية ركزوا خلالها على دراسات لبعض قضايا هذا التاريخ من خلال شخصيات بعينها مثل النبي إبراهيم، أو النبي موسى، وقضية من هو فرعون الخروج، ومن هم الهكسوس، هل هم بنى إسرائيل أم أنهم أقوام آخرون احتلوا مصر ثم تم طردهم منها، مع محاولات للربط بين طرد الهكسوس وخروج بنى إسرائيل من مصر. وبطبيعة الحال، فإن هذا التجزئ للمراحل التاريخ الإسرائيلية كما ورد في أسفار العهد القديم، وبهذا المنهج الاختياري الدقيق، ربما كان مرده أن هذه الشخصيات الدينية والأحداث المرتبطة بهم قد وردت في القرآن الكريم وتحدث عنها في محكم آياته بإسهاب وتفصيل، مما يجعل أية محاولة لطرح أية

أسئلة حول المصداقية التاريخية لهذه الشخصيات ولهذه الأحداث، على غرار ما فعل علماء مدرسة نقد العهد القديم، قد يفسر على أنه كفر وإلحاد يستأهل الإدانة وإهدار الدم.

وفي هذا الإطار، بالنسبة لتوظيف التوراه ورواياتها في خدمة الصهيونية، نجد أن إقحام السياسة في ميدان كتابة تاريخ إسرائيل القديم لم يثر جدلاً واسعاً، لأن معظم دارسى التوراه كانوا متفقين على المبادئ الأساسية لمشروعهم، وكانت ثقتهم بالمصادر التوراتية وإيمانهم بها، وبصحتها التاريخية ثقة كبيرة، وكذلك الأمر بالنسبة لموضوعية الباحث التوراتى الحديث الذى كان بدوره موضع ثقة كبيرة. وعلى الرغم من بعض التحولات المهمة خلال العقد الأخير من القرن العشرين، فيما يتعلق بالمشاكل التى تعترض إعادة بناء تاريخ إسرائيل القديم، فإن الرؤيا التى لاتزال مهيمنة هى أن التراث التوراتى يوفر القاعدة والمصدر الأساسى للمؤرخ فى شؤون إسرائيل القديمة. ومهما تكن البصيرة التى يتمتع بها أولئك الذين يدرسون التركيب المراوغ للسرد التوراتى، فإن قول فون راد Von Rad إن «العهد القديم هو كتاب تاريخ» ظل مسيطراً على الباحثين فى تاريخ إسرائيل، أو الذين يدرسون المواد المختلفة فى كليات اللاهوت وفى أقسام الدراسات الدينية، وقد اقترن ذلك بنموذج للبحث العلمى زاد من قوة الاعتقاد بأنهم ناقلو تراث يمكن الوثوق بهم وأنهم ورثة للموضوعية العلمية.

وهكذا، فإن الصهيونية لم تتوقف عن الاعتراف من الأحداث التاريخية الواردة فى أسفار العهد القديم بما تعزز به مطالبها وأهدافها فى الاستيطان فى أرض فلسطين وإقامة دولة يهودية فيها، مرددة مقولات مثل: «الحق الدينى والتاريخى لليهود فى فلسطين» و«الاستمرارية التاريخية». وقد كان هذا التوجه الذى خاطبت به الصهيونية العقلية الغربية المسيحية، يسعى إلى أن يثبت فى الوجدان الغربى أن تاريخ المنطقة لا يمكن فهمه إلا من خلال «التاريخ التوراتى»، وأن هذه الادعاءات

الدينية تحدد هذا التاريخ وتسيطر عليه، بحيث لا يصبح تاريخ هذه البلاد هو تاريخ وجغرافية فلسطين، بل تاريخ وجغرافية «إسرائيل التوراتية»، ويصبح اسم «فلسطين»، على هذا النحو، لا يزيد عن كونه تعبيراً مختصراً عن «أرض التوراة»، وتصبح الاعتبارات الدينية والتعريفات التوراتية هي مفتاح فهم تاريخ المنطقة وتصبح أسماء المناطق فيها نابعة من الأسماء التوراتية مثل «يهودا والسامرة» بدلا من الضفة الغربية» وتصبح سائر المناطق هي مناطق زبولون وإفرايم وبنيامن ومنسى.. الخ.

وفي سياق هذا الاختزال الذي يجعل من تاريخ فلسطين تاريخاً لبنى إسرائيل واليهود دون سواهم من الشعوب التي قطنتها وعاشت فيها وأسست دولة وممالك، تصبح الأوضاع التي أدت إلى إنشاء دولة إسرائيل في القرن العشرين شبيهة بالأوضاع في العصور القديمة. فإذا كانت الصهيونية قد رفعت شعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، فإن الدراسات التوراتية، التي عكست المفاهيم الصهيونية الخاصة بفلسطين، قد صورت فلسطين دون سكان، أو على أكثر تقدير، كسكان مؤقتين سريعي الزوال ينتظرون قدوم ذلك الشعب الذي لا يملك الأرض. وهنا نجد أن جذور الدولة الحديثة قد سيطرت على الدراسات العلمية في مجال الدراسات التوراتية، بما في ذلك تطويع المكتشفات الأثرية، لدرجة أن هذا الإسقاط على الماضي للدولة اليهودية في العصور القديمة، قد أدى إلى استمرارية حتمية ساعدت على تبرير وإضفاء شرعية على كلتا الدولتين القوميتين قديما وحديثا.

وهكذا، فإن الافتراض الصهيوني السائد بوجود صلة مباشرة بين إسرائيل القديمة والدولة الإسرائيلية الحديثة، والذي يتلخص في الاعتقاد بعودة «الشعب اليهودي» إلى «وطنه» في «أرض إسرائيل القديمة»، هو الذي يحدد مسبقا نتيجة البحث التوراتي بحثا عن جذور «إسرائيل القديمة» لإضفاء الشرعية على الدولة الحديثة، إسكاتها للبحث عن تاريخ أعم للمنطقة.

وتتجسد مثل هذه المزاعم في الاشارات المتكررة إلى «أرض إسرائيل التاريخية» في أيامنا هذه. كما أن إعلان الاستقلال الاسرائيلي في عام ١٩٤٨ يشير إلى «إعادة إنشاء الدولة اليهودية» أي أنها إعادة Re-establishment لما كان موجودا في الماضي.

وهذه الاستمرارية في الخطاب الصهيوني بين الماضي والحاضر، تعنى بالإضافة إلى هذا، أن هذه الأرض الصعبة يمكن جعلها خصبة بالجهود غير الاعتيادية لإسرائيل فقط، إذ لا يمتلك أحد غيرها هذه القدرة، وهكذا أصبح هذا الخطاب الصهيوني في تبريره للهجرة اليهودية إلى فلسطين جزءا من تصوير الصهيونيين لهذه الأرض على أنها «فارغة» بما يتشابه مع ما هو وارد في العلوم التوراتية في تكوينها للماضي الذي تجاهل وجود شعوب محلية في مراحل عديدة من التاريخ في هذه البلاد.

ولتأكيد هذه المقولات وظفت الدراسات التوراتية التي عملت في إطار المنظومة الصهيونية عددا هائلا من التعبيرات للدلالة على فلسطين مثل: «الأرض المقدسة»، «أرض التوراة» «إيرتس يسرائيل» (أرض إسرائيل)، «إسرائيل»، «يهودا»، «كنعان»، «شرق الأردن»، «فلسطين السورية»، «فلسطين»، «الشرق». وبالرغم من أن كل هذه التعبيرات تبدو مترادفة بالنسبة للقارئ، بل وحتى حيادية، إلا أن الفكر الصهيوني جردها جميعا من مدلولاتها واختزلها في تسمية واحدة هي «ها أرتس» (البلاد) أو «الأرض» في إشارة إلى المسمى ذو المضمون الديني «إيرتس يسراذيل» بحيث تتضمن هذه التسمية كل معاني السيطرة على هذه «الأرض».

وبالرغم من أن الاسم «فلسطين» يستخدم في البحث العلمي الغربي في مجال الدراسات التوراتية، إلا أنه جرد من أي معنى حقيقي في خضم البحث عن تاريخ إسرائيل القديم، حيث يتم تقسيم تاريخ المنطقة وفقا لخانات التسلسل

التاريخى فى العهد القديم، فهناك مرحلة «الآباء»، ثم «الخروج»، ثم «الغزو والاسيوطان» ثم يتبعها مرحلة «مملكة داود وسليمان الموحدين»، و«مملكة إسرائيل» ويهودا المنقسمتين، ثم «السبي البابلى» ثم «الاصلاح الدينى» فى عصر عزرا، وبذلك يصبح تاريخ المنطقة هو تاريخ الشخصيات والأحداث الأساسية فى التراث التوراتى، وبذلك أصبح طغيان الزمان التوراتى يسكت بفعالية التاريخ الفلسطينى.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن مؤرخى التوراة سعوا لأن يجعلوا هذا التقسيم الزمنى المستوحى من التوراة العبرية مساويا لذلك الذى جاءت به تلك الابحاث الأثرية، بحيث تبدأ التعميمات الزمنية بالعصر الحجري القديم والعصر الحجري شبه القديم والعصر الحجري الجديد والعصر النحاسى، ثم العصر البرونزى الأول الذى يجعلونه موازيا للفترة الكنعانية الأولى ثم العصر البرونزى الوسيط الذى يوازي العصر الكنعانى الوسيط، ثم العصر البرونزى المتأخر، وهو العصر الكنعانى المتأخر، وهو العصر الكنعانى المتأخر، وهكذا يصبح العصر البرونزى هو عصر الآباء، بينما يتزامن العصر الحديدي مع نشوء وتطور الملكية أما فترة السبي البابلى والهيكل الثانى فتتزامن مع الفترة الفارسية، والهلنستية والرومانية، وهكذا تصبح العصور الأركيولوجية متزامنة مع التقسيم التوراتى للتاريخ.

وحينما يتناول هؤلاء المؤرخون فترة العصر البرونزى المتوسط والمتأخر، فإنهم لا يصفون على الكنعانيين سكان فلسطين أى وعى قومى، ويصفون ديانتهم على أنها مجرد عبادة خصوبة هابطة تفتقر إلى الدافع الاخلاقى المهيمن لدين يهوه، وعلى هذا فهى ديانة «أخلاقية»، مما يشير إلى مفارقة متعمدة، لأن الثقافة الكنعانية، باعتراف العديد من علماء الآثار، كانت أرقى بكثير من الديانة اليهودية، ولكن الهدف من هذا الانتفاص لدى مؤرخى التوراة يهدف عمدا الى تصوير إسرائيل (كدولة قومية) على أنها كانت ذروة التطور السياسى على النقيض من تجمعات دول - المدينة التى كانت سائدة فى المنطقة آنذاك.

وبالرغم من إعتراف عدد من مؤرخى التوراة، بأن هذ المنطقة لم تكن ملكا وحيدا لبنى اسرائيل، وأنها كانت مأهولة بمجموعة مختلفة من سكان فلسطين القديمة، فإن هؤلاء السكان لا يتم تعريفهم كفلسطينيين، وينظر إليهم، فى الغالب، على أنهم مجهولون، وتصبح لهم هوية فقط عندما يكونون إسرائيليين أو يهودا، بالرغم من إشارة بعض هؤلاء المؤرخين إلى «الساحل الفلسطينى» و«الزراعة الفلسطينية» و«الاقتصاد الفلسطينى»، ولكن لا يوصف السكان أنفسهم أبدا على أنهم «فلسطينيون».

ويعتبر هؤلاء المؤرخون التوراتيون أن فترة الانتقال بين العصر البرونزى المتأخر وبداية العصر الحديدي هى فترة إستثناء من تعرض فلسطين للسيطرة الخارجية التى كانت سمة مميزة لتاريخ فلسطين، ويعتبرون أن هذه الفترة شهدت إنهيار الامبراطوريات الميسينية Amycenaee والمصرية القديمة والحيثية، كما شهدت ما يعرف «بنشوء الكيان المستقل «إسرائيل» فى التاريخ الفلسطينى، وأن تلك الكينونة أصبحت تسيطر، حسب الرواية التوراتية، على تاريخ المنطقة، بدلا من القوى الامبريالية العظمى، أى مصر وأشور وبابل وفارس واليونان وروما!!!

إن مؤرخا توراتيا، مثل برايت يستنتج أن فتوحات داود حولت «إسرائيل بشكل مفاجئ تماما إلى أكبر قوة فى فلسطين وسوريا، بل فى الواقع، ربما كانت اسرائيل فى تلك اللحظة لاتقل جبروتا عن أى قوة عظمى فى عالمها. ويتكلم برايت عن «امبراطورية»، امتدت حدودها من خليج العقبة الى البحر المتوسط ومن وادى العريش فى الجنوب الى لبنان وقاديش Kadesh حول نهر العاصى فى الشمال. وبالنتيجة، وبناء على رواية برايت، فإن داود ورث الامبراطورية الآسيوية للمملكة الجديدة فى مصر. ويرى برايت أن حدود تلك «الامبراطورية الداودية»، التى تمكن سليمان من المحافظة عليها، تدل على أن تاريخ الدولة

الاسرائيلية هو تاريخ فلسطين. وهذا التصور الذى جاء به برايت، هو رؤية لإسرائيل الكبرى مستوحاة من التوراة، وهى تتفق مع تطلعات العديد من زعماء دولة إسرائيل الحديثة وتدعم هذه التطلعات. وقد عبر بن جوريون عن رأيه عندما قال «إن حدود إسرائيل يجب أن تتضمن جنوب لبنان وجنوب سوريا. والأردن وشرقى الأردن بأكمله، بالإضافة إلى سيناء. إن قبول التقسيم لا يلزمنا بأن نتنازل عن شرقى الأردن ولا يستطيع أحد إن يطلب من الآخرين أن يتخلوا عن أحلامهم، وسوف نقبل بحدود الدولة كما ستحدد الآن، ولكن حدود الامال الصهيونية هى شأن الشعب اليهودى وحده ولن يستطيع أى عامل خارجى الحد منها».

وبعد حرب ١٩٥٦ والاستيلاء على سيناء أشار بن جوريون إلى إنشاء «مملكة إسرائيل الثالثة»، ومن هنا فإن أى إعادة بناء للماضى الاسرائيلى على أسس توراثية، وبخاصة تلك المتأثرة بفترة المملكة وحدودها، يجب أن تقرأ فى ضوء السياق الحديث، لأنها بقدر ما تأثرت بالادعاءات والأمال المعاصرة، فإنها تؤثر فيها، وتأثير الصراعات التوراثية فى عالم السياسة، سواء اعترف الباحثون التوارتيون بذلك أو لم يعترفوا، ويظهر ذلك جليا فى تصريح مناحم بيغن بعيد إعلان الدولة ١٩٤٨ الذى قال فيه:

«إن تجزئة الوطن شىء غير شرعى لن نعترف به أبداً. وتوقيع المؤسسات والأفراد على اتفاق التقسيم باطل ولن يقيد الشعب اليهودى. إن القدس كانت وستظل عاصمتنا الى الأبد. و«أرض إسرائيل» سوف تعود الى «شعب إسرائيل»، برمتها وإلى الأبد».

والفكرة الأخرى التى كان لها تأثير مماثل، هى رأى القائل إن الدولة الاسرائيلية قد أسست لأغراض دفاعية فقط، أى إنها كانت محاولة للوقوف فى

وجه التهديد العسكرى البسلتى (الفلسطينى) ، وأنها كانت مملكة هدفها الوحيد هو صد هجوم البلستيين . وكانت فكرة الهيمنة على المناطق غير الاسرائيلية مستبعدة تماماً . إن وهم الطبيعة الدفاعية لاسرائيل هى فكرة متغلغلة فى خطاب الدراسات التوراتية برمته فيما يتعلق بطبيعة الدولة الاسرائيلية ، وهذه الدولة تتحاكى الإدعاءات الصهيونية والتبريرات الإعتذارية اللاحقة بعيد إنشاء دولة اسرائيل الحديثة ، حيث كثيراً ما توصف دولة اسرائيل الحديثة بأنها دولة دفاعية بطبيعتها : وتلك النظرة يعبر عنها اعلان الاستقلال . الذى جاء فيه : «لقد سعوا للسلام ولكنهم فى الوقت نفسه استعدوا للدفاع عن أنفسهم» .

ولدى تعرض هؤلاء المؤرخين التوراتيين للمقارنة بين أسباط بنى اسرائيل ، وبين البلستيين يعترفون بأن البلستيين (الفلسطينيين) توافرت لهم فرصة إنشاء امبراطورية من الطراز الأول ، وهو عكس ما حدث فى حالة هجرة الأسباط الاسرائيلية البدوية التى كانت بطيئة وسلمية فى أغلب الأحيان ، وتسللها إلى منطقة التلال فى فلسطين ، حيث كانت تفصل بينها مجموعات من القبائل غير الاسرائيلية وكانت تفتقر الى التفوق العسكرى للجماعات الإيجية (البلستية) ، ومع هذا كله ، فإن اسرائيل ، وليس البلستيين ، هى التى كان بمقدورها أن تنشئ امبراطورية .

ولا يمكننا ببساطة قبول الافتراض القائل أن نشوء دولة اسرائيلية ، وبالأخص مملكة داود ، هو الذى يؤدى إلى التاريخ الحق ، وأن هذه كانت هى المرحلة الحاسمة فى التاريخ الاسرائيلى وبالتالى فى تاريخ المنطقة بشكل عام . فتأكيد برايت القائل أن اسرائيل فى فترة المملكة أصبحت إحدى القوى العظمى فى عالمها المعاصر ، وأن هى «واحدة من أهم الفترات فى تاريخ اسرائيل برمته» ، هو مثال على تصور للماضى ، يعبر عن النظرة الشائعة فى الدراسات التوراتية . وإذا تتبعنا أثر خطاب

الدراسات التوراتية فيما يتعلق باختلاق دولة اسرائيلية أو «امبراطورية» قديمة، في سياق النشاط الصهيوني الذي استهدف إقامة دولة اسرائيل الحديثة سوف نلاحظ أن فلسطين تختزل، لمصلحة «أرض الميعاد» هذه المرة، للدلالة على وطن اسرائيل: إنها ليست وطن الفلسطينيين أو الشعوب الأصلية، وهكذا يكون اختيار تعبير «الوطن» ذو مغزى مضاعف في ضوء استعمال هذا التعبير في وعد بلفور. وهذا ادعاء في غاية الأهمية من الناحية السياسية إذا ما أخذنا في الاعتبار الصراع الحالي حول فلسطين.

إن هؤلاء المؤرخين التوراتيين يدركون أن فلسطين لم تكن أبدا بلدا يشجع قيام كيانات سياسية كبيرة تاريخية، لأن المراكز السياسية والحضارية كانت في الأناضول وفي بلاد ما بين النهرين في الشمال. وفي مصر الفرعونية في الجنوب، وكانت فلسطين هي حلقة الوصل بينها من الناحية الجغرافية، مما جعلها على الدوام بؤرة صراع بين هذه القوى الكبرى في المنطقة، ولكنهم مع هذا يجعلون مملكة داود وإنجازاته، حالة ممكنة بسبب الفراغ الذي حدث في ميزان القوى في المنطقة في تلك الفترة. وبالرغم من أنهم يعترفون بأن ثلاث قوى محلية قامت بمحاولات لإقامة ممالك مستقلة في فلسطين هم: ملك آرام صوبة وناحاش الآرامى وشاؤول الاسرائيلي، إلا أنهم يجعلون شاؤول وحده هو الذي نجح في فترة قصيرة في إقامة مملكة، بالرغم من فشله في مواجهة التهديد البلستى.

٣ - ظهور المدرسة النقدية للعهد القديم وأثرها على كتابة تاريخ اسرائيل القديم:

دفعت الأهمية البالغة لكتاب العهد القديم كثيرين لتأمل المادة التاريخية الواردة فيه، وبدأوا في تفكيكه إلى عناصر، لأن البنى التاريخية عادة تقوم على الأبحاث، وليس على الرؤى النظرية، ويجب أن تستند إلى البنى الثابتة كي تصبح مقبولة تاريخيا، لأن التاريخ يتعلق بالطبيعة وليس بما وراء الطبيعة. فإذا كان إضفاء

التاريخانية على مجمل الروايات التوراتية أو على جزء منها، ممكنا، فإن عددا من العلماء الأوروبيين لم، يستجيبوا لإغراء تبني منظور مستخلص من ذلك الشكل الشامل نظريا ولا من أى جزء منه لاثبت تاريخيته، وأصبح هناك جدل كبير حول المصدقية التاريخية للأحداث المروية فيه.

ففى خلال ثمانينات القرن التاسع عشر استخلص جى. فلهاوزن بعد دراسة مستفيضة لما يزيد عن عقدين من الدراسات النقدية - التاريخية - للعهد القديم ما عرف باسم «الفرضية الوثائقية» لأصول الأسفار الخمسية الأولى (التكوين - الخروج - العدد - اللاويين - التثنية). وقد توصلت هذه الفرضية إلى أن الأسفار قد تم تشكيلها من أربعة مصادر مستقلة عن بعضها هى: المصدر اليهودى (نسبة إلى إسم الاله يهوه) والمصدر الايلوهيمى (نسبة إلى إسم الإله إيلوهيم)، والمصدر التثنوى (نسبة إلى سفر التثنية) والمصدر الكهنوتى، وهى التى يشار إليها، عادة، إختصارا بالحروف (جى، إى، دى، بى) بالإنجليزية.

وقد توصل فلهاوزن ومن جاء من بعده من الباحثين الذين أصبحوا يعرفون بإسم «أصحاب المدرسة النقدية» إلى أن العهد القديم هو مؤلف دينى روحانى تم تدوينه فى فترة متأخرة تلت الأحداث الواردة فيه بمئات السنين، وتحول بسبب دوره فى خدمة الفكر الدينى الاسرائيلى إلى مصدر تاريخى مشكوك فيه، لأن الأحداث الواردة فيه لا تؤيدها براهين أخرى من مصادر أجنبية أو إكتشافات أثرية، مما ألقى بظلال كثيفة حول المصدقية التاريخية المرتبطة بالخلفية الدينية وحول مزاعم الجماعة اليهودية حول الأرض والتراث والوعد الالهى.. الخ.

وإذا كان فلهاوزن قد هدف من تحليله النقدى لاسفار التوراه، التوصل الى التطور التاريخى لديانة إسرائيل القديمة فى إطار من التطور الزمنى المرحلى، فقد كان عليه للتوصل إلى هذا، تحديد هذه المصادر الأربعة المستقلة وإرتباطها الزمنى

والايدولوجى مع التطورات المرحلية فى تاريخ اسرائيل . وتوصل إلى أن المصدر اليهودى دون مع المملكة الموحدة، مملكة يهودا وسلالة داود، وأن المصدر الايلوهيمى دون مع الملكية المنقسمة ودولة إسرائيل، والمصدر التثنوى دون مع إصلاحات يوشيا (ملك يهودا من ٦٣٨ - ٦٠٨ ق.م) والفترة السابقة للسبى والتنبؤات، والمصدر الكهنوتى دون مع مرحلة السبى وما بعدها والدوائر الكهنوتية.

ومن النتائج الهامة لهذه الدراسات النقدية، أن هذه المصادر الأربعة للأسفار الخمسة يجب فهمها على أنها وثائق أدبية تم تأليفها وقت كتابتها وتعكس فهم ومعرفة مؤلفيها وعالمهم، بما يعنى، أنه لا يمكن الحصول منها على أى شىء تاريخى يعتمد عليه عن المراحل السابقة لتاريخ اسرائيل، مما ألقى فكرة الاستفادة منها لإعادة تشكيل تاريخ اسرائيل القديم. وسرعان ما أثرت نتائج دراسات فلهاوزن وتلاميذه بشأن إعادة بناء الروايات، على فهم بقية أجزاء العهد القديم، مما أدى إلى نقل الدراسات التاريخية النقدية إلى مسار بعيد عن التفكير الدينى (ثيولوجيا) وأعطاهما طابعا تاريخيا علمانيا بصورة متزايدة، وهو الاتجاه الذى دعم نجاح نتائج التنوير الأوروبى والاتجاه التاريخى الحديث فى الفكر الغربى خلال القرن التاسع عشر. وكان لتأثيره هذ المدرسة المقترنة بالتححر من العقلية اللاهوتية الضيقة، الفضل فى التوصل الى فهم جديد لتاريخ اسرائيل القديم، ولم ينظر الى مدونى المصادر اليهودية والايلاهيمية على أنهم مؤرخون لماضى اسرائيل، بل على أنهم جامعون ومحررون لأساطير وحكايات شعبية مختلفة متعددة الأصول والتواريخ، وأن الروايات التوراتية هى شظايا ذكريات مكتوبة أو شفوية، وسلاسل من القصص، وأعمال أدبية معقدة، وسجلات إدارية وأغانى، وحكم نبوية كلمات مأثورة عن فلاسفة، وقوائم وحكايات، جمعت ودونت إنتقائيا وفسرت على أنها ماض هو بقايا دور خيالى غير مترابط جمعها العائدون من السبى البابلى.

وبالرغم من أنه بذلت جهود خلال القرن العشرين لاقامة جسور بين الدراسات الأكاديمية النقدية والتفسير التوراتي اللاهوتي، إلا أن هذه الإزدواجية إستمرت، وظل التحدى الذى فرضه البحث التاريخى قويا فى مواجهة إصرار اللاشوتيين بعناد على الإيمان بحقيقة ومصادقية المرويات التوراتية.

وقد حدد أصحاب المدرسة النقدية لمصادر العهد القديم، أنه لكتاية تاريخ مستقل لإسرائيل القديمة، لابد وأن تؤخذ فى الاعتبار ثلاثة أشكال مختلفة من البيانات المباشرة المستخلصة من المصادر الأولية:

(١) الحفريات الأثرية وتحليلها، وتصنيف وتفسير الحقائق المستخلصة من الحفريات ونماذج الاستيطان القديمة فى فلسطين المعروفة جغرافيا وإقليميا.

(٢) ثروة الآثار الكتابية القديمة المرتبطة مباشرة أو بصورة غير مباشرة بفلسطين القديمة. (مثل رسائل تل العمارنة - رأس الشمرة (أوجاريت). أبله - المحفوظات الآشورية البابلية.. الخ) والتي تكشف عن البنى الدينية والسياسية ونمط الحياة والأحداث المعروفة.. الخ.

(٣) الروايات التوراتية التى تعكس صراحة أو ضمنا المجال الذى تشكلت فيه والذى يرسم تصور بنى إسرائيل لأصولهم وثقافتهم وديانتهم وتاريخهم.

وقد توأصلت دراسات وأبحاث أصحاب المدرسة النقدية منكرى روايات العهد القديم عن تاريخ إسرائيل القديم، معتمدين فى ذلك على الاكتشافات الأركيولوجية (الأثرية) وعلى تواريخ شعوب الشرق الأدنى القديمة وحضاراتهم، وكان منهم من حاول الربط بين هذه الاكتشافات الأثرية وتواريخ شعوب الشرق الأدنى القديم وبين مصادقية ما ورد فى العهد القديم، وكان من أشهرهم الباحث الأمريكى ويليام أولبرايت Albright والبرخت ألت ALT وغيرهم ممن أكدوا تاريخية التوراة على ضوء الحفريات، وخاصة فيما يتصل بقصة دخول بنى إسرائيل.

لأرض كنعان والاستيطان باعتبارهما مفتاحاً لتفسير أصول إسرائيل القديمة. كما ركزا مع من سار في إثرهما، وخاصة أصحاب مدرسة ألت، على الدراسة البنيوية للتمييز بين المظاهر الكنعانية والمظاهر الإسرائيلية في نصيرص التوراه على أساس قربها أو بعدها عما ورد في اللوحات المسمارية، ورغم إعترافه بالجذور الكنعانية للتقاليد والعبادات والقوانين اليهودية، إلا أنه، بصورة غير مشروعة، أعطى بعدا تاريخيا لهذا التناقض والتعارض (الدولة المدينة، الكنعانية مقابل دولة إسرائيل القومية)، وقدم كذلك نظريته لأصول إسرائيل، بأنه تم نتيجة تسلل تدريجي واستقرار البدو الرعاة في مناطق فلسطين المجاورة للأراضي الزراعية المنخفضة الكثيفة السكان، وهي النظرية التي أصبحت لاحقا برنامجا لجميع الأبحاث اللاحقة عن أصول بني إسرائيل في فلسطين، وكانت كل ما أشارت إليه بعض الأبحاث عن نماذج «الفتح»، و«الثورة من الداخل» بمثابة تحويرات مشتقة من نموذج ألت، بحيث أصبح التمييز بين الفتح والاستيطان والثورة يعكس تأكيدات وتقييمات فردية لنموذج منهجي واحد، هو التحول من الدولة المدينة الكنعانية في العصر البرونزي المتأخر الى الدولة الإسرائيلية القومية في العصر الحديدي، وهو المنهج الذي إتبعه أفراهام مالمات مؤلف الجزء الأول من هذا الكتاب الذي نقدم ترجمته للقارئ العربي في تفسيره لدخول بني إسرائيل لأرض كنعان.

وخلال الستينات والسبعينات كتب الباحث الإسرائيلي ب. مازار B. Mazar عددا من المقالات اشتملت على مواجهة شاملة لمقترحات ألت على ضوء تزايد المعلومات عن تاريخ فلسطين وحفرياتها الأركيولوجية مركزا بحثه على التغيرات العامة التي وقعت في سوريا فلسطين خلال الفترة التي أدت إلى ظهور ثلاث شعوب سامية جديدة أقامت كل منها دولة قومية ضمن إطار ثقافي: الإسرائيليون، الآراميون، الفينيقيون وذلك في فترة إنهيار السيطرة الامبريالية الآشورية والحيثية المصرية على سوريا وفلسطين في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر

ق.م مع هجرات وغزوات شعوب البحر (الفلسطينيون) أو شعب «البلاست» على طول شواطئ البحر المتوسط.

وقد سار على نفس هذا الدرب دوفوكس عام ١٩٧٠ في دراسته الشاملة لتاريخ اسرائيل موفقا بين المرويات التوراتية والحفريات الاثرية في فلسطين وأثار الشرق الأدنى، ورفض موقف نوت القائل بوجود جماعة دينية في اسرائيل القديمة. وقام توماس طومسون بتقييم معظم البحوث التاريخية التي ظهرت خلال الأعوام بين ١٩٢٠ - ١٩٧٠ والتي أيدت إعادة بناء فترة بطريكية ضمن تاريخ فلسطين خلال الألف الثاني قبل الميلاد.

وقد رأى طومسون، أن محاولة التوفيق بين الروايات التوراتية وغير التوراتية كإثبات للمصداقية التاريخية لاسرائيل القديمة سرعان ما دخلت مرحلة إنهيار مازالت متواصلة حتى اليوم، وأنه ما أن وضعت تاريخانية التوراة موضع تساؤل حتى كان لابد وأن ينهار البناء التاريخي الذي إعتبر تاريخانية التوراة جزءا من نظريته للتاريخ.

وعلى الطرف الآخر، حظى الاتجاه التفكيكي (النقدي) في الدراسات التاريخية للعهد القديم بتركيز حاد. ففي الستينات من القرن العشرين تبلورت نظرية ازببطت أساسا بإسم نورمان جوتفالد تقول بأن اسرائيل ظهرت الى الوجود نتيجة للنضال الثوري للفلاحين الكنعانيين الذين كانوا يعانون القهر، وتحالفهم مع الأسباط الاسرائيلية شبه الرحل ضد المدن الكنعانية التي اضطهدت الفلاحين واستغلتهم. وقد تبني الفلاحون الكنعانيون ديانة يهوه، الإله الاسرائيلي الأول، كأيدولوجية ثورية مشتركة، ومن هنا جاء رفض هؤلاء لعبادة البعل التي كانت العبادة السائدة في المدن الكنعانية، حيث كانت العودة إليها تعنى العودة إلى القمع الطبقي القديم. ونتيجة لهذا الصراع ظهر مجتمع الفلاحين والرعاة الأحرار. وأدى

تطور الملكية فى اسرائيل، وبخاصة فى عهد سليمان، إلى استئناف الوضع الطبقي فى صورته المستغلة. وهناك العديد من نقاط الاتصال بين هذه النظرية وبين البحث الذى قام به فاكس فابر نى كتابه «قبائل يهوه» (The Tribes of yahweh).

وفى نفس الفترة ظهر اتجاه جديد لتطور دراما بداية اسرائيل، فنشر جورج مندنهول عالم الاجتماع الأمريكى الليبرالى عام ١٩٦٢ مقالا بعنوان «الاحتلال العبرانى لفلسطين»، وقدم نموذجا جديدا لبداية اسرائيل أطلق عليه إسم «النموذج الاجتماعى»، وانتهى فيه إلى أن تاريخ بداية اسرائيل بكامله من عصر الآباء، والخروج من مصر والته فى الصحراء، ودخول أرض كنعان والاستيطان فيها يفتقر لأى أساس حقيقى.

وقد أطلق مندنهول على بداية اسرائيل إسم «أسطورة الخلق»، لأنه يهدف لصنع تاريخ قومى بأسلوب مصطنع. ووضع مندنهول نموذجا بديلا، معتمداً على غياب البراهين الأثرية للعهد القديم، ورأى أن الأسرائيليين جاءوا من وسط السكان الكنعانيين الذين تركوا المدن خلال حرب طبقية وصعدوا الى منطقة جبلية فى البلاد، كان يستوطنها الفلاحون الكنعانيون، وهناك التقوا بجماعة صغيرة جاءت من الصحراء. تحمل تقاليد وحدانية الإله. وقد تبلور الشعب الاسرائيلى، حسب أقوال مندنهول، على مدى قرون من خلال فلاحى كنعان. وبعد ذلك أعاد داود وسليمان كتابة التاريخ رصنعا «أسطورة الخلق» التى تفتقد لأية خلفية حقيقية، وقد اعتمد مندنهول فى نظريته هذه على غياب الشواهد الأثرية من ناحية، وعلى التفسير الاجتماعى الماركسى للعهد القديم.

وقد رأى مندنهول ومن اتبعوا نظريته ومن بينهم مؤلفا الكتاب الذى بين أيدينا، أن تطور المملكة الإسرائيلية اتبع نموذج «الدولة السورية - الحثية التقليدية»، وهو ما أدى إلى إدخال «الوثنية فى التاريخ السياسى والاجتماعى لاسرائيل مما كان

له تأثيرات حاسمة ودائمة» والواقع أنه يصل بمفهوم المفارقة المتمثلة في أن المملكة الاسرائيلية كانت وثنية وكانت في الوقت نفسه اسرائيلية بشكل متفرد إلى تيجتها المنطقية، وذلك بالتمييز الحاد بين اسرائيل الأساسية أثناء «الثورة التوراتية» وبين إعادة ادخال الوثنية خلال فترة مملكتي داود وسليمان. ويرى مندنهول بأن مملكة داود كان اندماجاً معقداً بين «الثقافات الكنعانية وثقافة شمال سورية والأناضول والثقافة السورية الشرقية في العصر البرونزي»، مع بعض الملامح المشتقة من الحضارة المصرية، وأن تلك «الوثنية الكنعانية» المنحلة، هي أمر داخلي ينبغي النظر إليها بوصفها نقيض الثورة التوراتية النقية التي تعود إلى فترة ما قبل الملكية في اسرائيل. ثم يؤكد بأن هناك دلائل كثيرة تثبت الارتداد المنظم الى وثنية العصر البرونزي فاق التطور السريع لمملكة القدس، وأنه حدث في أقل من جيلين». ويرى أن ذلك كان بمثابة إنكار للاخلاقيات الدينية للعصر الموسوي وتحويل لها وعودة إلى ما هو عكسها، بحيث تصبح ختاماً احتكاريّاً للقوة السياسية، وهو النظام الذي انتقده أنبياء التوراة العبرية.

واعتباراً من السبعينيات قدمت في هذا الصدد دراسات عميقة وجادة أهمها ما نشر في عام ١٩٧٧ في كتاب «التاريخ الاسرائيلي واليهودي» على يد سبعة من المؤلفين (ميلر، مايز، م. كلارك، تومبسون، د. إرفن، أ. سوجين) عالجا الروايات التوراتية والفترات التاريخية حتى المملكة الموحدة، وكشفوا بالاجماع أن المعروف عن أصل إسرائيل هو لاشيء أو قليل للغاية، وأنه من غير المحتمل أن تصنيف المواد غير التوراتية كثيراً إلى ما نعرفه عن التاريخ السابق لاسرائيل وأن الروايات التوراتية، هي في أفضل الفروض، مصدر غير مناسب للمعرفة التاريخية. وكان هذا الاجماع بين هذه المجموعة من الباحثين بمثابة تأكيد على أن هذا الاتجاه يمثل حركة واسعة الانتشار في هذا الحقل.

وفى نفس الإطار، ظهر رد فعل حاد فى الحفريات التوراتية ضد الخضوع للدراسات التوراتية أو الارتباط الوثيق بها، إحتجاجاً على التركيز المبالغ به على محاولات التوفيق بين الحفريات الأثرية التوراتية والدراسات التوراتية سعياً لتأكيد المصادقية التاريخية لروايات العهد القديم.

٤ - تاريخ إسرائيل القديم بين نقد العهد القديم والاكتشافات الأثرية:

يستند استعراض التاريخ الاسرائيلى القديم فى هذا الكتاب على نظريات نقد «المقرا» (العهد القديم) وعلى الخلافات المرتبطة بذلك، ولأن المادة المقرائية ذاتها تتسم بالعموض وملئته بالأساطير وبالتداخلات المتأخرة فى النص، وأتتى يمكن تفسيرها بصور شتى. ومن جانب آخر فليس هناك مجال يفوق هذا المجال من حيث استيعابه لاحكام قديمة، وأيديولوجيات تسعى إلى تبرير موقف ونظريات تاريخية رسمية، وما يرتبط بذلك من مواقف دفاعية. ويرز كل ذلك فى الجانب الأكبر من الأدب التفسيري، حتى فى الجوانب التى تدعى انتهاج أساليب علمية. ولكن يبدو أن محاولات باحثين معينين تفسير المادة المعروضة بصورة تقترب بقدر الامكان من النظرية التقليدية، وتقنيد النظريات النقدية الخاصة بعلماء «المقرا» على اختلاف مدارسهم، تقود إلى مشاكل خطيرة، تفوق فى خطورتها، تلك التى أشار إليها هؤلاء الباحثون.

وسوف نستعرض فيما يلى بعض النقاط الهامة التى توصل إليها مؤلف الجزء الأول من هذا الكتاب فى إطار ماتوصل إليها علماء المدرسة النقدية للعهد القديم على ضوء الاكتشافات الأثرية:

١ - أن أصل أسباط اسرائيل، يعود إلى «الخبيرو» أو «العبيرو» الذين ورد ذكرهم فى سجلات عديدة فى الألف الثانى قبل الميلاد فى منطقة الهلال الخصيب. وكانت عشائر الخبيرو وتتكون جماعات رحل، وكانوا أحياناً من الرعاة

المسلمين وأحياناً من المغيرين الذين عملوا في بعض الأحيان مرتزقة للممالك المختلفة في المنطقة، ويميل الباحثون إلى ربطهم، «بالعبير»، (الاسرائيليون هم كما ورد في سلسلة الانساب المقرائية جزء من عشائر العبيرة). وأحد الأمور المشتركة بين أسباط اسرائيل أو بين جزء منها، هي التقاليد الخاصة بخروجهم من أرض مصر وليس لهذه التقاليد التي تبناها الجميع فيما بعد، أى شواهد أثرية أو وثائقية مساعدة. وفي إحدى المراحل المتأخرة لتسجيل التاريخ القديم لبنى اسرائيل وحين نسب ليعقوب آباء سابقون، برزت بالتالى الصلة المستمرة بين الآباء الثلاثة الى أن نزع الجيل الرابع من بنى اسرائيل إلى مصر.

٢ - أنه على امتداد التاريخ المسجل، وقبل ذلك أيضاً، قد نزحت جماعات وأفراد الى وادى النيل وخرجوا منه (توجد اصداء اسطورية لذلك فى قصص الآباء الذين نزحوا الى مصر)، ولذلك فمن المحتمل للغاية أن الأحداث التى أختزنت فى وعى إحدى تلك الجماعات التى أضيفت إليها بمرور الأجيال طبقات من القصص الاسطورية وقصص المعجزات، لم تحظ مطلقاً بالاهتمام من جانب مدونى السجلات المصرية أو ربما إعتبروها غير ذات أهمية. وقد كان تسلل أسباط اسرائيل الى أرض كنعان جزءاً من هزة واسعة شملت كل مناطق الحضارات القديمة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط خلال الربع الأخير من الألف الثانى قبل الميلاد، وكانت تلك فترة أفول الدول العظمى، وبخاصة الامبراطورية الحيثية (فى الشام) وكذلك فى مصر. وفى أعقاب ذلك جاء تسلل العشائر الآرامية وسيطرتها على مناطق سوريا الحالية وإستيطان «شعوب البحر» (البليستيون) القطاع الساحلى لكنعان جنوبى مناطق سيطرت عليها ممالك صور وصيدا، وتوغل أهل عيلام فى اتجاه الشرق نحو بلاد ما بين النهرين، كما غزت العشائر الدورية مناطق الثقافات المكتسبة. وهذا التسلل الذى قامت به أسباط اسرائيل، وعلى النقيض مما ورد فى سفر يشوع الذى كتب بعد الأحداث الفعلية بأجيال، كان يهدف كما يبدو إلى

خدمة الأغراض السياسية والأيدولوجية للمملكة المتأخرة (وإن كان هناك من يؤخر تأليف السفر الى فترة الهيكل الثاني، وهناك من يقدمون موعد التأليف أو على الأقل جزءا من السفر إلى فترة تقترب من فترة وقوع الأحداث الواردة فيه) وكما يبدو فإن هذا التسلسل لم يحدث في غالبية الأحوال عن طريق الحرب والاحتلال.

٣ - أن الاستيطان الاسرائيلي تم في أغلبه بالطرق السلمية وعن طريق التسلسل البطيء الذي قامت به الأسباط الى المناطق الجبلية الجرداء والخالية من السكان فلم تكن تتوافر لتلك العشائر الأولى امكانيات مجابهة التشكيلات العسكرية المتطورة لدى مدن الدولة الكنعانية، التي تقع أساسا في السهول والوديان الخصبة. وكانت هذه التشكيلات مجهزة بأسلحة ومركبات حديدية. وقد تبين أن ما جاء في سفر القضاة، الذي يحكى عن خضوع الأسباط الاسرائيلية في حالات عديدة للكنعانيين وتعرضها للضغط من جانب لصوص الصحراء، أكثر مصداقية من الناحية التاريخية. ويقدم البحث في مجال الآثار صورة مختلفة تماما لقصة إحتلال كنعان، كما وردت في «المقرا». فقد تبين أن اختفاء الحضارة الكنعانية واستيطان شعب اسرائيل في البلاد وترسيخ أقدامه فيها ليس بالحدث التاريخي غير المتكرر، بل هو يتكون من أحداث تاريخية تمتد لفترة تزيد عن قرنين من الزمان ابتداء من القرن الثاني عشر وحتى القرن الحادى عشر قبل الميلاد. وتبين أيضا أن جزءا من المدن التي ورد ذكرها ضمن المناطق التي استولى عليها يشوع، لم تكن قائمة على الاطلاق في نهاية الفترة الكنعانية، ومنها مدن: «حشفون» و«أريحا»، «هاعى» وغيرها، واستمر ذلك فترة زمنية أطول في أماكن أخرى. فجبل منشة كان زاخرا بأودية مفتوحة وخصبة إحتشد فيها بنو اسرائيل منذ القدم، وأقيمت فيها مراكز استيطان إسرائيلية.. وكانت المدن الكنعانية في هذه المنطقة تفوق في العدد المدن الموجودة في الأجزاء الأخرى من الجبل، وكانت المدن الواقعة على أطراف الجبل، مدنا اسرائيلية في الفترة الملكية فقط. ولم توجد في المدن الواقعة في قلب

المنطقة الجبلية أى علامات على حدوث خراب أو أى اختلافات بارزة، عما كان موجودا فى الحضارة القديمة، التى تمثل نقطة وصل بين العصر البرونزى والعصر الحديدي. أى لم يكن هناك احتلال وتخريب، كما ورد فى سفر يشوع، بل ما حدث كان عملية انتقال بطيئة إلى أرض كنعان. وقد حدث ذلك فى البداية من خلال ارتباط بمدن الدولة الكنعانية ثم حدث ذوبان متبادل، شهد بعض الصراعات الدموية والسيطرة الاسرائيلية، باعتبار أن اليهود شعب مسيطر (وردت اشارات الى ذلك فى سفر ملوك أول ٩ : ٢٢)، «وأما بنو اسرائيل فلم يجعل منهم عبيدا لأنهم رجال القتال وخدامه وأمرأؤه وثوالثه ورؤساء مركبائه وفرسانه» (ملوك أول ٩ - ٢٢)، إلى أن حدث تعايش بين المستوطنين الاسرائيليين والسكان الكنعانيين المحليين واتحدوا فى أمة واحدة على أيدي شاول، داود وسليمان.

٤ - أنه تم الحفاظ على الاستمرارية اللغوية لكنعان، ولم تكن هناك أى قطيعة بين اللهجات الكنعانية القديمة، التى تنتمى الى أسرة اللغات السامية الغربية وبين اللغة العبرية، التى تنتمى أيضاً إلى تلك المجموعة اللغوية. وتوضح هذه الاستمرارية فى تبنى الأسباط المستوطنة للغة المحلية، الأمر الذى يحدث فقط فى ظل التأثير البطيء، وليس من المعقول أنهم لم يتبنوا أيضاً الثقافة المحلية التى كانت بالطبع أعلى من المستوى الثقافى من ثقافة القوم الرحل البدائيين.

ويبرز التقارب اللغوى بين الشعوب المجاورة أيضاً فى لغة نقش ميشع ملك موآب، المكتوب بالموآبيه وهى شديدة القرب إلى العبرية، مع اختلافات معينة فى القواعد وكذلك فى الخط الكنعانى العبرى، ولذلك فإنه من المستحيل إيجاد أى اختلافه جوهرى من ناحية مضامين العبادة والمضامين الأيديولوجية بين بنى اسرائيل القدامى وبين جيرانهم. وتدل الاكتشافات الأثرية التى عثر عليها (حسب النظام الكرونولوجى لتلك الحضارات) فى أبلا، وفى تل ماري وفى

أوجاريت (رأس شمرا) على وجود استمرارية حضارية تاريخية للمنطقة كلها مثل اكتشاف أسماء مثل : ابراهيم، داود، ميخا، اسرائيل واسماعيل في أبلا وفي وثائق تعود إلى ما قبل خمسة آلاف عام مضت. ويقول «فتيناتو» وهو أحد الباحثين في حضارة «أبلا»، أن لغة «أبلا قريبة إلى العبرية وإلى اللغات الأخرى التي كانت منتشرة في المنطقة». وعثر في تل ماري على وثائق تتناول القبائل الغربية السامية والمؤسسات الخاصة بها خلال الألفين الثاني والثالث قبل الميلاد، وهي تلقي الضوء على بناء المجتمع القبلي الاسرائيلي، واستقراره التدريجي في كنعان. وتحتوي تلك الوثائق على أسماء مركبة من كلمات ملحقه باسم الرب «إيل» على غرار الأسماء الموجودة في العبرية مثل : اسرائيل واسماعيل. كما عثر على كلمات مثل : «شدأي» وعلى أسماء سبطي «لاوى وبنيامين» (الذي يعنى ابن الجنوب). وكذلك عثر على كلمات قريبة للغاية من كلمات عبرية مختلفة. وتكشف وثائق مدينة أوجاريت، وهي مدينة خربت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، والمكتوبة أيضا بلغة قريبة من العبرية، وإن كانت مكتوبة بلغة تختلف عن اللغة الأصلية، عن نظام ميثولوجي كامل يلقي الضوء على تعبيرات وأجزاء عديدة وردت في العهد القديم، أى أن التقاليد اللغوية والأدبية العبرية هي استمرار للتقاليد اللغوية والأدبية الكنعانية، وهو ما يثبت التشابه الكبير من الناحية الثقافية بين أسباط اسرائيل وجيرانهم، حتى أنهم يشكلون في الواقع أجزاء من استمرارية ثقافية واحدة.

٥ - يستدل من دراسة سفر القضاة أن بنى اسرائيل لم يعملوا ككيان قومي، فيما عدا ما جاء في وصف حرب عنتشيل بن قناز ضد كوشن رشعتايم، ملك ما بين النهرين. ويشك الباحثون في هذا الوصف، كما لم ترد الإشارة إلى أى كيان قومي أو مؤسسة سياسية مركزية ترسم السياسة القومية. وقد فسر علماء نقد المقرء، التناقض القائم بين الواقع التاريخي الذي يرد في قصص الأحداث، كما وردت في سفر القضاة، وبين الأوصاف الخاصة بالإستيلاء الكامل على البلاد كما وردت

فى سفر يشوع الذى يعتمد عليه المدخل والإطار المنهجى لسفر القضاة، بأن ذلك راجع لانحياز محرر السفر الذى حاول تقييم تلك الفترة القديمة من تاريخ اسرائيل، انطلاقاً من نظره قوميه تبلورت فقط فى أواخر الهيكل الأول أو فى فترة متأخرة عن ذلك. وقد توصل البحث النقدي للمقرا فى تقييمه لتطور تاريخ اسرائيل إلى رأى مغاير تماماً لما ورد فى سفر يشوع وفى سفر القضاة حيث إنتهى هذا البحث إلى أن الأوضاع التى تحدث عنها سفر القضاة لم تكن مسبقة بوضع يتسم بالبلورة القومية، الدينية والعسكرية، وصل إلى ذروته عند احتلال البلاد وتوزيعها بين الأسباط، ومن ثم بدأ يشهد ضعفاً وتفسخاً فى أعقاب هذا الاستيطان، بل العكس هو الصحيح. فبعد الاستيطان المنشغل للأسباط المختلفة بدأت تكتلات عامة بينها، وصلت لأول مرة إلى بلورة قومية تمثلت فى إقامة الملكية فى اسرائيل.

٦ - من الواضح أن الباحثين التوراتيين وعلماء الآثار كانوا مدركين منذ فترة طويلة لمسألة شح الأدلة الأثرية، ولكنهم أصرروا مع ذلك على تصور المسرح الهائل لامبراطورية داود على أنه يمثل احدى القوى العظمى فى العالم القديم. وقد تجاهل خطاب الدراسات التوراتية النقطة التى أشار إليها طومسون فى بحثه المحمود عن الدولة الاسرائيلية فى العصر الحديدي المبكر عن عدم وجود مركز قوى سياسى واقتصادى يتجاوز حدود الاقاليم المحلية فى فلسطين، تجاهلاً تاماً. وكان من الواجب أن تؤدى دراسة الأوجه الأعم للإمبراطورية الى موقف أكثر حذراً يخفف من غلواء المطالب الأكثر تطرفاً، التى تزعم أن دولة داود كانت احدى القوى الرئيسية فى العالم القديم، وأن مملكة داود وسليمان قللت من شأن الهيمنة الامبريالية الخارجية، تلك الهيمنة التى كانت سمة ملازمة لتاريخ فلسطين من العصر البرونزى وحتى عصرنا الحاضر، كما كانت هى الحقيقة الأعم للقوة الامبريالية والهيمنة التى سعت للسيطرة على فلسطين ورسم معالمها طوال تاريخها. وعلى الرغم من ذلك، فإن أنصار اختلاق وجود ماض متخيل لامبراطورية داود لم

يأخذوا في اعتبارهم أن الأدلة الأثرية عن قيام مملكة داود لم تكشف إلا عن بنية لدولة صغيرة جداً، وأن الدلائل توحى بأن القدس لم تصبح عاصمة لدولة إقليمية قبل القرن السابع ق.م، ولم ترق إلى مستوى العاصمة إلا في الفترة الفارسية. وقد أثارت التساؤلات حول وجود «المملكة الموحدة التوراتية» على أساس أن سكان يهودا لم يكونوا مستقرين، ولم تكن هناك قاعدة لسلطة سياسية أو اقتصادية يمتد نفوذها إلى مختلف الأقاليم الصغيرة في فلسطين، قبل توسيع الهيمنة الامبريالية الآشورية في جنوب منطقة شرق البحر المتوسط. وقد استمرت الدراسات التوراتية في تصور امبراطورية اسرائيلية هيمنت على تاريخ المنطقة وحددت معالمه، ورأى الكثيرون في الاكتشافات الحديثة لجزء من نقش أرامى في تل دان Tel Dan (تل القاضي) تأكيداً وتبريراً لهذا التصور لماضي إسرائيل المجيد، ونظر إليها البعض على أنها نوع من الدفاع النهائي ضد الكتابات التاريخية الصحيحة التي أثارت شكوكاً حول تاريخية التراث التوراتي وكان لهذا كله أثر عميق على فكر اليهود وتطلعاتهم، ولكن على الرغم من ذلك، فإن المكتشفات الأثرية المتعلقة بهذه الفترة صحيحة جداً.

٧ - بدأ لوح مرنبتاح الحجري المنقوش Merneptah الذي اكتشف عام ١٨٨٦، والذي اكتشف فيه أول ذكر لاسرائيل في نص خارج عن التوراه، يكتسب أهمية خاصة في الجدل الدائر مؤخراً يشبه الأهمية التي أوليت لنقوش تل دان في دفاعها عن تراث داود التوراتي. فالإشارة المخرجة إلى هزيمة اسرائيل على يد الفرعون مرنبتاح ومفادها «قضى على اسرائيل، لكن لم يتم القضاء على ذريتها»، أصبحت مركز الاهتمام في الدفاع عن اسرائيل التوراتية في مواجهة النزعة التشكيكية لدى أصحاب حركة «البحث الجديد في اسرائيل القديمة». ودافع كثيرون من الباحثين التوراتيين عن تاريخ اسرائيل المستوحى من التراث التوراتي، والمبنى على تفسيرهم لهذا النقش. وقد أصروا بعناد على أنه «لا يوجد أي سبب

مطلقاً للشك فى أن اسرائيل التى وردت فى هذا اللوح الحجرى المنقوش هى اسرائيل التوراتية فى فترة ما قبل المملكة» ، وأنه من غير المعقول «إنكار هذه العلاقة. وهنا يصبح اللجوء إلى ما هو معقول جزءاً من الخطاب الذى يدعى. الموضوعية ليدعم التصور المهيمن فيما يتعلق بتاريخ اسرائيل القديمة كما صورها خطاب الدراسات التوراتية. والمعلومات الوحيدة الواضحة التى يوفرها هذا اللوح الحجرى المنقوش هى أن كياناً ما يدعى اسرائيل واجهه جيش الفرعون فى أواخر القرن الثالث عشر ق.م. ولكن هذا لا يثبت أو ينفى أن إسرائيل كانت تنظيماً قبيلاً أو مساحة جغرافية (من المحتمل أن هؤلاء الذين حملوا اسم «إسرائيل» وأشار إليهم النقش كانوا من البطون التى إنتسبت إلى يعقوب، (أى إسرائيل) ولم ترحل بصحبته إلى مصر). وقد لعب لوح مرنبتاح دوراً رئيسياً أيضاً عند بعض أولئك المنهمكين فى البحث الجديد عن اسرائيل القديمة.

٨ - على الرغم من أن التوراة تقول أن داود حكم لمدة ٤٠ سنة فإنه مما يدعو للسخرية ألا نجد إلا آثاراً ضئيلة عن فترة داود كما لا توجد أى مبان أثرية ترجع الى هذه الفترة وبالمقارنة مع الحضارات المجاورة الآرامية والحيشية الجديدة فى سوريا، والفينيقية فى قبرص، ومع مستعمراتها الخارجية المختلفة عبر البحار وبخاصة آشور وبابل - فإن الآثار المادية الباقية فى أرض فلسطين عن هذه المملكة فقيرة للغاية. كما يلاحظ عدم وجود نقوش على المباني والتماثيل وكذلك عدم وجود القصور الضخمة والعباديات المنقوشة بدقة أو الحلى والمجوهرات المزخرفة، أو الأواني المصنوعة محلياً، والتى ترجع الى فترة المملكة، وكانت معظم القطع الفنية مستوردة. ولم يزد عمر مملكة إسرائيل على ثلاثة أرباع القرن. وكانت الفترة الوحيدة التى أصبح فيها اليهود قوة سياسية هامة فى غرب آسيا. وقد سجلت أمجادها بمباهاة فى التوراة. وهنا نجد استثناء فى تاريخ المنطقة لم تتمكن الجهود

الهائلة للتنقيبات الأثرية حول فترة العصر الحديدي من كشف الشواهد المادية المؤيدة له.

وهكذا يشير غياب، أي سجل أثري أخطر الشكوك حول تصور إمبراطورية إسرائيلية كانت تعبيرا عن حضارة ذات نهضة، مما يوحي بأننا بصدد ماض متخيل. والخلاصة هي أن الحديث عن إمبراطورية داود وتحقيق ما يسمى «إسرائيل الكبرى»، التي تصور باستمرار على أنها استثناء في تاريخ منطقة الشرق الأدنى القديم يوصف بأنه غير مجرى تاريخ المنطقة، لم يجد ما يؤيده في الانتاج البيروقراطي للحضارات المحيطة، وسواد قامت أم لم تقم فإنها لم تترك شواهد ملموسة في الآثار المادية في المنطقة. ومع أن البعض يرجع عدم ذكر مملكتي سليمان وداود في النصوص القديمة للشرق الأدنى الى الضعف السياسي لمصر وأشور، مما يعنى أنها لم تكن على اتصال بالقوة المحلية في فلسطين، فإنه حتى لو كان ذلك صحيحا، فمن الصعب تصور هذا الصمت الكامل لسجل الأثرى، إذ أن دولة كبرى إلى مثل هذا الحد، إن لم نقل إمبراطورية، لابد أن تحدث تغييرات أساسية في التنظيم الاجتماعى والسياسى وهو أمر كان ينبغى أن يترك بعض الأثر فى الوثائق الأثرية على الأقل. إلا أن المؤرخين التوراتيين يعتقدون أنه على الرغم من عدم وجود الدليل المؤيد، وحتى إن اعترفوا بمبالغات كتبة التوراة، فلا ينبغى أن يشك احد فى تاريخية historicity مملكة داود وسليمان. وبالإضافة إلى ذلك على الرغم مما ورد فى التوراة من أن سليمان قد تزوج ابنة الفرعون - وكان هذا انجازاً للنظر إذا ما أخذنا فى الاعتبار أن مثل هذه الأمور كانت ممنوعة على الملوك الحيثيين - فإن الوثائق الأثرية المصرية المتوفرة لم تذكر شيئاً عن هذه الحادثة المهمة.

٩ - يشكك حليم تدمور فى المفهوم القائل إن حكم سليمان كان عصراً ذهبياً، وعلى الرغم من ملاحظاته أن الدلائل الأثرية فى حازور Hazor ومجدو (تل

المتسلم) Megiddo، وجازر (تل الجزر) Gezer تدل على أن سليمان كانت له أعمال في مجال تشييد المباني، فإنه يجعل هذا الحكم مشروطاً، إذ يصف تلك المنحزات بأنها «متواضعة إلى حد ما» إذا ما قُرِنت بعمري ونشير تدمور كذلك، إلى أنه إذا كان سليمان حاكماً قوياً ثرياً بمقاييس العصر الحديدي المبكر في فلسطين، إلا أنه إذا ما نظرنا إلى ذلك من منظور أوسع في سياق الشرق الأدنى القديم، يمكننا اعتباره حاكماً محلياً في دولة مدينة موسعة، أكثر من امبراطوراً على مستوى عالمي.

ويحدد تدمور أن مملكة سليمان كانت مكونة من مجملها من فلسطين الغربية وجزء كبير من شمال شرق الأردن، ولكنه يستثنى الجزء الأكبر من ساحل البحر المتوسط الذي كان تحت سيطرة البلستيين والفينيقيين، ويعلن، على الأقل بأن إسرائيل التي حكمها داود لم تكن الكيان الوحيد في المنطقة، وإذا اعترف باحتمال وجود روايات أخرى بديلة للماضي، فإن سيطرة فلسطين (شعب البلست) والفينيقيين على الجزء الأكبر من ساحل البحر المتوسط تصبح شيئاً مؤكداً كما يؤكد كذلك على أن كنعان قدمت صفوة المفكرين والمتعلمين الذين سيروا مملكة داود، وأن المراكز السكانية الفلسطينية أنتجت أواني فخارية راقية وأعمالاً فنية تدل على حرفية عالية، بينما الاسرائيليون وفقاً لرأى معظم المختصين التوراتيين. وعلماء الآثار، كانوا يعيشون في مواقع ريفية صغيرة، وكانت ثقافتهم فقيرة وفجة ومادية، أي أن الفقر كان كامناً في النظام والقيم الدينية التي فائقة الأهمية. يرى أن المملكة الإسرائيلية قد أفسدتها الحضارة الأصلية تماماً، ويصبح الفرق هنا، هو بين إسرائيل الجوهريه واصطبغ المملكة الداودية بصبغة وثنية تنكر هذه الطبيعة الجوهريه.

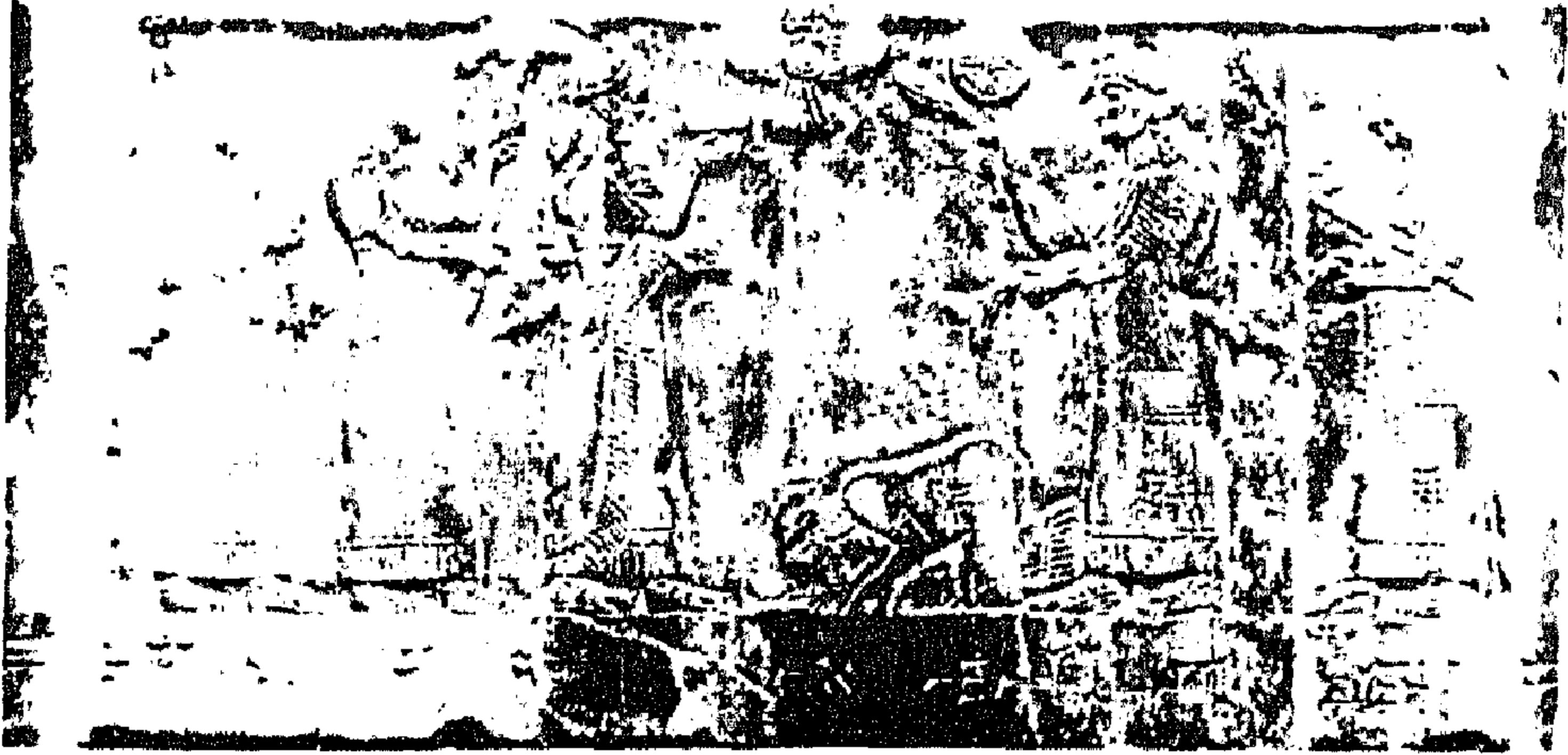
وأخيراً، فإن هذا الكتاب بجزئية (الأول والثاني) يقتصر على عرض لتاريخ
العبرانيين وبنى اسرائيل فى التاريخ القديم، حتى الفترة المعروفة بخراب الهيكل
الثانى فى ٧٠م، وهى الفترة التى تستند إليها الصهيونية فى دعاواها بحق الارث فى
أرض فلسطين. ومن هنا، لم أهتم بإضافة حقبة ما يسمى بالسبى البابلى والحقب
الفارسية واليونانية والرومانية، لأنه لم يكن لليهود خلالها أى سلطة سياسية وكانوا
خاضعين لثقافات هذه الحضارات كما خضعوا من قبل للحضارة المصرية
والكنعانية.

وهذا الكتاب، بعد هذه المقدمة التوضيحية، التى لاشك فى أنها سوف ترشد
القارئ كثيراً فى قراءته، هو بلاشك إضافة للمكتبة العربية، فى مجال دراسة تاريخ
اسرائيل القديم، وهو مجال لا يحظى بالاهتمام الكافى، وخاصة، وأن كثيراً مما
يجرى اليوم فى نفس منطقة الأحداث القديمة، فى فلسطين وفى منطقة الشرق
الأوسط (الشرق الأدنى القديم) يمكن قراءته واستخلاص العبر منه، بالرغم من
تغير المشاهد والتحالفات والأشخاص، ولكن على ضوء عبء التاريخ القديم الماثلة
أمام أعيننا بالنسبة للمشهد المأساوى الذى نعيشه اليوم منذ قيام دولة إسرائيل
الحديثة فى أرض فلسطين محاطة بدول الحضارات القديمة نفسها (مصر - العراق
- سوريا ولبنان) من خلال حالة صراع دراماتيكي مع أهل البلاد الأصليين من
الفلسطينيين ثقافياً وحضارياً حول الحق فى الأرض وفى الوجود!!

وختاماً لا يفوتنى أن أتوجه بالشكر لتلميذى النجيين السيدة هالة زاهر المدرس
المساعد بقسم اللغة العبرية وآدابها بكلية الآداب جامعة عين شمس والأستاذ محمد
عبود المعيد بنفس القسم على معاونتهما الجادة لى فى إصدار ترجمة هذا الكتاب.

والله الموفق ، ، ،

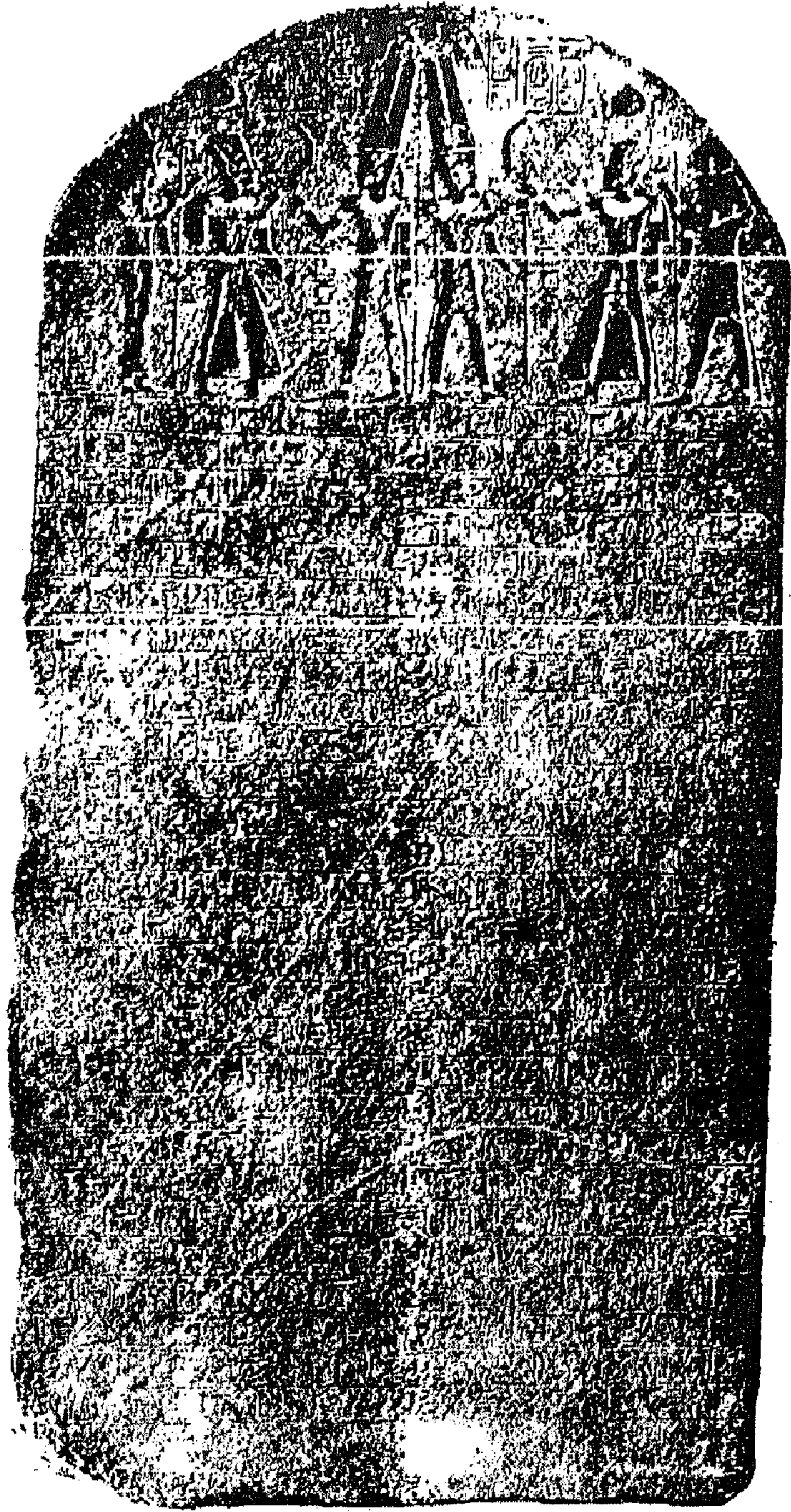
دكتور رشاد الشامى / مصر الجديدة ٦/١٠/٢٠٠٠



ياهو ملك إسرائيل يستسلم أمام شلمنصر الثالث ملك آشور، والكتابة على اللوحة بالخط
المسماري تقول «هدية ياهو بن عخرى»



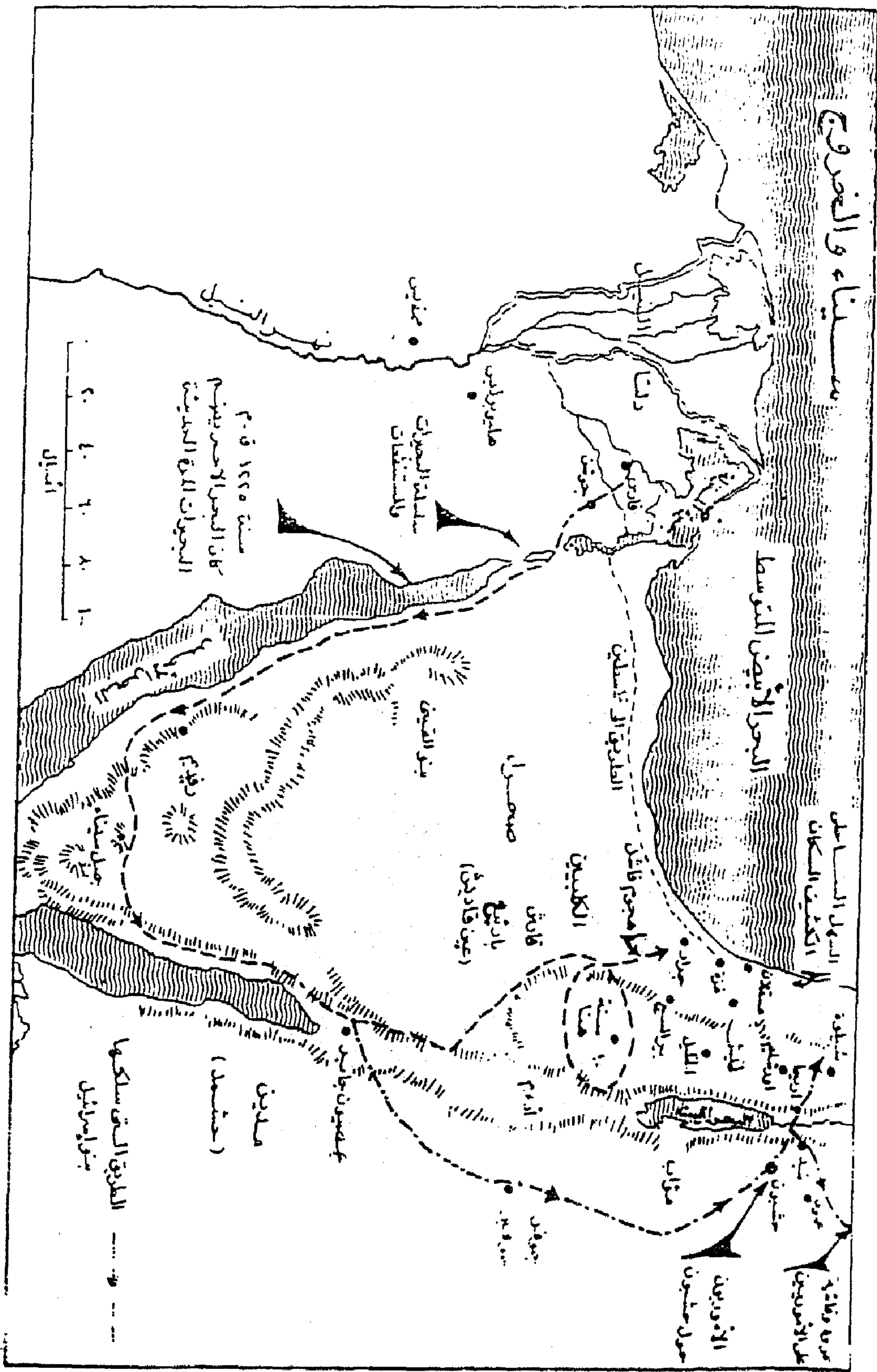
صورة لأسرى وأسماء مدن قام سينشق فرعون مصر بأسرهم في حملته العسكرية على
فلسطين (معبد الكرنك)



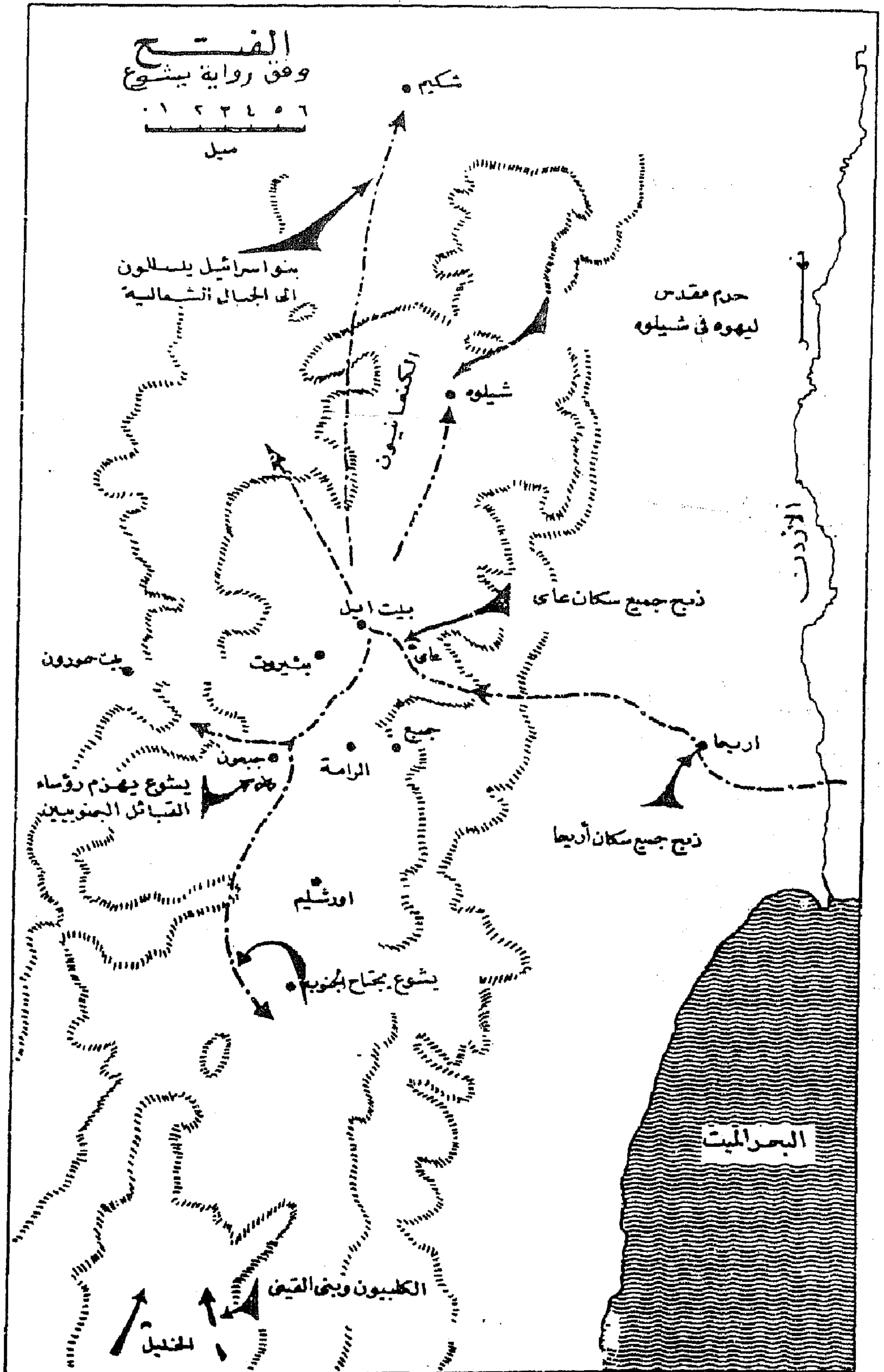
لوحة انتصار فرعون مصر مرنبتاح، تعود إلى عام ١٢٢٠ ق. م. تقريرا، وقد ورد عليها
لأول مرة الإشارة إلى اسم إسرائيل في مصدر غير التوراة

[illegible]

خريطة رقم (١)



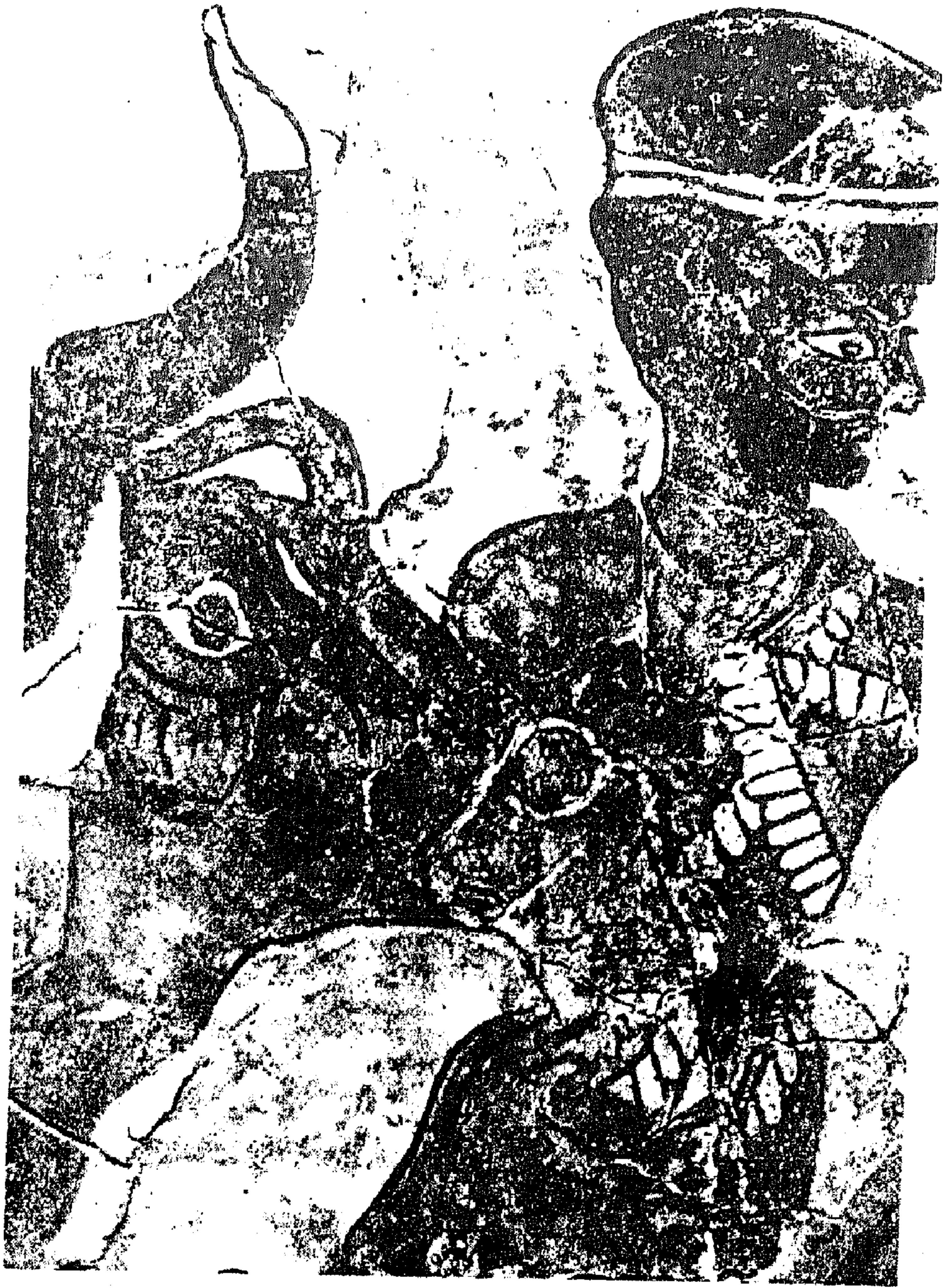
خريطة رقم (٢) (اليهود واليهودية)



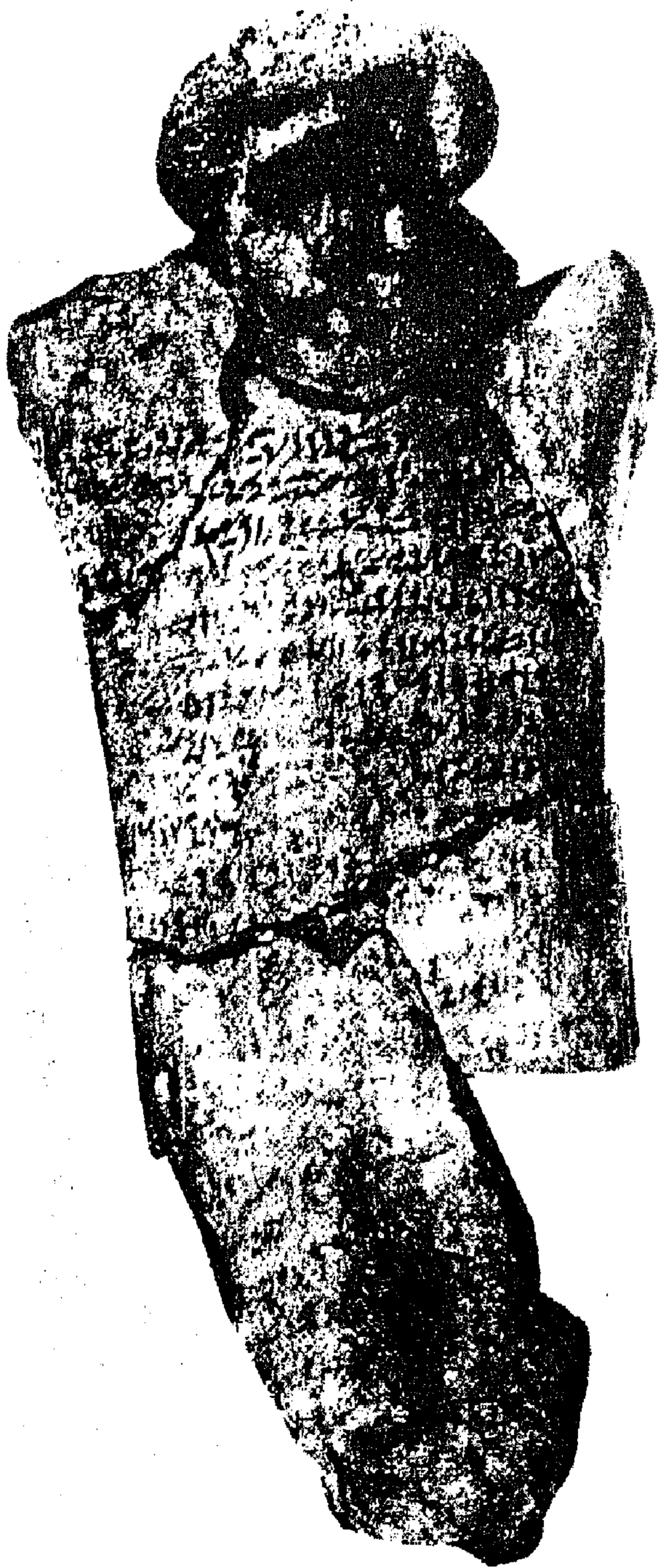
خريطة رقم (٤) (اليهود واليهودية)



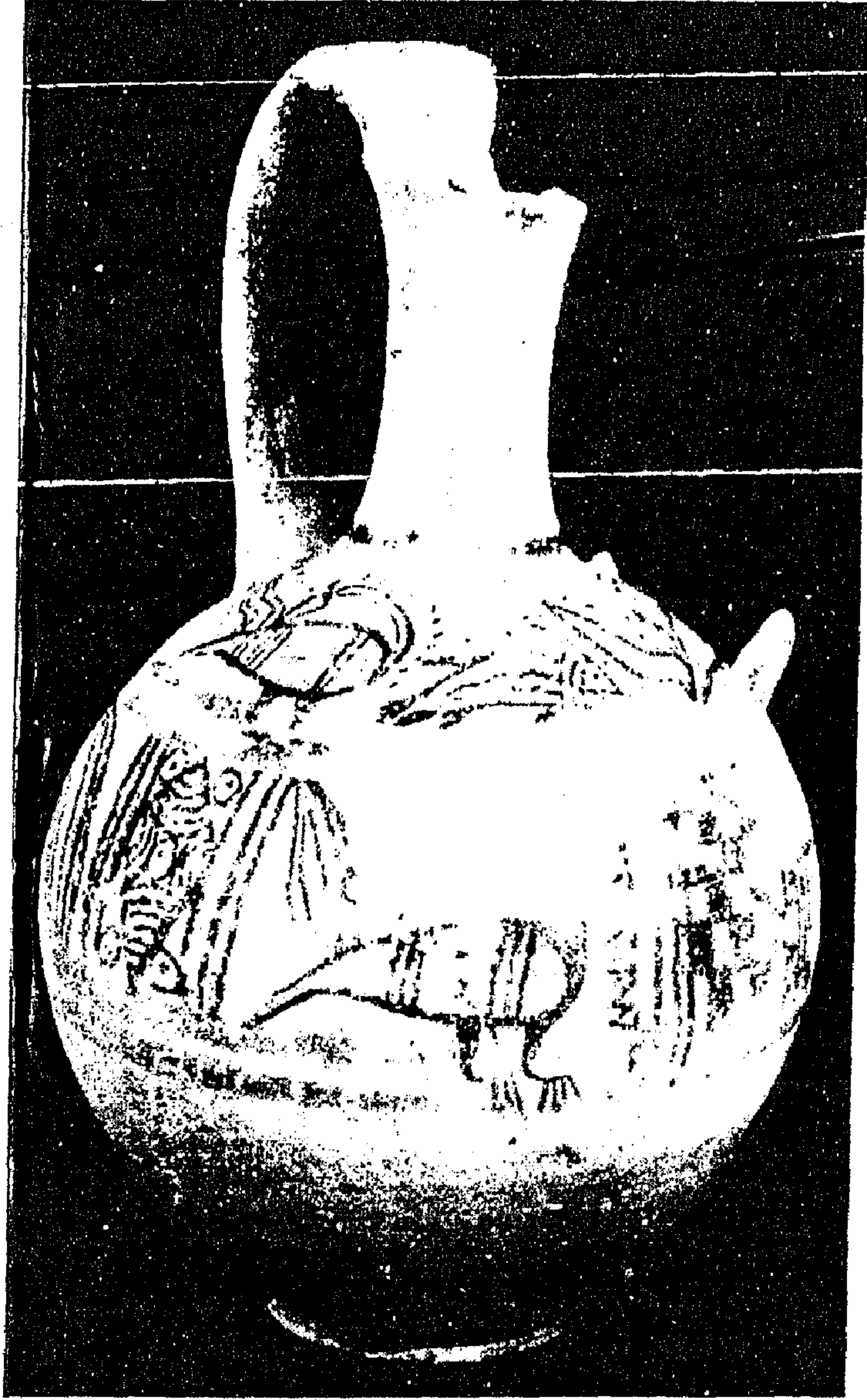
حصن كنعاني في لوحة مصرية للفرعون سيتي الأول (١٣٠٠ ق.م.)
بجوار حصن يسمى «مدينة كنعان» ويظهر فيه المحاربون الذين يسمون «الشوسيين»



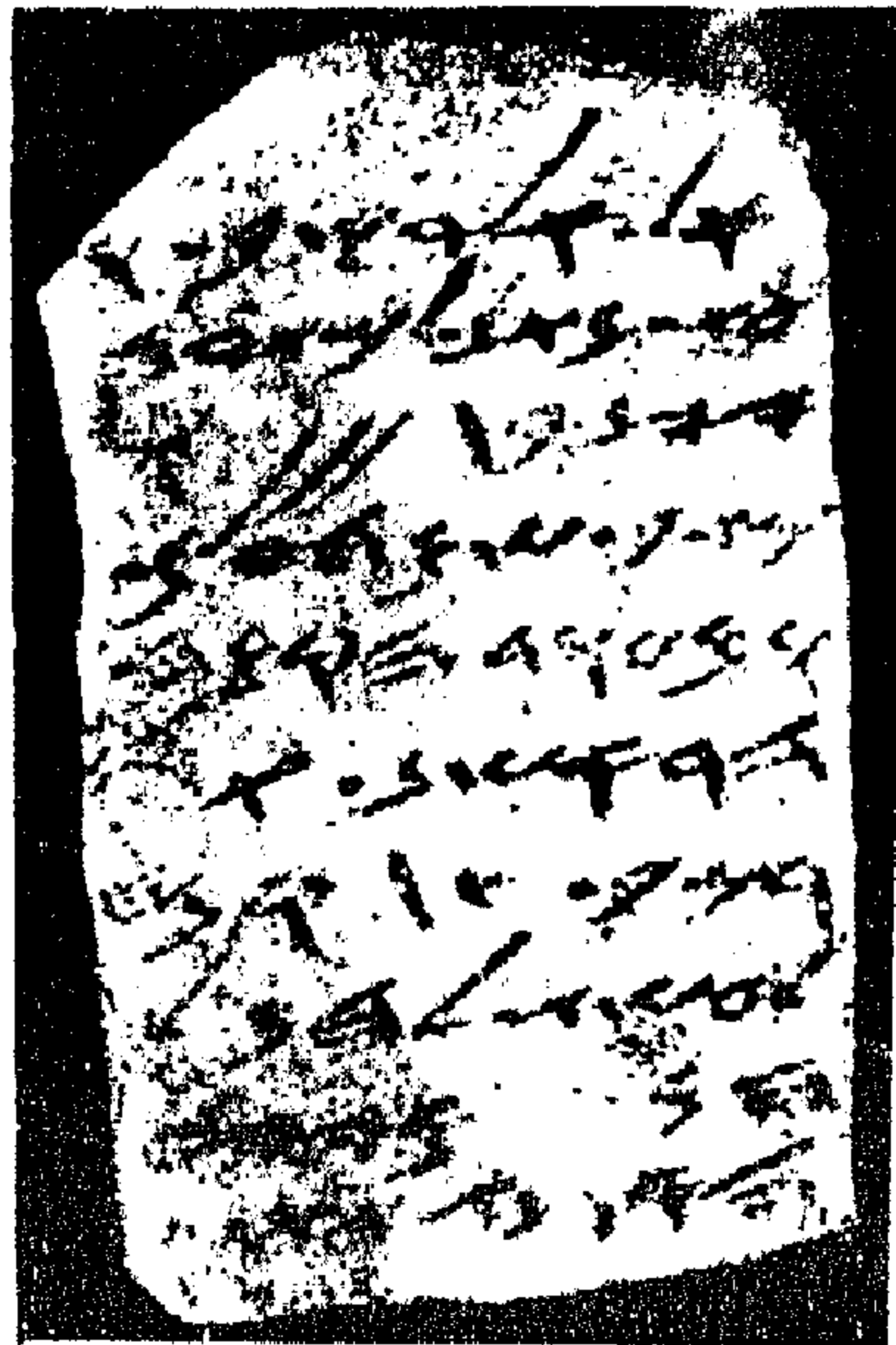
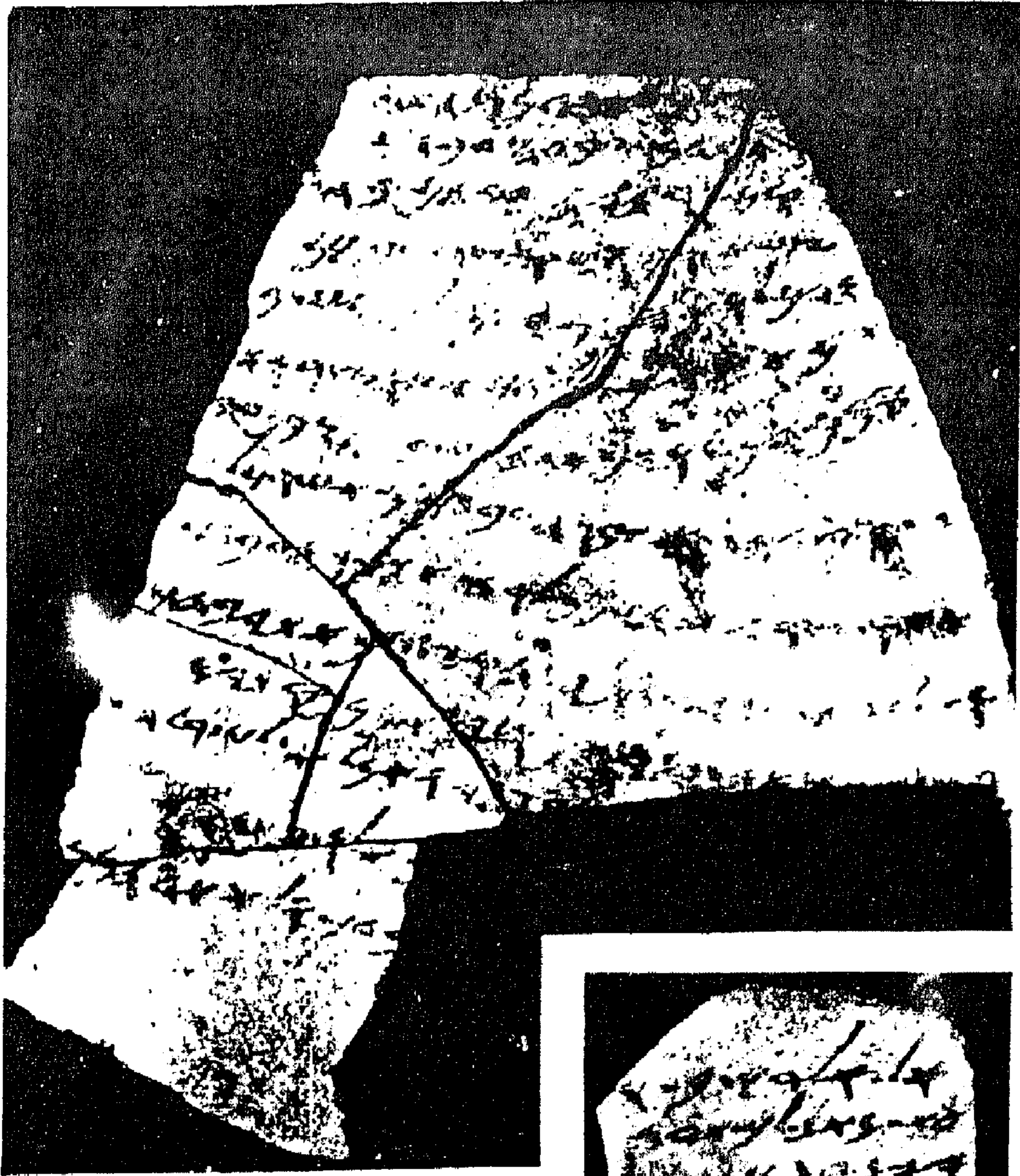
رسم حائط ملون من قصر مارى ينتمى أسرة الملوك السامية الغربية يعود إلى القرن الثامن
عشر ق.م. ويظهر فى الصورة شخص سامى غربى يقدم قربانا



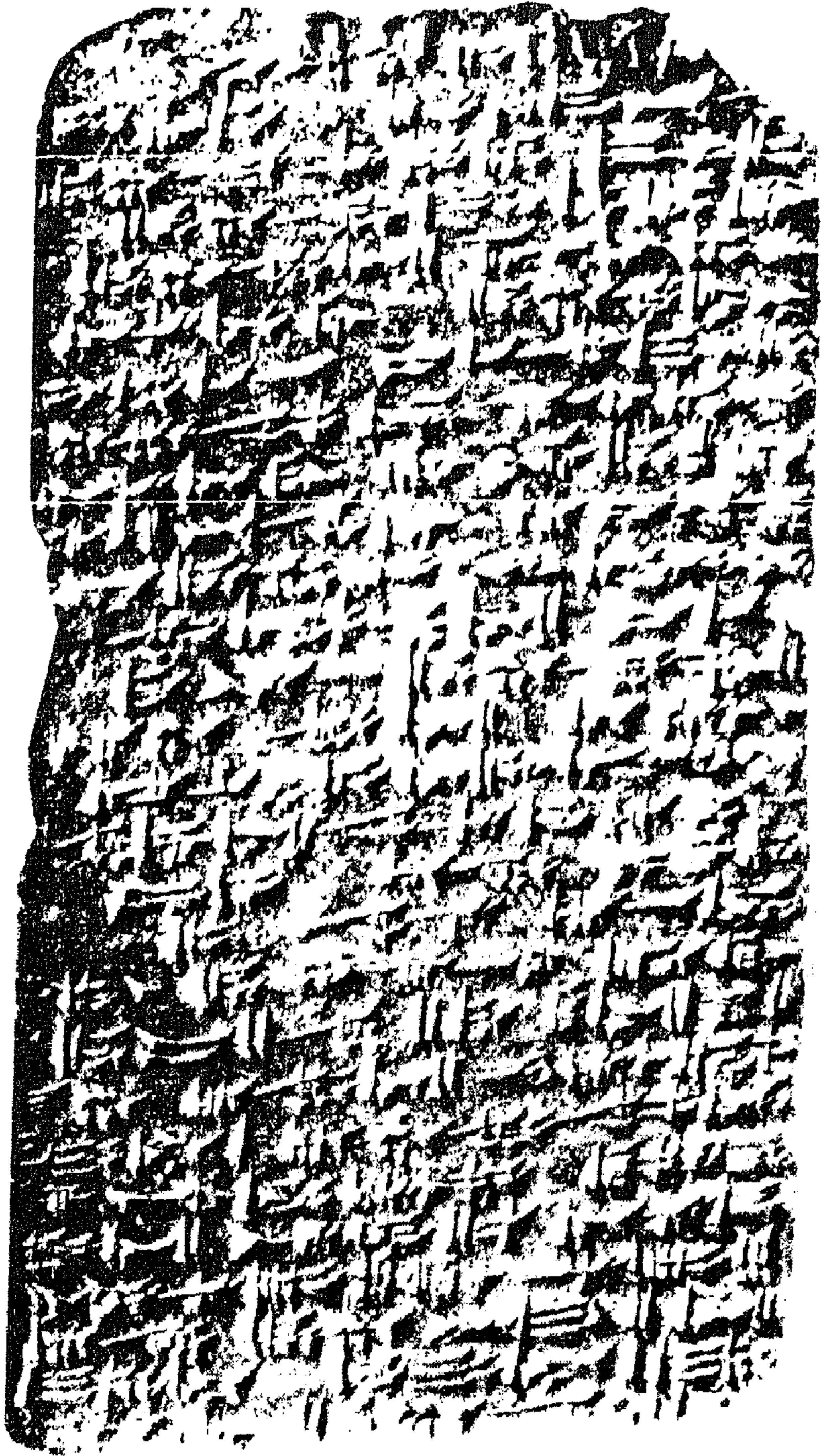
تمثال مصري من الطين يمثل حاكما خاضعا لمصر من القرن الثامن عشر ق. م. ويظهر
على التمثال أسماء لأكثر من ستين حاكم من أرض كنعان وأماكنهم



جرة فلسطينية من الفخار تم اكتشافها عام ١٩٦٨ في قبر بجوار تل عيطون غرب مدينة
الخليل تعود للقرن الثاني عشر ق.م. والجرة مزينة برسوم ملونة كانت تميز الفخار
الفلسطيني



الصورة العلوية خطاب شكوى لأمير في فترة ياشياهو عشر عليه شمال أشدود
 الصورة السفلى - خطاب مرسل إلى إلياشيب أمير عاراد بشأن توزيع المواد الغذائية -
 مكتوب بعربية تعود إلى نهاية فترة مملكة يهوذا



— خطاب عبد حيفا ملك القدس إلى فرعون مكتوب على لوحة من الطين
بالخط المسماري باللغة الأكديّة عشر عليه تل العمارنة في مصر العليا



معبد كنعاني في الجزء السفلي لمدينة حاصور تعود إلى العصر البرونزي المتأخر (القرن
الحادي عشر ق. م.)

أرض "فلسطين" بين بلدان الشرق القديم

تشكل المناطق التي شهدت تاريخ "بنى إسرائيل" فى حقبة "المقرا" قطاعاً ضيقاً من الأرض. يبلغ اتساعه ما يقارب ١٣٠ كم على أقصى تقدير، داخل المنطقة الواقعة فيما بين ساحل البحر المتوسط غرباً، والصحراء العربية شرقاً.

وتقع هذه الأراضى عند الطرف الجنوبي الغربى لسلسلة من البلدان تتحنى سوياً فى صورة قوس أو هلال. بدءاً من الخليج العربى وحتى شبه جزيرة سيناء. وقد اشتهرت هذه المنطقة باسم "الهلال الخصيب"، وهو مصطلح يعبر، دون شك، عن التميز الطبيعى الجغرافى الذى يتميز به هذا القوس، بالمقارنة مع الصحراء العربية والمرتفعات الجبلية الجذباء التى تحيط بها. ويمتد جنوب غربى أرض فلسطين، "وادي النيل الخصيب"، إذ تفصل بينهما شبه جزيرة سيناء، أما فى الشمال فإن أرض فلسطين تعتبر أمتداداً لسوريا. ويمثل كلاهما وحدة جغرافية واحدة - كما يمثلان وحدة تاريخية وإن كان بدرجة أقل - انبسطت من نهر الفرات، حتى نهر مصر (وادي العريش)، واشتهرت فى المصادر، اعتباراً من القرن الثامن فصاعداً باسم منطقة "عبر النهر".

وقد كانت أرض فلسطين، وعملياً، كافة أراضى "عبر النهر"، بمثابة جسر وممر بين آسيا وأفريقيا، كما فتح لها البحر المتوسط من جهة الغرب والحدود الصحراوية من جهة الشرق نوافذ على منطقة بحر إيجه من ناحية، وعلى القبائل الرحالة فى فيافى العرب من ناحية أخرى. ويضاف إلى ذلك، أن أرض فلسطين تربض بين بحرين، بحيث استطاع خليج العقبة من جهة الجنوب الشرقى أن يمهد لها طريقاً نحو البحر الأحمر أيضاً، ومنه إلى المحيط الهندى والبلدان الواقعة على سواحلها.

وقد تسبب هذا الموقع الجغرافى الواقع على مفترق طرق الأحداث فى العالم القديم، فى إحداث تحولات وتغييرات عاصفة فى مصير سكان هذه البقعة، وألقى بظلاله الكثيفة على كافة مناحى الحياة، الروحية والحضارية

والمادية، وعلى اقتصاد البلاد، وعلى تركيبتها السكانية، وأكثر من كل ذلك على طبيعتها السياسية والعسكرية؛ وهكذا فإن الموقع الجغرافي نفسه هو الذى يُلَوِّد حد كبير تاريخ هذه البلاد.

وعلى الصعيد الحضارى ظلت هذه البلاد مستباحة، فى المقام الأول، للتأثيرات التى لا تنضب القادمة من المركزين الحضارين الأكثر قدماً فى الشرق، ألا وهما العراق القديم ومصر، اللتان نهضتا فى أواخر الألف الرابع ق. م. وباستثنائهما شقت الطريق إليها تيارات الحضارة الأناضولية، التى تسيلت من الشمال فيما وراء سوريا، والحضارة الإيجائية، بمرحلتها (المنياوية) وخاصة (الميكانية)، التى أغارت من الناحية الغربية، وقد رافق هذا الالتقاء بين الحضارات الرئيسية فى تلك العصور، أكثر من مرة، صدامات حادة بينها وبين أنفسها، حيث جرى فى المقام الأول بينهن وبين الثقافات المحلية، وفى مقدمتها الثقافة الكنعانية، وفى بعض الأحيان حدث نوع من التمازج. وقد ساعد كل هذا على التطور الديناميكي لعملية الإبداع الروحي والمادى فوق أرض فلسطين، حتى أن التحولات والاستحداثيات أصبحت من سمات واقعها، ولم تقف بتاتاً ثابتة فى مكانها.

لقد كانت أرض فلسطين وسوريا محطتا انتقال والتقاء ومفترق طرق رئيسى، يرتكز على شبكة متشعبة من الطرق المتصالية طولاً وعرضاً، لتخدم التجارة الدولية. فمن ناحية اجتازتها طرق التجارة على طول عروق المواصلات الدولية بين وادى النيل وبين منطقة الفرات وآسيا الصغرى، ومن ناحية أخرى - طرق القوافل الممتدة من المناطق العربية وحتى أرض سبأ والطرق البحرية التى تقود إلى المدن الساحلية المزدهرة، خاصة الساحل الفينيقى. بيد أن سوريا وأرض فلسطين اكتسبتا أهميتهما الاقتصادية ليس لكونهما محطتا انتقال، وهو الأمر الذى استغله سكانها أحسن استغلال، ولكن أيضاً بفضل بعض الكنوز الطبيعية التى حباها الله بها. ويقف فى مقدمة هذه الكنوز الغابات، وخاصة، أرز لبنان، وسائر الأشجار المليحة، التى احتاجها حكام ما بين

النهرين ومصر كثيراً، حيث أن بلدانهم افتقدت لهذا العنصر الحيوى، وكان استيراده يزيد من فخامة ما يقومون به. ويضاف إلى ذلك أن منطقة كنعان تميزت بأنها أرض الأنواع السبعة (تث ٨ - ٨) ويتجلى هذا التفوق سواء فى التوصيفات المصرية القديمة، (لقيقة سنحات من القرن الـ ٢٠ ق. م) أوفى تفاصيل البضائع المصدرة إلى مصر وإلى بلاد ما بين النهرين، مثل شهادة وثائق ماري.

الظروف الجغرافية - السياسية:

ظلت أرض فلسطين وسوريا تمثلان على الدوام، تحدياً أمام حكام الدول العظمى فى الشرق القديم، حيث أن السيطرة عليهما تؤمن تفوقاً اقتصادياً وسياسياً لا يضارع. ومن ثم فقد تركزا لفتترات طويلة فى لب الصراع المستديم بين شعوب مختلفة سعت لتدميرها، وحتى الآن فإن الفتترات التى ذاقت خلالها طعم الهدوء والاستقلال، هى فترات قليلة نسبياً، وكانت منطقة «عبر النهر» موضع نزاع دائم بين مصر والدول العظمى بالشمال حيث تبادلا المواقع فيها بشكل مطرد على مر العصور. وقد كانت عملية السيطرة على هذه المنطقة مسألة جوهرية بالنسبة لهذه الممالك، إذا كانت تريد أن تحظى بمكانة دولة عظمى، وإمبراطورية فعلية، إذ أنها بدون هذه المناطق تهبط إلى مستوى قوى سياسية إقليمية فحسب، سواء فى أفريقيا، أو فى بلاد ما بين النهرين. أو فى آسيا الصغرى. وفى هذه الفترة اكتسبت أرض فلسطين أهمية استراتيجية بوصفها رأس جسر، وكان احتلالها من قبل أحد الأطراف شرطاً مسبقاً للهجوم على الطرف الآخر. ولا غرابة إذن، فى أن أرض فلسطين مثلت ميداناً دولياً للقتال أكثر من أى بقعة أخرى فى البلدان القديمة. كذلك هب من الشرق والغرب أعداء قساة أرادوا أن يخبوا أرض فلسطين وهم قبائل الصحراء من ناحية، وشعوب البحر من ناحية أخرى؛ بيد أن هؤلاء لم يرتقوا أبداً لقوة ويأس القوى الأعظم التى أهدقت بأرض فلسطين من الشمال والجنوب.

وقد كانت أرض فلسطين وسوريا من الناحية الجغرافية السياسية، واقعتان في قبضة القوى السياسية الإمبريالية شمالاً وجنوباً، التي تطلعت للسيطرة على طرقهما. أما على صعيد الوحدة والاستقرار ودرجة التدخل الطبيعي والديموغرافي في تركيبة سكان البلاد، فقد كان هناك اختلاف ملحوظ بين الدول العظمى جنوباً وشمالاً. ففي جنوب أرض فلسطين تربعت طوال عصر «المقرا» (كتاب العهد القديم) دولة واحدة وشعب واحد. هي مصر. صحيح أنه تبدلت فيها مراراً الأسر الفرعونية الحاكمة - وصدرت عنها عمليات عدوانية، سواء من الأسرات السابقة أو اللاحقة - التي فرضت نفوذها على أرض فلسطين، وعلى بقاع واسعة من سوريا. ومن ضمن هذه الأسر، الأسرة ١٢. والأسرة ١٨. والأسرة ١٩، والأسرة ٢٠ في الألف الثاني. ويضاف إلى ذلك. استئناف محاولات الاحتلال في عهد الأسرة ٢٢ و٢٥ في الألف الأول ق.م. لكن على مدار عمليات الغزو هذه لم تحدث أبداً محاولات لزرع تركيبة سكانية مصرية داخل نطاق أرض فلسطين. وفي مقابل الوحدة النسبية التي ميزت التركيبة الإثنية والسياسية لجنوب أرض فلسطين، كان الشمال عبارة عن فسيفساء من الشعوب والدول، الذين دلفوا إلى ساحة التاريخ جنوباً إلى جنب، والواحد تلو الآخر، وعلى النقيض من الجنوب. فقد أغارت من هنا دائماً وأبداً جموع غفيرة من السكان نحو حدود سوريا وأرض فلسطين، وغيرت من صبغة هذه البلاد وطابعها. ويمكننا أن نقف من خلال المكتشفات الأثرية، التي اكتشفت في أرض فلسطين، على التدفق البشري من الشمال في فجر التاريخ، في أواخر القرن الألف ق.م. وفي مطلع الألف الثالث ق.م. (ربما الكنعانيون) ومرة ثالثة في القرن ٢٤ ق.م. (حضارة "أواني بيت بيرح"). أما بخصوص الغارات الهابطة من الشمال في الألف الثاني ق.م، فتدل على ذلك المصادر التاريخية أيضاً. ففي مطلع هذه الألفية تدفقت على البلاد موجات الأسباط السامية الغربية (المعروفون في الدراسات باسم الأموريون)، وفي أعقابهم جاءت عناصر حورية وهندوأوروبية، وفي نهاية الأمر، استوطنت القبائل

الآرامية منطقة سوريا وشمال عبر الأردن، وبدرجة أقل في أرض فلسطين، هذا بالإضافة إلى عناصر بشرية من الأناضول. والملاحظ أن كل مملكة اشتد ساعدها في الشمال سعت بشدة لاحتلال مناطق في سوريا ولتعميق نفوذها، لكن لم تصل أى منها إلى نطاق أرض فلسطين، وذلك حتى قبيل الألف الأول ق. م. وفي الألف الأول فحسب تمكنت الإمبراطورية الآشورية، والبابلية والفارسية من احتلال البلاد احتلالاً متواصلاً لتغلق الباب في وجه عودة الحكم المصرى مرة أخرى.

والتاريخ العسكرى لسوريا وفلسطين، هو من ناحية، سلسلة مستديمة من حملات الغزو وعمليات القمع التى قامت بها الدول العظمى ضد مواطنى المنطقة، ومن ناحية أخرى، عملية صدام متكرر فيما بينهم من أجل حماية مكانتها. ومن المؤكد أن الصراعات العسكرية الدولية و«الحرب الباردة» التى دارت بين الدول العظمى أضفت على أرض فلسطين جواً من انعدام الأمان السياسى والاقتصادى، أما حملات السلب والقمع التى تكررت فقد اغترفت من كنوز المنطقة وقواها. كما أفرز الصدام الدولى بين الغزاة، وصراعاتهم من أجل فرض النفوذ على البلاد المحتلة، صدامات حادة بين القوى السياسية المحلية فى سوريا وأرض فلسطين، التى كانت الصراعات فيها على أشدها حتى بدون ذلك.

ولعل هذه الصورة تبرز بوضوح أكبر فى النصف الثانى من الألف الثانى ق. م. فى غضون الصراع الحاد بين مملكة الميتانيين، ومملكة الحيثيين التى خلفتها، حيث كانت منطقة عبر النهر منقسمة إلى عشرات الممالك الصغيرة. ولكن فى الربع الثانى من الألف الأول ق. م أيضاً اندلعت مصادمات حادة، ولكن هذه المرة بين جماعات بنى إسرائيل أنفسهم. فيما يتعلق بمسألة التوجهات الشمالية والجنوبية، على خلفية الصراع بين آشور ووريثتها بابل، من ناحية، وبين مصر.

وتعتبر أقوال النبی الموجهة إلى یهودا بمثابة استنکار لهذا الموقف «والآن مالک وطریق مصر لشرب میاه شیحور ومالک وطریق آشور لشرب میاه النهر» (إرمیا ۲: ۱۸). خلاصة القول أن أرض فلسطين انجرفت بشدة، أكثر من سائر بلدان الشرق الأدنى، إلى لب صراع الإثنيات الذي درات رحاه بین الدول العظمى، وسقط سكانها ضحایا لدسائس السیاسة الدولية أكثر من مرة.

لقد حالت الظروف الجغرفیة - السیاسیة إذن ویوجه عام، دون الدول العظمى وسكان البلاد، وكما خلقت التبعية لأحدى الدول العظمى، خلقت أيضاً الانقسامات السیاسیة الداخلية وجعلت منها طبیعة ثانية. وكان الأمر یطلب لحظة مؤاتیة سیاسیاً على ندرتها - مثل أقول نجم الدولتان الأعظم فی الشمال والجنوب، على السواء - وقدرأً كبيراً من الاستعداد والشعور بغایة قومیة فی أوساط سكان المنطقة، حتی يتحرروا من أغلال التبعية ولینشئوا قوة سیاسیة مستقلة.

وقد تصادف مرور هذه اللحظة التاریخیة المصیریة فی الربع الآخر من الألف الثانی ق. م، عندما انهارت مملكة الحیثیین من ناحیة، وتعثرت القوى المصریة من ناحیة. أما آشور فلم تكن قد بلغت بعد مكانة العنصر ذو الثقل الكبير فی الغرب. حینئذٍ تھیأت الظروف لتحرر واستقراء الشعوب المقيمة فی سوريا وأرض فلسطين، وصعود وترسیخ عناصر قومیة جدیدة، فی مقدمتها أسباط بنی إسرائيل فی الجنوب والقبائل الأرامیة فی الشمال، وعندئذٍ بدأ الصراع الداخلی بین شعوب المنطقة من أجل إحكام السیطرة على أرض فلسطين، حیث لعب بنو إسرائيل هذه المرة دوراً هاماً، وخرجوا فی نهاية الأمر، منتصرین وقادوا تحولاً فی تاریخ البلاد، حظی، للمرة الأولى، بحکم مستقل شامل «من دان حتی بئر سبع» (وفق الروایة المقرائیة).

ولم یکن هذا الإنجاز القومی أمراً ذوبال إزاء الحقیقة التي تفید بأن طبیعة الأرض كانت عصیة على إقامة قوة سیاسیة موحدة تحتضن كافة

أراضى فلسطين، حين أن البلاد التي تفردت بهيكل مورفولوجى (ما هو متصل بهيكل الأجناس) ممزق، وبسمات طبيعية متباينة ومتعارضة بشكل لا مثيل له. وتتوالى الاختلافات فى السمات والتغيرات الطبيعية، على عيني الناظر، خاصة فى قطاع مستعرض من البلاد من الشرق إلى الغرب، وعلى طول البلاد تنبسط فى شكل شريط متعاقب: السهول الساحلية، السلاسل الجبلية، غور الأردن، وجنوبيهم تنبسط بقاع النقب والعرايا، ومرتفعات عبر الأردن الشرقى وحتى تصل إلى الصحراء، وتسيطر على غالبية بقاع أرض فلسطين الغربية الجبال ومنحدراتها، المشطورة بوديان متسعة وسهول وفيرة، حتى أن أرض فلسطين لاحت فى عيون القدماء على أنها أرض جبال وسهول. (التثنية ١١ - ١٢).

وقد أفرز التقسيم الطبيعى - الجغرافى المدعوم بتحولات وتغيرات مناخية ملحوظة، وخاصة فيما يتعلق بكميات المياه الجوفية، مجموعة من الظروف البيئية الفريدة التى تميز كل منطقة عن مثيلاتها. وشكلت هذه الظروف إلى حد كبير طبيعة الاستيطان من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية.

وعدم التوازن على هذ الأصعدة، المنعكس من خلال تطور الأساليب المعيشية فى قطاعات أرض فلسطين المتباينة، هو فى المقام الأول ثمرة طابع بنيتهم المورفولوجية الفريدة: من ضعف وفقر فى البقاع الجبلية المشجرة و مناطق الحدود الصحراوية التى نهض اقتصادها فى الأساس على حرفة الرعى، وفى المقابل ازدهار اقتصادى وتقدم حضارى فى الوديان والسهول الخصيبة الصالحة للزراعة الكثيفة ولقيام تجمعات سكانية مزدحمة. وفى مقابل ذلك كان هناك القطاع الجبلى المنغلق بطبيعته، وهو بمثابة أرض خصبة أكثر من سائر المناطق الأخرى لمسيرة نمو مستقلة لبنى إسرائيل والقيم الروحية والدينية.

أما حوض البحر المتوسط فقد لعب دوراً هامشياً في تاريخ أرض فلسطين، حيث أنها تفتقر بصورة تامة تقريباً لساحل متعرج مثل (دبع). وأماكن طبيعية صالحة لإقامة موانئ جيدة. على النقيض من الساحل الفينيقي في الشمال.

ويبدو أثر هذا الانقسام الطبيعي إلى مناطق صغيرة نسبياً، أمراً ملحوظاً جداً من خلال الفرقة السياسية والإقليمية البالغة، ومن خلال التنوع الإثني الذي ميز أرض كنعان بطابعه قبل ظهور بني إسرائيل. وتبدو مسألة عدم التجانس بين سكان هذه البقاع واضحة من خلال ما ورد في المصادر المصرية، خاصة اعتباراً من النصف الثاني من الألف الثاني ق. م، وكذلك من خلال كتابات كثيرة تعود لحقبة "المقرا"؛ ومن ذلك على سبيل المثال ما تذكره المقرا كثيراً وتؤكد عليه بشأن شعوب كنعان السبعة، وقد أحصتهم ذات مرة بعشرة شعوب (تكوين: ١٩ - ٢١). وفي جواب الجواسيس على موسى، يطلعنا النص على تخطيط هيكل للخارطة الإثنية - الجغرافية للبلاد: «العمالقة ساكنون في أرض الجنوب، والحيثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون في الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن» (عدد ١٣: ٢٩).

أما من ناحية الفرقة السياسية المتفاقمة، فتبرز في هذا السياق قائمة الإحدى وثلاثون ملكاً كنعانياً الذين منيوا بهزيمة على يد يشوع (يشوع: ١٢)، أما رسائل تل العمارنة اعتباراً من القرن ١٤ ق. م فإنها تضيف إلى هذه الممالك أضعافاً مضاعفة.

أرض كنعان قبل غزوات بنى إسرائيل وأثنائها

أنماط الحياة السياسية والثقافية في منتصف الألف الثاني ق. م:

في مقابل معلوماتنا الفقيرة والمتقطعة للغاية، عن أرض كنعان فيما قبل منتصف الألف الثاني ق. م، أصبحت بحوزتنا، اعتباراً من هذا التاريخ فصاعداً، لوحة شبه متعاقبة عن تاريخ هذه المنطقة وثقافتها. وتتسم هذه اللوحة أيضاً بأهمية هائلة عندما يتعلق الأمر بتاريخ «بنى إسرائيل» حيث أنها تقوم بسرد الرقعة العامة التي جرت على صفحاتها أحداث التاريخ «الإسرائيلي» القديم، وأثرت بشكل مباشر، في أحيان أخرى، على مجريات هذا التاريخ.

لقد طرأت، قرابة منتصف الألف الثاني، طائفة من التحولات الإثنية والثقافية والسياسية، داخل بلدان العالم القديم، ونالت هذه التحولات من أرض فلسطين أيضاً، فمنذ تأسيس الدولة الحديثة في مصر خلال القرن الـ ١٩ ق. م، ظلت مصر وحتى منتصف القرن الـ ١٢ ق. م. (عهد الأسرات الملكية الـ ١٨ وحتى الـ ٢٠) العنصر الحاسم في أرض كنعان، وعلى صعيد آخر تزايدت الضغوط على أرض كنعان من قبل مملكة الميتانيين التي تأسست بشمال البلاد ما بين النهرين، وبلغت ذورة مجدها في القرن الخامس عشر ق. م.، ومن بعدها مملكة الحيثيين التي ورثت مكانة الميتانيين في سوريا، اعتباراً من الربع الثاني من القرن الـ ١٤ ق. م وحتى انهيارها قرابة عام ١٢٠٠ ق. م. وقد أفضى تفويض أركان الإمبراطورية الحيثية من جهة، وأقول نجم مصر من جهة أخرى، إلى هجوم شعوب البحر على أرض كنعان، يتقدمهم البلستيون، وفي النهاية أتاح ذلك للآشوريين حوالي عام ١١٠٠ ق. م أن يحققوا حلمهم القديم بالتسلل نحو البحر المتوسط، وبسط نفوذهم على الساحل الفينيقي ردماً من الزمان.

وقبيل منتصف الألف الثاني ق. م تزايد المد السكاني الحوري والهندوإيراني المتسلسل من مملكة الميتانيين الواقعة شمالي أرض كنعان،

المنقسمة بدورها إلى دويلات صغيرة متكاثرة. وقد كانت هذه الفرقة ثمرة توارث الحكم منذ الأجيال الغابرة، وعلى الرغم من قلة أعداد الأجانب بالمقارنة مع السكان الكنعانيين القدماء، فقد أفلح هؤلاء الأغراب في الإمساك بدفة الحكم في عواصم ملكية كثيرة، وذلك بفضل تفوقهم التكنولوجي والعسكري، الذى استند فى المقام الأول إلى القتال بجيش محمول على العجلات الحربية. وقد امتزجت هذه النخبة غير السامية بالاستيطان الكنعانى الأصلى، بحيث تربعت اللغة والديانة الكنعانية على قمة الهرم الروحى. أما فى إطار الحضارة المادية وأنماط المعيشة فقد تعاظم نفوذ السكان الأغراب وتأثيرهم.

وتوجد وثائق متقطعة عن التسلسل التاريخى فى كنعان خلال الفترة المطروحة على بساط البحث، وقد اكتشف عدد قليل منها فى أرض كنعان نفسها، والحقيقة أن هذه البقعة كان مهداً لواحد من الإنجازات الحضارية المحورية فى تاريخ الجنس البشرى، وهو بكل تأكيد إختراع الأبجدية، بيد أن هذا الخط، وهو الخط الفينيقي العبرى القديم، تبلور بشكله المتكامل مع أواخر الألف الثانى ق. م، أما ما اكتشف فى فترات سابقة على ذلك فهو مجرد بقايا محدود لكتابات أبجدية مربعة الشكل (تعرف بالبروتوكنعانية)، فى بقاع مثل: نابلس، وجازر ولاخيش، ومن جراء طبيعة هذه الكتابات لم ترصد قيمتها التاريخية الحقة. وتأسيساً على ما سبق لابد من الاستعانة بوثائق بالخط المسمارى وبالخط الهيروغليفى، تعد بدورها كتابات نادرة للغاية فى أرض كنعان. ومن المحتمل أن السبب الرئيسى لكل ذلك يكمن فى الحقيقة القائلة، أن هذه المنطقة وقعت تحت تأثير المصريين فيما يتعلق بأساليب الكتابة واستخدام ورق البردى (فيما عدا المجال السياسى والدبلوماسى) الذى لا يقاوم الظروف المناخية فى أرض فلسطين. أما سوريا فقد انتسبت للدوائر الحضارية الشمالية، التى اعتمدت الكتابة المسمارية، حتى فيما يتعلق باحتياجات الحياة اليومية. وقد اكتشفت أرشيفات ثرية فى «اللاخ» تضرب بجذورها حتى القرن الـ ١٧ ق. م. والـ ١٥ ق. م.، وفى أوجاريت على وجه الخصوص اعتباراً من القرنين

الـ ١٤ والـ ١٣ ق. م. وهذه الأرشيقات هي التى تتيح لنا أن نبحر بعيداً فى دراسة منظومات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكذلك الحياة الروحية والدينية للمدينة الملكية السورية، والتى يسود شبه يقين أنها كانت تتماثل مع سمات عاصمة المملكة الكنعانية، كما تأثرت بها وبقدر ملحوظ نظم المدينة الملكية عند بنى إسرائيل.

وقد اتضح أن زعامة المدينة الملكية كانت عادة، فى يد حاكم نو بأس شديد داخلياً، وإلى جواره طبقة «المارينو» من أصحاب النفوذ، وهم طبقة النبلاء نوى الأصول الهندوإيرانية، التى اشتملت فى الأساس على أصحاب العجلات الحربية، التى كانت تمثل العهد الفقرى للجيش وإدارة المملكة. أما الطبقة الوسطى، التى كانت هى الأخرى صاحبة أملاك ثابتة، فقد ضمت: فلاحين، وأصحاب حرف وتجار يتمتع بعضهم بالاستقلالية، ويعمل بعضهم فى إطار اقتصاديات المملكة، وقد أخذت طبقة نوى النفوذ تفقد مكانتها على مر العصور، لصالح الطبقات الوسطى التى أرتقت السلم الاجتماعى، عبر الاحتياجات الخاصة للمؤسسة المالكة، أما أكثر الطبقات تدنياً، والتى كانت لا تزال تعتبر قطاعاً سكانياً حراً، فلم يكن بحوزتها أراضي وممتلكات، وكانوا يجلبون من أوساطهم العبيد وعمال السخرة، للعمل فى المزارع الملكية وفى ضياع الأشراف، وقد عثر على قوائم تفصيلية عن أصحاب حرف من بينهم: جنود محترفين، وعمال بناء، وصناع، ونحاتين، ودباغى جلود، وصناع خزف، وخياطين، وجباسين، وصيادلة، وخطابين، وسقائين، وغيرهم كثير، كانوا منتظمين فيما يشبه نقابات مهنية، بحيث تنتقل الخبرات المهنية بالوراثة داخل الأسرة الواحدة، وقد احتل التنظيم الكهنوتى موقعاً متميزاً، وكذلك سائر الوظائف الدينية المختلفة، التى كان أصحابها خاضعين للملك.

وتطلعنا الشهادات الأدبية الأوجاريتية، التى ألقت بلهجة قريبة من اللغة الكنعانية وبخط مسمارى ألفبائى خاص، وللمرة الأولى، على الدين والأسطورة، والملاحم والأشعار، التى كانت رائجة فى المناطق الكنعانية - السورية، والتى

وردت إشارات عنها فحسب في المقرأ وفي مصادر أخرى متأخرة. وبناءً عليها فقد اعتلى قمة هرم الآلهة الكنعانية الإله "إيل" (اسم علم) وزوجته "أشيرا" (عشتاروت) إلى جوار شخصيات محورية أخرى في عالم الآلهة من أحفادها مثل بعل، إله العواصف والخصوبة، وأخيه وخصمه "موت" إله الفناء والدمار (قارن إرميا ٩: ٢٠، حيقوق ٢: ٥) وأختهم الإلهة "عنات" التي اشتهرت بالجمال وروح الشجاعة، وبجانبيهم لعب الإله "كوثير" دوراً محورياً (من الأصل "كاشير" بالكنعانية - العبرية، وقارن مزامير ٦٨: ٧) الذي لم يكن معروفاً حتى ذلك العهد، وهو نصير الملائكة ويقابل الإله اليوناني "فايستوس"، ولا شك في أن النص الأدبي الأوجاريتي الثرى، الذي يقف في بؤرته بعل وموت وعنات، يعد نصاً عظيم الأهمية، فيما يتعلق بإيضاح ماهية وجوهر الشعر المقرأى والبلاغة العبرية القديمة.

وعلى الرغم من كل ذلك، فإن معلوماتنا بشأ القضايا الاجتماعية والحياة الروحية في كنعان هي معلومات ضئيلة، وفي مقابل فقر المعلومات بهذا الخصوص وضالة حجم الاكتشافات الإبيجرافية في فلسطين، فقد أميط اللثام عن مادة ثرية حول الحضارة المادية، بفضل النشاط الأركيولوجي الثرى، الذي طرأ على البلاد في النصف الثانى من القرن العشرين. فحوالى منتصف الألف الثانى ق. م تدشنت مرحلة جديدة وهامة في حضارة البلاد، إنها العصر البرونزى المتأخر (١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق. م)، التى تنقسم إلى فترة قديمة وفترة متأخرة. وقد أميط اللثام عن حضارة العصر البرونزى المتأخر بكل أبهتها في أماكن مثل: "حاصور"، "مجيذو"، "تعتك"، "بيت شان" شمالى البلاد، و"نابلس"، "ترصة"، "بيت إيل" بالقطاع الجبلى الأوسط و"جازر"، "بيت شيمش"، "لاخيش"، و"تل بيت مرسم" (هناك من يظن أنها كريات سيفر، فى البقاع والقطاع الجبلى الجنوبى، وفي "يافا" و"أشدود" على ساحل البحر، وهنا لم نحص سوى الحفريات الرئيسية التى تمت فى الأونة الأخيرة فى عبر الأردن الشرقى، وفى "تل دير علا" (ربما سوكونت) و"تل السعيدية" (مدينة "صافون" أو "صبرتان") على حافة نهر الأردن.

ويتضح من خلال الشواهد الأثرية ووثائق النقوش المصرية التي تصف المدن الكنعانية، أنه في واجهة المدينة كانت تلوح القلعة الداخلية، المقامة عند المرتفع، وتضم قصر الملك، وعادة ما تضم المعبد المقدس أيضاً، وكانت المدينة تحاط بأسوار منيعة، وتكرس أهمية قصوى لتحصين الأبواب وهي الإجراءات التي فرضتها الأوضاع الأمنية الحرجة التي عانت منها المدن الكنعانية. وتطلعتنا الاكتشافات الأثرية الوفيرة أيضاً على التنوع الحرفي والمهني الذي امتتهنه السكان الكنعانيون، وتدل عليه أعمال فنية فائقة مثل إنتاج العاج الذي أميط عنه اللثام في مجيدو وأيضاً حركة تجارية رائجة مع بلدان خارجية، وكذلك مع مدن بحر إيجه، الأمر الذي تؤكد أدوات الاستيراد الميكانيكية، التي ازدهرت في تلك الفترة. وقد كانت صناعتا النسيج والصباغة تمثلان المهن الرئيسية التي تفردت بها مدن الساحل الفينيقي. وهناك اعتقاد بأن هذا هو سر الاسم "كنعان" الذي يدل في الأساس على اللون الأرجواني (وربما نفس الأمر فيما يتعلق بالاسم اليوناني فينيقياً) ثم أمسى يدل على التجار الذين امتتهنوا هذه الصناعة بالذات (قارن "الكنعاني" في سفر الأمثال ٣١: ٢٤.. إلخ).

وعلى الرغم من الأهمية الهائلة للمادة الأثرية والإبيجرافية المذكورة أعلاه، فإنها لا تقدر أن تمدنا بلوحة تاريخية متعاقبة لتسلسل الأحداث في أرض كنعان، ويمكننا أن نسد هذا الفراغ بقدر كبير من المصادر المصرية المتنوعة، وخاصة من التقارير عن رحلات ملوك مصر لكنعان، وبدرجة أقل من الوثائق المكتشفة في الأرشيف الحيثي الأميري في "حاتوشا".

حملات تحوتمس الثالث وإقامة الولاية المصرية في كنعان:

في أعقاب تصاية حكم الهكسوس في مصر شن فراعنة الأسرة الـ ١٨ الأوائل حملات موسعة على آسيا، حتى يتلاشوا المخاطر التي تحديق بمصر من جراء قواعد الهكسوس التي كانت ما زالت ناهضة في هذه البقاع، وحتى يستعيدوا سلطانهم على أرض فلسطين وسوريا، التي كانت تحت سيطرتهم في

عهد الدولة الوسطى (وبخاصة الأسرة ١٢ فى القرنين الـ ٢٠ والـ ١٩ ق.م). وقد أرسل أحمس الأول (١٥٧ - ١٥٤٥ ق.م) - مؤسس الأسرة الـ ١٨ - الجيش بعد احتلال صوعن عاصمة الهكسوس إلى شروخان (وهى تل الفارعة) التى اشتهرت لفترات طويلة بأنها إحدى المدن التى تدخل فى نطاق إرث شمعون (يشوع ١٩: ٦). وكانت هذه المدينة أحد حصون غرب النقب - فى عهد الهكسوس - الواقع على الطريق الرابط بين مصر وأرض فلسطين، والحقيقة التى تفيد بأن المصريين اضطروا لمحاصرتها ٣ سنوات حتى تمكنوا منها، تؤكد (شأنها شأن معارك الحصار الطويلة الأخرى فى كنعان)، أن الكنعانيين كانوا فى هذه الفترة أصحاب قدرة لا يستهان بها فى مواجهة الموجات الهجومية للجيش المصرى، وقد منح غزو «شروخان» للمصريين ميزة امتلاك رأس جسر فى أرض كنعان، لم يخرج عن نطاق سيطرتهم حتى نهاية عهد الأسرة الـ ١٨، وهو الأمر الذى أتاح لهم وبسهولة شن غارات طويلة المدى داخل آسيا فى الفترات اللاحقة.

ولا توجد لدينا، معلومات مباشرة عن حملات أمنحوتب الأول بن أحمس، لكن ما يثير الاهتمام هو اسم أرض «قدم» المنقوش على كسرة فخار بقبره، وهو الاسم الذى ذكر من قبل فى بردية، سنحات (القرن الـ ٢٠) ويشير فيما يبدو إلى الحدود الشرقية لسوريا. وقد قام تحوتمس الأول حفيد أحمس بحملة موسعة للغاية داخل الحدود الآسيوية، وصلت حتى أرض النهرين - أحد أملاك مملكة الميتانيين - وقد اجتاز نهر الفرات أيضاً، وكعادة كبار الفاتحين فى الشرق القديم أقام نصباً تذكاريًا للنصر على ضفته، حتى يرسم الحدود القصية التى بلغها بفتوحاته. ويضاف إلى ذلك، أن ابنه تحوتمس الثانى حارب أيضاً فى شمال سوريا، وقد وصلت إلينا معلومات ترجع إلى عصره حول المعارك التى جرت مع الشوسيين، وهم القبائل البدوية التى اعتادت التجوال عند الحدود الجنوبية والشرقية لأرض كنعان، وفى المناطق الجبلية وقوضوا أركان الحكم المصرى فى أرض فلسطين طوال فترة حكم الدولة الحديثة. بيد

أن كل هذه الحملات التي كرس في المقام الأول لإحراز الغنائم والأسلاب، لم تبلغ أبداً مرتبة الغزو المستديم لأرض كنعان. ولم يتحقق هذا الأمر سوى لتحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق. م.).

وقد أدرك تحوتمس الثالث، مهندس الإمبراطورية المصرية، أنه لكي يصنع من مصر عنصراً سياسياً يحتل موقع الصدارة، فعليه أن يضم أرض فلسطين وسوريا، وقد حقق هدفه هذا من خلال عمل عسكري مخطط يرمى إلى احتلال مناطق أسيوية تصل إلى عبر الفرات وإقامة إدارة مصرية في البقاع المحتلة. ولم يستطع المصريون إحكام قبضتهم على سوريا وأرض فلسطين بسهولة، لأن بعض العواصم أبدت مقاومة باسلة للحفاظ على حريتها، بالإضافة إلى أن حكام هذه المدن، الذين كانوا عادة منقسمين فيما بينهم، اتحدوا في مواجهة المصريين في إطار أحلاف شاملة بزعامة مملكة قادش الواقعة على نهر أورونتاس (أرنات) بسوريا، كما تمتعوا بمساندة ودعم من مملكة الميتانيين. وقد أضطر تحوتمس الثالث لشن ثلاث حملات على آسيا وسع بفضلها تدريجياً من سلطانه ونفوذه في الشمال، كرس أغلبها لقمع تمردات ملوك المنطقة، التي كانت ما تلبث أن تتكرر من جديد.

بيد أن قسماً من المنطقة التي تم احتلالها شق عصا الطاعة مثل غزة (التي منحت اسماً مصرياً أيضاً) وكذلك يافا حيث لا تظهران مجدداً في قوائم غزوات القراعنة اللاحقين، وتأسيساً على ما تقدم فقد حظى المصريون بسلطة كاملة ومتعاقبة في الشريط الساحلي الجنوبي للبلاد.

أما بخصوص الحملة الأولى لتحوتمس، التي اعتبرت فاتحة وأساس حملاته المستقبلية، والتي صُورت بإسهاب في المصادر المصرية، فقد كانت موجهة فيما يبدو ضد إحدى غارات حكام كنعان، التي أرادت القضاء على الفتوحات المصرية في المهد. وبناء على هذا الافتراض - يمكننا تفسير الحلف الموسع الذي ضم ملوك كنعان، والذي تجمع في مواجهة المصريين بمجيدو

خلال أقل من ثلاثين يوماً من تواجد قواتهم على الأراضي الآسيوية. وحسب ما جاء فى أحد النقوش. فقد ضم الحلف ٣٣ حاكماً، ومن ثم فإنه كان أكبر تحالف جمعى نهض لمواجهة المصريين قبل أن ينجحوا فى بث عوامل الفرقة بين أعدائهم.

فى بادئ الأمر تقدم الجيش المصرى بسرعة ٢٥ كم يومياً باتجاه غزة. لكن منذ ذلك الحين فصاعداً تشاقلت خطاه، وربما كان مرد ذلك حدوث مقاومة من قبل السكان الكنعانيين. وأثناء الحملة تمكن أحد قادة تحوتمس - تحوتى شمر - أن يحتل مدينة ياذا الساحلية، كما تدلنا على ذلك واحدة من القصص الشعبية، التى تصور كيف تسلل الجنود إلى قلب المدينة، فيما يشبه أحابيل قصة «على بابا والأربعين حرامى»، وقد واصل تحوتمس حملته على طول سهل الشارون وحتى ياحم (خربة يما جنوب شرقى حديرة) بالقرب من مدخل وادى عارة. الذى يعد البوابة الرئيسية لشمال البلاد. ورغم أن نصائح قادته العسكريين مر تحوتمس فى وادى ضيق وخطر، كان يغص قديماً بالغابات الكثيفة، ومن خلال استغلال عنصر المفاجأة هاجم مجيدو. التى تعد كلمة السر لدخول شمال فلسطين. وبعد حصار استمر سبعة أشهر خضعت المدينة، التى حسب ما قال تحوتمس، «كان احتلالها يضاهى فى أهميته: احتلال ألف مدينة» وبعد سقوط مجيدو، وربما أثناء الحصار غزا الجيش المصرى ينوعام الواقعة على ضفاف نهر الأردن، وبالقرب من منابع طبرية، كما احتل مناطق ببقاع لبنان، كان يجبى منها ضريبة سنوية لمعبد الإله آمون بالعاصمة المصرية.

ويمكننا أن نستقى المعلومات عن المدن التى استعبدتها تحوتمس فى أرجاء كنعان من خلال قوائمه الجغرافية. ففى إحداها يحصى ١١٩ موقعاً فى أرض فلسطين وجنوب سوريا. وكانت هذه المدن تقع فى الغالب بالقرب من الطريق الساحلى بتعرجاته المختلفة، أى فى السهول الساحلية، مرج بن عامر، ووادى بيت شان وبقاع لبنان». ومناطق أخرى بالجليل وباشان والمناطق المجاورة لدمشق، وهذه المناطق هى التى فرضت عليها السيطرة المصرية. وفى

مقابل ذلك حذفت تقريباً من القوائم الجغرافية للفراعنة، المناطق الجبلية بوسط البلاد، والنقب جنوب عور الأردن، ووسط عبر الأردن وجنوبه المناطق، وهى التى اعتبرت محدودة الأهمية فى نظر المصريين وكان سلطانهم هناك اعتبارياً، حيث اهتموا بالسيطرة على الوديان، أما الجبال فقد احتفظت باستقلاليتها.

وقد استطاع تحوتمس فى الحملات التالية أن ينفذ إلى سوريا الداخلة والشمالية، وغزا مركز المقاومة الرئيسية «قادش». وفى حملته الثامنة، التى تعد الأروع والأهم، ليس فى حملاته العسكرية فحسب بل وفى الحملات الحربية المصرية بأسرها، أجبر ملك الميتانيين بعظمته وبهائه أن يولى الأدبار، حيث عبر تحوتمس نهر الفرات فاضطر ملك الميتانيين، منافسه العنيد على حكم سوريا، أن يفر هارباً. بيد أن احتلال المصريين لهذه المناطق النائية لم يتخذ سمة الدوام، حيث استطاع ملك الميتانيين فى السنوات التالية تكوين جبهة معادية للمصريين داخل سوريا الشمالية والداخلة، وعلى الرغم من ذلك واصل المصريون فرض سيطرتهم على الساحل الفينيقي، والمدن الساحلية، مثل جبيل وصامار، اللتين أصبحتا متكئتين محورين للسلطات المصرية طوال فترة حكمها، وقد كانت السيطرة على مدن الساحل الفينيقي، التى تخزن فيها الغلال الزراعية الكنعانية، وكانت تخدم الجيش المصرى وتمثل قواعد إمداد بالنسبة له، مسألة حيوية لاستمرار الإدارة المصرية فى سوريا وأمنت العلاقة بينها وبين الوطن الأم فى مصر.

وكما ذكرنا سلفاً، فقد أرسى تحوتمس الثالث بغزواته دعائم الولاية المصرية فى أرض فلسطين وسوريا، وإن كانت حدودها الشمالية قد تقلصت فى العصور اللاحقة، فإن نظامها كما أرساه تحوتمس، حاله حتى أقول نجم الحكم المصرى فى آسيا. وقد شكّل جهازاً دائماً من المندوبين والقادة والموظفين الماليين والزراعيين، الذين عهد إليهم بالإشراف على شئون الحكم وجمع الجزية، تعينهم على ذلك خامات محدودة العدد، تتمركز داخل المدن الرئيسية. كما أقام تحوتمس حصوناً فى المناطق الهامة، مثل مجيدو وبيت شان، وذلك بناءً على

المكتشفات الأثرية هناك، بالإضافة إلى أنه تفاخر بتشديد حصن في منطقة لبنان. وقد كانت غزة تمثل القاعدة الرئيسية للمصريين، ويبدو أنها كانت مقر المندوب السامى المصرى. وقد اعتاد المصريون ترك الأمور فى يد الحكاء المحليين الذين قبلوا الحكم المصرى، ولكنهم كانوا يأخذون أبناءهم وإخوانهم إلى مصر ليدرسوا فى القصر الملكى. وهكذا استطاعوا أن يدفعوا عملية التمسير إلى الأمام داخل أرض كنعان، حيث أنهم لدى عودتهم إلى أرض كنعان كانوا يتحولون إلى ممثلين للحضارة المصرية والمصالح المصرية أيضاً.

وبهذا الشكل نشأ فى الولاية المصرية الجديدة بأسيا نظام حكم استعماري هادف. وقد استثمر المصريون الكوامن الاقتصادية فى المناطق، باستثمار متعدد الزوايا، وهو ما يمكن أن نفهمه من قوائم الجزية والأسلاب الخاصة بتحوتمس وموظفيه ومن نقوش المعابد ولوحات القبور المصرية، التى تمثل كنزاً لا ينضب من المعلومات. ويمكننا أن نفهم من كل ذلك، أن قوة بشرية هائلة تم تعبئتها كقوة عاملة لتنفيذ أعمال السلطات المصرية داخل الولاية نفسها، ومن ذلك على سبيل المثال، العبيد والجواري الذين أرسلوا إلى مصر كأموال للقصر، والمعابد، وضياح كبار الموظفين، وقد سلبت كذلك غنائم جمة وتم تحصيل ضرائب مضاعفة. وتقدم المصادر المذكورة لوحة واضحة لصناعات أرض كنعان ومنتجاتها. ففي المقام الأول صُدِّرت لمصر غلال زراعية. وزيت وعطور، وأشجار للبناء أيضاً، مثل الأرز اللبناى الممتاز، وكميات هائلة من النحاس، والأحجار شبه الكريمة، ومنتجات الرفاهية والتحف والنقائس، وبالطبع الأسلحة بمختلف أنواعها. هذا بالإضافة لأعداد كبيرة من الأنعام التى نقلت إلى مصر، وخاصة الجياد، التى اشتهرت بها سوريا وأرض فلسطين، وكذلك الحيوانات التى تمتاز بها هذه البلدان مثل الدب والفيل السوري، وأنواع من الأعشاب لا تعرفها بلاد النيل، جلبت لحدائق الحيوانات وحدائق النباتات الأميرية، وقد كرس كل ذلك بالطبع لدعم مكانة الحكام المصريين والتدليل على سلطانهم الممتد لمسافات بعيدة.

حملات أمنحوتب الثانى وتحتمس الرابع:

اعتبرت سياسة تحتمس الثالث وأساليب حكمه فى آسيا، كما سبق وذكرنا، قدوة تحتذى بالنسبة لخلفائه من الفراعنة، بيد أنهم اضطروا بين الفينة والفينة أن يشنوا حملات عسكرية على أرض كنعان لكى يقمعوا مواطنيها، الذين شقوا عصا الطاعة ضد الحكم المصرى من فرط الضرائب الباهظة. فقد شن وريثه أمنحوتب الثانى (١٤٣٩ - ١٤١٠ ق. م) ثلاث حملات قمع فى آسيا. خصصت الأولى لقمع تمرد فى أرض «تحشى» (وهى «تحش» الوارد ذكرها فى «المقرا» (أحد أبناء ناحور، تك ٢٢، ٢٤)، التى تقع جنوب قادش؛ وقد تزعم هذا التمرد سبعة شيوخ قبائل على الأقل، وبعد مرور عدة سنوات نفذ حتى شمالى سوريا، التى ثارت ضد المصريين، اعتماداً على مساندة ملك الميتانيين. ولدى عودته احتل المدينة الساحلية الهامة أوجاريت وعاد من طريق قادش وغابات «لافو» (منطقة لافو حماة الواردة بالمقرا) حتى الشارون، حيث أسر رسول ملك الميتانيين، وحول رقبتة رسالة (على ما يبدو بالخط المسمارى). وتفيدنا هذه المعلومة أن الممارسات الدبلوماسية والسعى للإضرار بالمصالح المصرية من قبل ملك الميتانيين لم تنقصر فى الشمال، بل توغلت حتى جنوب أرض فلسطين.

والحقيقة أن حملة أمنحوتب الأخيرة، التى تزامنت مع السنة التاسعة لحكمه، قد شنت ضد السكان الكنعانيين الذين تمردوا والسكان شبه الجوالين، بمنطقة الشارون. وحتى عبر أنحرات الذى أصبح فيما بعد جزءاً من إرث يساكر (يشوع ١٩: ١٩) بشرق الجليل الأدنى (يمكن أن نحدد موقع هذه المدينة فى تل محرحش عند مدخل وادى بيرة)، وفى طريق عودته عسكر إلى جوار قادش وغير أحد حكام منطقة الكرمل الذى شق على ما يبدو عصا الطاعة، حسب قواعد إدارة الاحتلال المصرى.

وفى تلك الأونة كانت مجيدو تعد قاعدة مصرية هامة، وفقاً للدلائل الأثرية التى اكتشفت فى هذه المدينة، بالإضافة إلى الأرشيف الأكادى الذى أميط عنه

اللثام فى تعنك التى تقع ٧ كم جنوب شرقى مجيدو. وتقدم لنا ألواح تعنك لوحة مثيرة عن اهتمامات وتطلعات ملوك كنعان فى النصف الثانى من القرن الـ ١٥ وعن العلاقات والاتصالات فيما بينهم، التى وصلت فى بعض الأحيان إلى مسافات ملحوظة، مثل علاقات حاكم تعنك مع منطقة وادى بيت شان. وفى إحدى الرسائل المحفوظة فى هذا الأرشيف تأمر السلطات المصرية حاكم تعنك بإرسال قوات عسكرية إلى مجيدو بلا تأخير، بالإضافة إلى جزية وهدايا خاصة. وقد بعث بهذه الرسالة شخصية مصرية رفيعة المستوى تدعى أمنحوتب. وفى رسالة أخرى يكيل هذا الأخير اتهامات حادة لحاكم تعنك الذى لم يدعم الحامية المصرية بالجنود، بل ولم يمثل أمامه فى غوّة، ويحتمل أن المقصود هو المثل قبالة الفرعون أمنحوتب الثانى نفسه، الذى أمر حكام كنعان أثناء وجوده فى أرض فلسطين بأن على كل حاكم تقع مدينته على مسار حملته أن يرسل له دعماً عسكرياً. وتدل أسماء الرجال المذكورين فى ألواح تعنك، بما لا يدع مجالاً للشك، على الانتماءات الإثنية المتشابكة، وإن كانت غالبيتهم العظمى محسوبة على السكان الساميين الكنعانيين، ومع ذلك، برزت إلى جوارهم العناصر الحورية والهندوإيرانية. ويمكننا أن نستقى معلومات عن التنوع السكانى فى كنعان، من قوائم الأسرى، الذى اقتادهم أمنحوتب الثانى إلى مصر، وكانت ضمنها جماعات إثنية مختلفة، إلى جانب طبقات النخبة الاجتماعية.

أما فيما يتعلق بحملات ابنه تحوتمس الرابع (١٤١٠ - ٦٤٠٠ ق. م). فلم تبقى بحورتنا تقارير تفصيلية مثل سابقه، ولكن يمكن معرفة بعض المعلومات عن غزواته فى أرض كنعان من خلال المعلومات المتناثرة فى كتاباته وكتابات موظفيه. لقد اشتهر هو الآخر بين معاصريه بلقب «فاتح أرض خارو» (حورو)، وهذا هو الاسم الشائع لأرض كنعان على السنة المصريين منذ عهد الدولة الحديثة، وعلى صندوق مركبته، فى قبره بمدينة - أمون - صورت مشاهد من حروبه مع سكان كنعان، وضمن هذا معاركه مع القبائل المغيرة، الذين أقضوا

مضاجع السلطات المصرية بشكل متزايد. كما تذكر إحدى الكتابات في قبره بعض الأسرى من مدينة جازر، وأن فرعون زج بهم في قلعته، كدليل على احتلاله المدينة. وتتلاءم هذه الكتابات مع رسالة أميط عنها اللثام في جازر، وفيها يطالب الكاتب حاكم المدينة بتقديم فروض الطاعة، ويمد رسول فرعون الذي يوشك على الوصول بالغذاء، والاحتمال الغالب هو أن هذا الغذاء كان لمؤونة الجيش. كما يحتمل أن هذه الرسالة - التي تتماثل في مضمونها مع عدد من خطابات أرشيف تل العمارنة التي أرسلها فرعون لولاة كنعان، مثل أمير أخشاف وأشقون - أرسلها تحوتمس الرابع أثناء حملته في أرض فلسطين إلى حاكم جازر، ومن جراء عدم امتثاله للأمر، قام بغزو مدينته. ونستمد معلومات أخرى عن حملات تحوتمس الرابع في آسيا، وبشكل غير مباشر، من رسائل تل العمارنة، التي يذكر فيها ولاة كنعان أعمال الفراعنة السابقين في بلادهم. ومن ذلك على سبيل المثال، يعلن أمير جبيل في خطابه إلى أمنحوتب الثالث، أن مدينته ظلت على ولائها لأبائه الفراعنة، وأن أبيه تحوتمس الرابع، نزل بالساحل الفينيقي لكي يشرف على النظام في الأقاليم التي تحت السيطرة المصرية. وهذه المعلومات تتواءم جيداً مع ما يروى في إحدى كتابات تحوتمس الرابع الذي خرج لقطع أشجار الأرز من بلاد «ريتنو» - وهذا الاسم هو أحد الألقاب القديمة لأرض كنعان في المصادر المصرية - والحديث يدور بكل تأكيد عن منطقة لبنان.

لقد كان تحوتمس الرابع هو آخر فرعون في الأسرة الـ ١٨ يعبئ القوى لشن حملات عسكرية على آسيا، أما خلفاءه أمنحوتب الثالث والرابع (توت عنخ آمون). فقد اكتفوا فيما يبدو بإدارة أرض كنعان عن بعد، حتى تهاوت السلطة المصرية هناك تماماً في النصف الثاني من القرن الـ ١٤ ق. م. فحتى قوائم أمنحوتب الثالث الجغرافية لا تعد دليلاً على غزوات على أرض فلسطين، ويقدر ما هي ليست نسخاً لأسماء المواقع التي ذكرها سابقوه (خاصة منطقة شمال أرض كنعان) فهي على أقصى تقدير، دليلاً على قيام ثمة علاقات مع هذه

المناطق ليس إلا. وتكمن أهمية باللغة لذكر بعض المناطق فى هذه القوائم التى نشرت مؤخراً، مثلاً رفح، وعين شاسو - مستوطنة أقامتها القبائل الجواله بالقرب من بئر جنوبى البلاد - واللّتان تظهران للمرة الأولى فى المصادر المصرية، وخاصة موقعاً باسم "أرض الشوسيين يا هوا، يمكن أن نحدد موقعه فى شبه جزيرة سيناء، أو فى النقب. والاسم "ياهو" وموقعه يثيران فى الذهن إسم الإله العبرانى وتجليه لموسى فى المنطقة المذكورة. والذى يفاجئنا فى هذه القوائم تلك السلسلة من الأسماء التى تنتمى إلى منطقة بحر إيجة مثل كونسوس على جزيرة كريت، وجزيرة كيثيرا التى تقع بينها وبين فيلوفونس، وناوبليا وميسينيا وميكينيا، وربما كانت إيليس أيضاً هى طروادة. وتعتبر هذه الحقائق عظيمة الأهمية، من أجل الإلمام بمغزى العلاقات بين بلدان الشرق القديم، بما فى ذلك أرض كنعان، والحوض الشرقى للبحر المتوسط، ويدل على ذلك اكتشاف كنز يتألف من عشرات الأختام الأسطوانية على الطراز الأكادى السورى فى حفريات «تابى» باليونان.

المنظومة السياسية فى عصر العمارنة:

أنت اللوحة الكاملة والمثيرة للغاية التى تصور أرض كنعان فى الألف الثانى ق. م، وتصور بصورة غير مباشرة أيضاً تاريخ أرض فلسطين - من الربع الثانى للقرن الرابع عشر الذى عرف بعصر أو حقبة العمارنة. ومن الواضح أنها سميت باسم منطقة بوسط مصر، حيث أزيح النقاب هناك عام ١٨٨٧م عن أرشيف فرعونى شامل، واتضح إن هذه البقعة كانت موقع مدينة «أخن أتون» التى حولها أمنحوتب الرابع (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق. م) إلى العاصمة الجديدة بدلاً من «مدينة أمون». ويضم هذا الأرشيف المراسلات السياسية لهذا الفرعون، وكذلك لوالده أمنحوتب الثالث، اعتباراً من العقد الأخير لسنى حكمه، ويشتمل على ما يناهز ٣٥٠ خطاباً، دونت غالبيتهم الساحقة باللغة الأكادية، وهى اللغة التى راجت لقرون عدة فى المفاوضات الدولية فى أرجاء آسيا القديمة. ويضم جزءاً من الوثائق مراسلات متبادلة بين فرعون وحكام النول

العظمى فى تلك الأونة. وتدور نصف المراسلات تقريباً حول شئون أرض فلسطين والساحل الفينيقي، وغالبيتها الحاسمة عبارة عن رسائل إلى فرعون من الولاة المحليين، الذين خضعوا له، بشكل أو بآخر، وقسم قليل من هذه المراسلات (أو على وجه الدقة نسخ من الرسائل) موجهة إلى الولاة من قبل الفرعون أو القيادة المصرية.

ويتضح من هذه الرسائل أن السيادة المصرية فى أرض كنعان نال منها الوهن والضعف بشكل ملحوظ، وإن الحالة الأمنية المتدهورة فى أرجاء الولاية المصرية قد استفحل أمرها، وتدل على ذلك، المعلومات الواردة فى الرسائل بشأن الهجمات المتكررة على القوافل وتعرض هذه القوافل للسلب والنهب، والعجز البادى فى مواجهة القبائل الجوالة مثل سبط الشوتو، والعصابات من قطاع الطرق، خاصة كتائب الخيبرو والذين أغاروا على المدن، وعملوا جنوداً مرتزقة فى خدمة زعمائهم. والحقيقة أن مصر فى تلك الأونة - عهدى أمنحوتب الثالث والرابع - وصلت إلى ذروة مجدها، وبخاصة على الصعيد الحضارى، بيد أن السلطان المصرى فى البلدان المحتلة، تهاوى بشكل ملحوظ فى عهديهما. وتكمن هنا ثمة أهمية خاصة، من ناحية ديانة بنى إسرائيل، حيث اهتم الباحثون والدارسون بمسألة الإصلاح الدينى فى مصر، الذى كرس له أمنحوتب الرابع جهوداً هائلة. لقد رفع من شأن عبادة «أتون» إله الشمس، وجعلها العبادة والديانة الرسمية فى الدولة، بل وأخذ لنفسه اسم أخناتون، أى «محبوب الإله أتون». بيد أن هذا الإصلاح الدينى الذى يبالغ البعض فى أثره على عقيدة التوحيد عند بنى إسرائيل، ظل عرضاً طارئاً فحسب، ولدى وفاة الفرعون، اعتبره المصريون هرطقة دينية. كما ينبغى ألا نبالغ فى وصف ضعف أمنحوتب الرابع بوصفه سياسياً أو اتهامه بالإهمال المطلق لشئون الإدارة المصرية فى كنعان، حيث أن هناك دلائل عدة تفيد قلقه بشأن سلطته فى أرض كنعان، وتفيد قيامه بالتخطيط لحملة عسكرية موسعة على هذه البلاد، لم تخرج فيما يبدو إلى حيز التنفيذ. وعلى أية حال، فبقدر ما حافظ هو ووالده على

نفوذهم وسلطانهم فى أرض كنعان والساحل الفينيقي، فإن هذا الأمر تم لهما من خلال الاستغلال الجيد لصيغة «فرق تسد»، وتشجيع الدسائس وإشعال النزاعات بين الولاة المحليين.

ويمكننا أن نتعرف على موضع أرض فلسطين فى إطار الإمبراطورية المصرية، من خلال أرشيف تل العمارنة، الذى يعد المصدر الرئيسى لمعرفة النظام الاستعماري المصري ونظمه الإدارية فى المناطق المحتلة. ولقد كانت أرض كنعان تقع فى الجنوب إلى الولايتين الرئيسيتين فى آسيا ويتوسطهما منذ زمن بعيد مدينة غزة. وتمتد حدودها بطول الساحل حتى مدينة صور، وبعد فترة ما اتسعت حدودها حتى تخطت جبيل وباشات، وعلى قمة هرم القيادة تبنى الولاية المصرية تربع حاكم مصرى يحمل اللقب الأكادي «رابصو» (وكيل بالكنعانية والعبرية)، وكان على خلاف قواعد إدارة الاحتلال المصرية فى النوبة خاضعاً للفرعون بصورة مباشرة. وكان الوكلاء مسئولون عن ولاة العواصم المحلية، الذين حملوا اللقب الأكادي «حزنو» الذى يضاهى الاسم «حزان» فى العبرية المتأخرة والذى يشير إلى قائد المدينة، ويرمى هذا اللقب إلى تأكيد تبعيتهم وخضوعهم إلى للسلطات المصرية، حتى وإن اعتبروا أنفسهم ملوكاً.

وتأسيساً على ما سلف، فقد كان ولاة كنعان أنفسهم يمثلون العمود الفقرى للحكم المصرى هناك، وعمل إلى جوارهم مسئولون ورسك مصريون، وكان تحت تصرفهم حاميات تتألف فى الأساس من جنود مصريين وكوشيين، أى من أبناء النوبة. وقد كانت القوات العسكرية محدودة العدد للغاية. كما يفهم من المطالبات القليلة من قبل الولاة بإرسال إمدادات عسكرية، مثل وإلى مجيدو الذى طلب مائة رجل. وطلبى أمير القدس وأمير جازر اللذان لم يطلبيا سوى ٥٠ جندياً فحسب، كما يتضح أيضاً مدى التسليح الضعيف الذى بأيديهم من خلال الوثائق المختلفة مثل الرسالة التى عثر عليها فى لاختيش والتي تعود إلى نفس الفترة وفيها يطلب أحد الولاة أن يرسلوا إليه ستة أقواس وثلاثة خناجر

وثلاثة سيوف. أما عندما كانت تتطلب الأمور عملية عسكرية كبيرة الحجم، فقد كانوا يرسلون من مصر قوات داعمة - جيش الرماة، الذي نهض في المقام الأول على سلاح المركبات، حيث أن فائدة الرماة رماة الأقواس تزداد بشدة إن كانت مدعومه بالمركبات الحربية.

بيد أن الأهمية الحقيقية بالنسبة لرسائل تل العمارنة، فيما يتعلق بتاريخ أرض فلسطين، وكذلك تاريخ بنى إسرائيل، تتمثل في تسليط الضوء على أوضاع العواصم الكنعانية المتفرقة، وعلى العلاقات فيما بينهما. والتي كانت تتغير بين الفينة والفينة، وعلى الفرقة والعلاقات العدائية من ناحية، وعلى الأحلاف، وفي كثير من الأحيان على الجبهات الشاملة من ناحية أخرى. والمضاهاة بين رسائل تل العمارنة والوثائق المعاصرة لها في الأرشيف الأميري الحيثي في "خاتوشا" (وهي الآن بوجازكوي) ومؤخراً مع الأرشيف الأوجاريتي أيضاً، تطلعنا بوضوح شديد على الموقف الحرج داخل هذه الممالك، وخاصة سوريا التي كانت واقعة بين فكي الكماشة، مملكة الميتانيين والحيثيين، ومن ناحية أخرى بين القطبين المصري والحيثي، وقد أدى هذا الوضع المتأزم إلى دسائس، ومؤتمرات عسكرية، ونفاق سياسي، ونشأة حالة من الابتزاز بين العواصم والدول الكبرى. وقد برز الحيثيون كقوة منافسة للمصريين، بعدما نجح الملك الحيثي الغنديم "شوبيلوليوما" في إزاحة ملك الميتانيين عن سوريا ويحتل موقعه، بعد أن توغل عميقاً عبر دمشق، والوديان التي عند بقاع لبنان. والحقيقة هي أن ممالك جمة في سوريا فضلت السيادة الحيثية على السيادة المصرية، لأن الدولة الحيثية أظهرت كفاءة أكبر ومرونة في العلاقات مع "الأتباع"، بل ومنحتهم مظلة حماية عسكرية أكثر فاعلية. بيد أن الميتانيين لم يتنازلوا بسهولة عن مكانتهم، حتى أن الصراع الثلاثي بين الخصوم الأقوياء - مصر والحيثيين والميتانيين - على ولاء ملوك العواصم الكنعانية أدى إلى تقويض توازن القوى الحرج في المنطقة بأسرها.

وعلى الرغم من الوضع السياسى المزعزع فقد ظلت أرض فلسطين تحت السيادة المصرية، ويدل على ذلك اعتبارهم أن مصر مسئولة عن ممارسات سكان البلاد. ومن ذلك على سبيل المثال: موقف بورنبورياس الثانى ملك بابل، الذى اعتبر أن أمنحوتب الرابع مسئولاً عن سلب قافلة له، كانت فى طريقها من بابل إلى مصر، وعن قتل تجاره فى عين حانثون، عند بقاع بيت ناطوقا، (التي صارت فيما بعد ضمن إرث زبولون - يشوع ١٩: ١٤) وقد جاء فى أقواله الموجهة إلى فرعون: «إن كنعان هى أرضك، وملوكها عبيدك، وفى أراضيك أوذيت، أفنهم (القتلة) وليسددوا الأموال التى نهبوها والرجال، الذين قتلوا عبيدى، يجب أن تقتلهم وتتأثر للدماء».

وقد امتد نطاق السلطة والمسئولة المصرية شمالاً حتى أقصى الطرف الشمالى لسهل البقاع، واعترف الحيثيون بهذا الترسيم الحدودى. وبناء على ذلك، اعتبر تسلل «شويلوليوما» إلى أرض «عمقى» جنوب هذا الخط الحدودى، بمثابة مساس بالسيادة الإقليمية المصرية، حتى فى التاريخ الحيثى المدون نفسه، الذى علل هذا التعدى بالوباء الهائل الذى ضرب أرض الحيثيين.

وقد كان ازدياد قوة الحيثيين فى سوريا وضعف مكانة المصريين، سبباً فى تشجيع ممارسات عصابات الخبيرو، الذين تحالف معهم بعض الولاة المحليين - خاصة فى المنطقة الجبلية الوسطى وشمال أرض الأموريين - لكى يتخلصوا من نير المصريين، كما تفاقمت دوافع الكراهية بين الولاة أنفسهم إزاء عجز سلطات الاحتلال، وفى مقابل ذلك وفى السهول - مرج بين عامر، الشارون، والسهول الساحلية - كانت السلطات المصرية ذات بأس شديد، حتى هذه الفترة، حيث أن هذه البقاع التى اعتبرت فى أغلبها أرض فرعونية، كانت تحتل مكانة حيوية بالنسبة للاقتصاد المصرى، ولا تنسى «بريديا» أمير مجيدو الذى نفذ مشروعات زراعية موسعة فى مرج بن عامر لصالح فرعون، واحتاج لإتمام مشروعه، جباة ضرائب تم إحضارهم من أماكن مختلفة من ضمنها يافا. التى كانت واحدة من مراكز الإدارة المصرية، وأقيمت بها مخازن أميرية لتجميع الغلال. كما تبين

وثيقة مصرية أكثر تأخراً (بردى أناساتسى أ) أن المدينة اشتهرت كمركز لصناعة الجلود، والأسلحة.

أما في المنطقة الجبلية الوسطى، فتظهر لنا من خلال الوثائق، المعنية بالحالة الأمنية المتدهورة، أسماء عاصمتين، من شأنهما أن يلعبا دوراً رئيسياً في فترة غزو بني إسرائيل للبلاد واستيطانهم لها - ألا وهما نابلس والقدس. لقد ظهر عدو لدود للسلطات المصرية وهو «لابايا» والى نابلس، الذى بسط نفوذه على جبال أفرام ومنسى، بل ووصل بمعاونة كتائب الخبيرو إلى مرج بن عامر، وحاصر مجيدو. ووسع نفوذه شرقاً حتى جبال جلعاد وغرباً حتى عبر الشارون. يضاف إلى ذلك، أنه بالاشتراك مع «ملحتلو» والى جازر - وأبناءه من بعده - على القدس، بل وعلى مناطق موزعة أكثر جهة الجنوب، مثل لاختيش وأشقلون.

أما القدس نفسها فقد ظلت تقريباً على ولائها لفرعون، فحاكمها عبد حافا (ولا يحتمل أن تطابق بين اسمه واسم بوتى-حيفا) يسمى نفسه بلقب قائد عسكري مصري؛ ويناشد فرعون فى رسائله، أن يمدّه بإمدادات عسكرية ليقاوم أعمال السلب والنهب من قبل الخبيرو وأعداءه. وقد أحصى ضمنهم بالإضافة إلى ولاية نابلس وجازر، حاكم جات ولاختيش وأشقلون أيضاً. وكان أكثر ما يثير حنق أمير القدس هو محاولات تقويض حكمه فى القطاع الحدودى الشمالى الغربى لمملكته، يقصد نهب أحد طرقه «حقل أيالون» وغزو مدينة «روبتوتى» التى لم يتم التثبيت من موقعها، وكذلك المؤامرات عند الحدود الجنوبية الغربية «أوبوت كعيل» (والتي يمكن أن تكون خربة كيلا). ولعل مصير القدس يشير إلى العزلة الهائلة التى عانتها عواصم كنعانية كثيرة، كما يشير إلى قيام أحلاف موسعة، لكن بشكل مؤقت، وتدل على مثل هذه العلاقات الموسعة فيما بين الممالك الكنعانية، وعلى سبيل المثال، توجه عبد حافا وشوقاراداتا، الذى كان حاكم الخليل وربما جات إلى والى عكا وأخشاف فى منطقة الساحل الشمالى، لكى يمدّهم بإعانات عسكرية فى مواجهة الخبيرو.

إن الملف الدبلوماسي للقدس الذي عثر عليه في أرشيف تل العمارنة، لا يستعرض القضايا والتعقيدات التي تواجهها عاصمة كنعانية خلال نضالها من أجل البقاء فحسب، وإنما يسلط أيضاً الأضواء الساطعة على ما روته "المقرا" عن وضع وتاريخ القدس العتيقة. وبعد أجيال قليلة فحسب من هذه الحقبة شق بنو إسرائيل لأنفسهم طريقاً نحو أرض كنعان، ف منطقة الحدود التي فصلت بين مملكتي نابلس والقدس، هذين المركزين المهيمنين على المنطقة الجبلية، وفقاً لما جاء في وثائق تل العمارنة. ومع الاختلاف في التشكيل السياسي والعسكري في عصر يشوع، فقد تجلت في الصراع على مملكة القدس ملابسات وظروف استراتيجية مشابهة لتلك التي تعود إلى حقبة العمارنة. وفيما يتعلق بالتركيبة السكانية للقدس، يعكس لنا الاسم «عبدحافا» المركب من شقين الأول كنعاني والآخر حوري - حيثي، مدى الاختلاط الإثني الذي انتشر بين سكان المدينة. وتطرح لنا المصادر المقرائية صورة مشابهة تفيد إنه إلى جوار السكان الكنعانيين والأموريين القدامى تواجدت أيضاً عناصر حورية-حيثية تم توطينها في المدينة، وينتسب لهم بالطبع اليبوسيون الذين استوطنوا المدينة قبل وصول بني إسرائيل. (قارن حزقيال ١٩: ٣). هذا بالإضافة إلى فن التعبير والأسلوب البليغ لرسائل تل العمارنة المبعوثة من القدس، والتي تزخر بكلمات وأساليب بلاغية كنعانية، وتدل على أن المدينة شكلت منذ فترة ليست بالقصيرة مركزاً هاماً لمدرسة بارعة من الكتاب. ومع تحولها إلى عاصمة لبني إسرائيل في عهد داود أصبح من شأن القدس أن تلعب دوراً محورياً في إرساء قيم الحضارة الكنعانية، بالإضافة إلى توريث قواعد الإدارة ونظمها إلى بني إسرائيل.

أرض كنعان فى حقبة غزوبنى إسرائيل

لا شك فى أن تدهور أوضاع السلطة المصرية فى آسيا، كنتيجة لضعف الأسرة الثامنة عشرة فى النصف الثانى من القرن الـ ١٤ ق. م. وحالة الفوضى التى سادت أرض كنعان، قد عادت الأرض أمام غارات أخذت فى التزايد من قبل قبائل جواله وشبه جواله، قادمة من أطراف الحدود الشرقية للأراضى المزروعة بهدف استيطانها. وقد كان بنو إسرائيل ضمن العناصر المغيرة والمستوطنة، بالإضافة إلى أسباط قريية لهم، وشعوب حدود جنوبى عبر الأردن - أنوم ومواب وعمون.

والحقيقة، وهى، أن حور محب قام بمحاولة فى هذه الفترة لاستعادة السيطرة المصرية على أرض كنعان، بيد أن هذه المحاولة لم تتوج بنجاح حقيقى. وتكمن أهمية يالفة فى النقوش التى عثر عليها فى قبره، حيث تصف ملامح وجوه الأسرى من أرض فلسطين، وربما من سوريا أيضاً، الذين وقعوا فى قبضته، وكان فيها بينهم ساميين طوال اللحي وحيثين، وتؤكد هذه النقوش تركيبة السكان الكنعانيين المتنوعة فى هذه الأونة، ومع تولى الأسرة التاسعة عشرة أمور مصر فى أواخر القرن ١٤ ق. م، صار هناك نهج جديد فى السياسة الخارجية للفراعنة تمثل فى توجه جديد إزاء الشرق، أعاد لهم السيطرة على آسيا، وإن كانت محدودة بالمقارنة بعهد تحوتمس الثالث. ويدل على العلاقات الوثيقة مع كنعان فى هذه الفترة، ذلك العدد الهائل من الوثائق المصرية الذى اكتشف فى أرض فلسطين والذى يفوق ما أرسلته أية أسرة أخرى. ومن ناحية أخرى وصل التأثير الكنعانى على مصر ذاتها فى هذه الفترة إلى ذروته. ويؤيد ذلك دخول آلهة كنعانية كثيرة فى المعبد المصرى واستخدام ألفاظ مقتبسة من الكنعانية فى الأدب المصرى.

وتشير الاكتشافات الأثرية التى أميط عنها اللثام فى أرض فلسطين (شواهد قبور بيت شان، وتل الشهاب فى حوران، وصور) إلى حملات الفرعون

سيتى الأول (١٣٠٨ ق. م. - ١٢٩٠ ق. م) إلى كنعان، التى دلف إليها فى بداية تولية الحكم هذا بالإضافة إلى القوائم الجغرافية الخاصة بالمدن التى غزاها فى كنعان، والنقوش والكتابات الأخرى التى زين بها معبد الإله آمون فى الكرنك، وقد صور فى النقوش الطريق الذى سلكه الجيش المصرى ماراً بشمال شبه جزيرة سيناء نحو رفح بأدق التفاصيل، واصفاً الحصون العشريين والآبار المحصنة، ويرسم لنا غزو «مدينة كنعان» التى يحتمل أن تكون غزة، وغزو مدينة ينوعام الواقعة على ضفاف نهر الأردن بالقرب من منابع بحيرة طبرية، وغزو مدينة قادش (هناك شكوك حول ما إذا كان المقصود قادش الواقعة على الأوروناتس. على الرغم من العثور على نصب تذكارى لـسيتى هناك، فمن غير الواضح إذا ما كان توغل شمالاً إلى هذا الحد، ومن ثم فهناك من يفضل مضاهتهما بقادش نفتالى فى الجليل الأعلى). وبالإضافة إلى تصوير حصون أرض كنعان ومناظرها الخلابة، تعرض النقوش لوحات جانبية للقبائل الهمجية المغيرة، وللمحاربين الكنعانيين، وللأمراء العظام من لبنان، الذين يجتثون أشجار الأرز من أجل فرعون تعبيراً عن الولاء، (قارن الملوك الأول ٥ - ٢٠)، وكذلك أشخاص حيثيين، وهم بالتأكيد ممن قاتلهم فرعون فى جنوب سوريا. ويمكننا أن نستخلص من قوائم سيتى الجغرافية أن هدفه فى الأساس كان استعادة السيطرة المصرية على بيت شان، والجليل والساحل الفينيقي، حيث يرد ذكر سلسلة من المدن اعتباراً من عكا وحتى أولازا فى الشمال.

ونستقى معلومات مثيرة عن منطقة بيت شان، والخطة السياسية العسكرية التى جابهها فرعون من خلال نصبان تذكاريان له عثر عليهما فى هذا المكان، ويعود الإثنان فيما يبدو إلى عامه الأول. ففي الأول يروى أنه أرسل جيشاً مصرياً لقمع تمرد ملك حماة الذى هاجم بيت شان الواقعة عند الشمال، وبالإشتراك مع رجل پاخال من عبر الأردن هاجم المدينة المسماة رحوف (تل الصارم ٥ كم جنوبى بيت شان). أما النصب التذكارى الآخر فأقيم لذكرى

الانتصار على قبائل العبيرو (هذه هي الصيغة المصرية للاسم الأكادي خابيرو) الذين أغاروا على هضاب الجليل الأدنى، وعرضوا أمن السكان المحليين للخطر. وتتعالى هنا أصدااء من غارات متناثرة في منطقة الجليل، كانت بمثابة بشائر لقدم أسباط بني إسرائيل إلى شمال أرض فلسطين، وقد ورد في قوائم سيتي الثاني الجغرافية أول ذكر لاسم "أشير" [وقد كتب أس ر]، الذي عرف فيما بعد وفي فترة متأخرة بأنه سبطاً إسرائيلياً.

وقد وصل الصراع المصري - الحيثي من أجل السيطرة على منطقة عبر النهر إلى ذروته في عهد وريث سيتي الأول، الفرعون رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق. م) خلال معركة قادش الواقعة على "الأوروناتس"، لكن العلاقات تحسنت فيما بعد بين الدولتين الأعظم، وتوصلاً إلى اتفاقية سلام، وقد كانت معركة قادش التي اندلعت في السنة الخامسة لحكم رعمسيس (١٢٨٥)، معركة حامية الوطيس بين مصر والحيثيين، حيث استعان كل طرف بقوات غريبة كثيرة، وقد استعان المصريون بـ «نعرونا الأموري» (أي قوات مشاة منتقاة سميت بالاسم الكنعاني - العبري "نعریم") أما الحيثيون - فقد تعززوا بقوات من شمال سوريا، وشعوب شمال وغرب الأناضول، ويتفاخر رعمسيس كثيراً فوق جدران معابده في مصر، بمعركة قادش بوصفها أكبر انتصارته، على الرغم من أن ما يفهم هو أنه منى بهزيمة، ولم يحقق غايته العسكرية وهي غزو قادش. واستعاد الحيثيون سيطرتهم على أرض أمور التي كانت قبلاً بحوزة المصريين، بل أنهم توغلوا جنوباً حتى دمشق التي أمست مفوضية حيثية رديحاً من الزمن، كما نستقي من وثائق «خاتوشا».

وقد زعزع فشل المصريين في معركة قادش سيادتهم على أرض كنعان. وبعد مرور ثلاث سنوات اضطر رعمسيس أن يقود حملة عسكرية على الجليل الأعلى لقمع العواصم المتمردة، مثل ميروم، التي حارب بنو إسرائيل الكنعانيين منذ فترة قليلة من أجل مياهها. وتدل بعض التفاصيل الأخرى في نقوشه على

عمليات غزو أخرى جرت في الشمال، مثل تصوير غزو مدينة عكا، وخاصة شواهد قبوره التي عثر عليها في بيت شان، وفي صور وفي جبيل وفي الشيخ سعد الواقعة على الطريق الرئيسي في الباشان. ويذكر النصب المقدس الذي عثر عليه في الشيخ سعد، الإله السامي «إيل - قونيه - صافون» الذي تشابه اسمه مع «بعل صافون» المعروف في أوجاريت وفي «المقرا»، ويبحث في ذهن ما ورد في المقرا: «الله العلى مالك السموات والأرض» (تك ١٤ - ١٩). ويدلنا على الصلات والوثيقة التي ربطت بين رعمسيس وشمال عبر الأردن، أن مسئولاً كنعانياً رفيع المستوى خدم في مصر وهو «بن آذان» الذي من صر - باشان. تلك المدينة التي ورد ذكرها في الوثائق الأوجاريتية ورسائل تل العمارنة. بيد أن نشاط رعمسيس الثانى العسكرى لم يتحصر في شمالى البلاد فحسب، حيث تتراكم فى الأونة الأخيرة براهين تفيد أنه أولى اهتماماً بالغاً للجنوب. فقد أظهرت الحفريات التى جرت فى يافا، أن المدينة دُمِرت، ثم تم إقامتها مجدداً فى عهد رعمسيس، حيث عثر على اسمه منقوشاً على عضادات بوابة المدينة. كما عثر مؤخراً على واحد من نقوشه يصور عملية الاستيلاء على مدينة أشقلون. وتفيد بعض القوائم الجغرافية المنسوبة إلى عهده، أنه تمكن من إخضاع كافة المدن الساحلية، من نور شمالاً وحتى رفح جنوباً، هذا بالإضافة إلى القبائل المغيرة فى الشرق والنقب وأرض ساعير.

والمثير للفضول حقاً، هو النقوش والكتابات الموجودة على جدران معبد رمسيس فى مدينة - آمون، والتي أميط عنها اللثام منذ فترة قصيرة، وهى تصور حملته على أرض موآب. حيث غزا ضمن ما غزاه من مدن: ديبون، بالقرب من الضفة الشرقية لأرنون، وهذا الاكتشاف الذى يعد الدليل الأول على وصول حملة مصرية إلى عبر الأردن جنوبى اليرموك، يعد دليلاً ساطعاً على الاهتمام الذى أولاه المصريون لهذه المناطق النائية، والتحقق من التأثير المصرى على هذه البقاع يفسر لنا وجود شاهد قبر غريب فى قرية "بالوعا"

جنوبى ديبون، التى يمكن نسبتها فيما يبدو إلى عصر رعمسيس. وقد نقش عليه بأسلوب مصرى لا يرقى إليه الشك صورة والى موآب (هل تمثل هذه الشخصية أول ملوك موآب المذكور فى العدد ٢١: ٢٥؟) ترافقه الآلهة، ونقش إلى جواره كتابات غير واضحة بما يكفى، وتتسم هذه المعلومات الجديدة بشأن التواجد المصرى فى المنطقة بأهمية بالغة لفهم تاريخ بنى إسرائيل، نظراً لأن جنوب شرقى عبر الأردن، لعب فى تلك الأونة دوراً حاسماً فى مسألة غزو بنى إسرائيل.

وقد عقد المصريون والحيثيون معاهدة سلام عام ١٢٦٩ ق. م، حيث تم توقيع اتفاق يقضى بعدم مهاجمة أى طرف منهما للآخر بين رعمسيس الثانى وحاتوشيلى الثالث ملك الحيثيين. وفى الميثاق التفضيلى المنسوخ لدى الطرفين، ليست هناك تفاصيل بشأن الخطوط الحدودية المتفق عليها بينهما، لكن يبدو أنها كانت تتماشى مع الحدود الشمالية لأرض كنعان المنصوص عليها فى «المقرا». (عدد ٣٤). وقد وجد بنو إسرائيل هذا الواقع الجغرافى - السياسى قائماً أثناء شن غزواتهم على البلاد، وينعكس ذلك عند وصف الأرض الموعودة فى سفر يشوع ١ - ٤: «من البرية ولبنان هذا (حتى هنا كانت تبسط السيادة المصرية) إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحيثيين». (وهذه هى حدود السيادة الحيثية فى سوريا). وبناء على ذلك فإن الحدود المصرية كانت تشتمل على منطقة دمشق وامتدت حتى حماة عند طرف سهل البقاع. (تاركاً أرض الأموريين داخل الحدود الحيثية)، ووصل على ساحل المتوسط حتى صامار فيما وراء جيبيل. وبالفعل يرد ذكر دمشق وصامار بوصفهما أقصى القواعد المصرية شرقاً وشمالاً وذلك فى برديات أناساتاس الأول. الذى يستعرض تخوم الإمبراطورية المصرية بآسيا فى المرحلة الثانية من حكم رعمسيس.

وقد أُلّف برديات أناساتاس الأول، التى عرفت أيضاً باسم «رسالة شنيناء». كاتب مصر، لتكون رداً على نظيره - منافسه، وتعد هذه البرديات

مصدراً فريداً من نوعه عن أرض كنعان - فهي بمثابة «دليل للبلاد» - كان فيما يبدو أداة لمعاونة الجيش المصرى وبخاصة «الماهير» (مصطلح كنعانى ورد فى البرديات للإشارة إلى القوات الخاصة). وهذه الوثيقة تقدم وصفاً وتصويراً عاشقاً لمناظر البلاد الخلابة، ومدنها وسكانها، وأهم من كل ذلك، طرقها الرئيسية. كما يصف طبيعة اقتصاديات الجيش المصرى فى القطاعات الجبلية، كما تدل من ناحية، على الازدهار الذى تمتعت به مدن أرض فلسطين القابعة فى السهول، وخاصة السهول الساحلية، مثل يافا، وتشير من ناحية أخرى، إلى الأحوال الأمنية المهزوزة فى المناطق الجبلية من جراء غارات القبائل المغيرة والعناصر الهمجية الأخرى، التى ضمت فيما يبدو أسباط بنى إسرائيل الذين سكنوا الجبال. وفى هذا السياق من الممتع ذكر العمل البطولى الذى قام به سبط يدعى (أ. س. ر.) - الذى يحتمل أن يكون هو سبط آشير الإسرائيلى - «حيث ظفر بدب عند شجرة البكائيين»، الأمر الذى يذكرنا بحكايات شمشون وأبطل داود.

وقد استمرت العلاقات السليمة السوية بين مصر والحيثيين أيضاً فى عهد الفرعون مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق. م.) وتود حايا الرابع (١٢٥٠ - ١٢٢٠ تقريباً ق. م) وحتى انهيار مملكة الحيثيين. ولعل أحد الأمور التى قادت إلى تقارب شديد بين الدولتين، هو المخاطر الممثلة من خلال تهديدات شعوب البحر الذين أثاروا شعوب غرب آسيا الصغرى من جهة، وهجموا على مصر فى السنة الخامسة لحكم مرنبتاح بوصفهم حلفاء القبائل الليبية من جهة أخرى. وقد أضطر مرنبتاح فى سنوات حكمه الأولى أن يقمع تمرداً عاماً تفشى فى البلاد من أشقلون وجازر جنوباً وحتى ينوعام شمالاً. وفى هذا السياق تحتل أهمية بالغة قصيدة مدح ترجع للسنة الخامسة لحكم الفرعون، وتخلد انتصاره العظيم، نظراً لأنها المرة الأولى التى يرد فيها ذكر بنى إسرائيل فى نص خارجى (فى قائمة الشعوب المهزومة قيل: إسرائيل أضحت يباباً، ولم يعد لها نسل).

وقد لنا نصوص من يوميات مسئولين مصريين أقاموا عند الحدود المصرية بشبه جزيرة سيناء (برديات أناساتاسى الثالث) على استعادة مرنبتاح لسيطرته على أرض كنعان وإشرافه العسكرى على مرتكزات مثل: غزة وصور على ساحل المتوسط، بل وعلى بقاع فى المناطق الجبلية أيضاً. كما يرد ذكر قادة عسكريين عائدين من «آبار مرنبتاح التى عند الجبال»، بين الراجعين من الحدود، فى التقارير التفصيلية التى كان يدونها الموظفون عن الحركة على الحدود. وهناك من اعتبروا أن المراد هنا هو «منبع مياه نفتوح» المذكورة على أنها نقطة حدودية فاصلة بين بنيامين ويهوذا فى جبال القدس (يشوع ١٥ : ٩ - ١٨ : ١٥). وينهض هذا الرأى على أساس هجاء إسم الفرعون فى هذه الفترة بهذا الشكل (منبتاح) (أى بدون حرف الراء). وطالما أن التركيب المقرائى "معين رمى" عين ماء) ينم عن ازدواجية لغوية زائدة عن الحاجة، فإن الأقرب إلى الافتراض، هو أن الكاتب أخطأ فى تهجئة الاسم منبتاح. وقد علمنا من خلال الكتابات التى خلفها هذا الفرعون أنه أطلق إسمه - تشبهاً بأبيه رعمسيس - على عدد من المناطق والقلع فى أرض فلسطين وشبه جزيرة سيناء.

غروب شمس السيادة المصرية على أرض كنعان

حتى بعد وفاة مرنبتاح أيضاً، عندما أفل نجم السلطات المصرية فى كنعان لمدة جيل، وتبرهن على ذلك أدلة مختلفة فى أرض فلسطين، مثل الجرار التى عثر عليها فى تل فارعة (شروخان) غرب النقب، وكذلك فى تل دير علا عند مصب نهر اليبوك بعبور الأردن. (مدينة سوكوت على ما يبدو). حيث أن الجرة الى عثر عليها فى الموقع الأول تحمل اسم الفرعون سيتى الثانى. أما التى عثر عليها فى الموقع الثانى فتحمل اسم زوجته، الملكة تا-فاسرت. كما أن هناك اكتشافات أخرى فى تل دير علا تعود إلى نفس الفترة الزمنية، وتبرهن وبشكل يثير الدهشة، على وجود تأثيرات لشعوب البحر حتى فى هذا المكان النائى. و تنتمى المعلومة المستقاة من يوميات الموظف المصرى المسنول عن الحدود إلى هذه الفترة (برديات أناساتاسى السادس، والتى تتعلق بمرور أحد القبائل المغيرة وبصحبته أنعامهم. قادمين من أرض أدوم، سائرين فى اتجاه شرق الدلتا، نحو أرض جاسان، بحثاً عن الرزق، الأمر الذى يذكرنا بأحداث مشابهة فى القصص الوارد عن أباء بنى إسرائيل.

وقد آل مصير الأسرة ١٩ إلى حالة هائلة من الفوضى قرابة عام ١٢٠٠ ق. م.، عندما أمسك بزمام الحكم شخص أجنبى يكتنفه الغموض، يدعى «أرسو» (يرسو) ولقبه «هارو» أى حورى، الأمر الذى يدل على أصله الآسىوى. ويحتمل أن مسألة غزو حاكم من الشمال لمصر مرتبطة بشكل أو بآخر بالأحداث التى جرت فى أرض فلسطين، والتى تتردد أصدائها فى التراث «المقراى» فربما المقصود هنا هو «كوشان رشعتايم». ملك آرام النهرين. أول من استعبد بنى إسرائيل فى عصر القضاة (قض ٣: ٨ - ١٠)، وهو حاكم من شمال سوريا، احتل أراضى يهودا قبل ظهور الاستيطان الإسرائيلى، وهى فترة زمنية تتلائم مع نهاية الأسرة ١٩ فى مصر، حيث من الصعب أن نفترض أن حملة غازية موسعة إلى هذا الحد قادمة من آرام النهرين إلى أرض

فلسطين، كانت تهدف إلى قمع بنى إسرائيل ليس إلا. والأكثر منطقية هو أن نفترض (إذا لم يتعذر علينا أن نصلح صيغة المقرأ لتكون: «ملك أدوم» بدلاً من «ملك أرام النهرين») أن الهدف الحقيقى كان غزو مصر، وإن الحرب التى نشبت مع سبط يهودا هى مجرد حدث عارض فحسب، حيث أن «المقرأ» تنحو أحياناً نحو ربط أحداث تاريخية عامة بتاريخ بنى إسرائيل، وبناء على هذا التخمين أيضاً، فإن خلاص بنى إسرائيل الذى تم على يدى عوتنيئيل بن قيناز، كان مرهوناً فى الأساس بطرد الغزاة الأجانب من مصر على يد الفرعون ستنحات مؤسس الأسرة ٢٠.

وقد كان رعمسيس الثالث، (١١٩٨ - ١١٦٦ ق. م، ووفقاً لتسلسل تاريخى أكثر تأخراً [١١٨٢ - ١١٤١ ق. م] بن ستنحات، أخر الغزاة العظام فى التاريخ الفرعونى، حيث تمكن ولأخر مرة من بسط السيادة المصرية على أرض كنعان. وكانت أهم حروب رعمسيس بمثابة حرب حياة أو موت، ليس دفاعاً عن أرض كنعان فحسب، بل عن مصر ذاتها، وقد دارت مع شعوب البحر، الذى انقضوا بمنتهى القسوة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط. وسيتم تناول هذه الأحداث، وخاصة الصدامات مع البلستين الذين يرد ذكرهم للمرة الأولى فى كتاباته، فى الفصل الخاص بالبلستيين. أما هنا فسيرد ذكر سائر ما قام به رعمسيس إزاء أرض كنعان.

لقد نجح رعمسيس فى حروبه ضد القبائل المغيرة، وسكان ساعير، الذين تزايدت ضغوطهم على الحدود المصرية، وحصن عدداً من مدن كنعان - خاصة على طول الطريق الرئيسى - طريق البحر - ومن ضمن هذه المناطق مكان يسمى برج رعمسيس، وتدانا الكتابات المصرية على العلاقات الوثيقة بين مصر وأرض كنعان، ومن خلال تلك الكتابات التى عثر عليها فى مجيدو، وبيت شان، أهم حصون السلطة المصرية فى شمال أرض فلسطين، وكذلك الأمتعة التى تحمل اسم الفرعوز مثل جرة من جازر ووعاء عاجى من مجيدو. وفى بيت

شان، حيث عثر على تمثال للفرعون، أقام كسابقيه معبدين، من المحتمل أنهما: بيت داجون، وبيت عشتاروت الوارد ذكرهما فى المقرأ (صموئيل الأول ٣١: ١٠ - أخبار الأيام الأول ١٠ - ١٠). وقد شيد المصريون فى عهده معابد كثيرة فى أرض كنعان، أكثر مما شُيد فى أى فترة أخرى، ولم تعبد فى هذه المعابد الآلهة المصرية فحسب، بل آلهة كنعان المحلية أيضاً، وفيما يبدو أن ذلك قد حدث حتى يمنح المصريون لسلطتهم هناك طابع الشرعية والرسمية. كما أن هذه المعابد حملت مغزى اقتصادياً بالغاً، حيث خُزنت بها القرابين والضرائب المقدمة من سكان كنعان إلى مصر. ففي برديات هاريس الأكبر تحصى تسع مدن من بلاد خارو، أى من أرض كنعان، ضمن الأملاك الوفيرة للإله آمون، إله الدولة المصرية، وكانت هذه المدن بمثابة بقاع مقدسة، ومساكن للكهنة، وربما صارت هذه المدن المقدسة المخصصة لسكنى الكهنة، نموذجاً يحتذى لمدن اللاويين والكهنة المعروفة فى المقرأ؟

وبعد فترة قصيرة من انتعاش السيادة المصرية فى أرض كنعان فى عهد رعمسيس الثالث، تهاوت دعائم هذه السيادة بعد موته، وآخر أثر يفيد تواجد النفوذ المصرى فى أرض فلسطين هو نصب تذكارى يرجع لعصر رعمسيس الخامس فى مجيدو يرجع إلى منتصف القرن الـ ١٢ ق. م. وتدل قصة الرحالة المصرى ون - آمون، الذى أبحر فى بداية حكم الأسرة الـ ٢١ (١٠٨٠ ق. م. تقريباً) باتجاه جبيل، بوضوح شديد على تلاشى النفوذ المصرى حتى من منطقة الساحل الفينيقي، الذى ظل تحت سيطرتها مئات السنين. وقد تسبب تعاظم القوة الآشورية واحتلال الملك تجلات بلا سر الأول (١١١٤ - ١٠٧٦ ق. م. تقريباً) لبنان والموانئ القينيقيّة، والتي فرض الجزية على ثلاثة منهم: أرو، جبيل، صيدا، فى إقصاء السيادة المصرية عن الساحل الفينيقي. ولعل هذا يفسر تلك المعاملة المهينة التى كانت من نصيب وفى - آمون ورسل مصريين آخرين أموا رحاب زاخار - بعل ملك جبيل فى هذه الفترة. ويبدو أن مصر

حاولت في هذه الأونة أن تنسج علاقات طيبة مع آشور، التي أمست عنصراً سياسياً في منطقة الساحل الفينيقي، ويدلنا على ذلك، تلك الحيوانات النادرة، والكائنات النيلية التي أرسلها الفرعون إلى ملك آشور كبادرة تشير إلى حسن النوايا.

بيد أن حملة تجلات بلاسر الأول باتجاه الغرب كانت حدثاً عارضاً وطارئاً، حيث أن آشور اضطرت للانتظار مدة تزيد عن ٢٠٠ عاماً حتى نجحت في إقامة مرتكز لنفسها عند ساحل البحر المتوسط. وقد كانت الأسباط الأرامية التي اجتاحت بجموعها الغفيرة منطقتي الفرات وسوريا (اعتباراً من أواخر القرن الـ ١٢ ق. م) تمثل العقبة الرئيسية التي حالت دون احتلال تجلات بلاسر الأول وخلفائه لسوريا، ويدلنا على منعة الأراميين - الذي ير ذكراهم للمرة الأولى صراحة في نقوش تجلات بلاسر - وصعوبة إلحاق الهزيمة بهم، ما جاء على لسان ملك آشور الذي اضطر لشن ثمان وعشرون حملة ضدهم فيما وراء الفرات، بينما هو يطارد فلولهم حتى واحة تدمر وتلال لبنان. وبعد ذلك بثلاثة أجيال، حارب الأراميون - بعد أن انتظموا في دول - شاول وداود من أجل بسط نفوذهم على منطقة لبنان وشمال عبر الأردن. أما في أرض فلسطين نفسها، حيث تقوضت دعائم السيادة المصرية هناك، ولم تكن آشور قد بلغت بعد منزلة عنصر سياسي بارز، تفاقمت الصراعات في القرنين ١٢ - ١١ ق. م فيما بين القوى المحلية ذاتها، ولعب بنو إسرائيل دوراً محورياً في هذا الصراع. إذ تعين عليهم مراراً وتكراراً أن يحاربوا السكان الكنعانيين، أصحاب الأرض الأصليين، والقبائل المائيرة من الصحراء، وممالك الحدود الواقعة شرقي عبر الأردن، وأخيراً مع البابليين.

بدايات تاريخ العبرانيين

مما لا شك فيه، أن الأيام الأولى لأى أمه أو لغة تكون دائماً محاطة بالغموض، حيث لا تكون هناك إلا بعض الذكريات الباهتة ذات القيمة التاريخية، على أى نحو، من الممكن أن تشق طريقاً لها عبر تسلسل الأجيال. ويرى البعض أن العبرانيين يتميزون بالفرادة بين سائر شعوب الشرق القديم، وذلك لأنهم حافظوا على مرويّات شفوية (تقاليد) متشعبة تضمها أسفار التوراة وسفر يشوع، حول أصلهم وتاريخهم قبل أن يظهروا ككيان متبلور فى المجال الدولى القديم. وفى الحقيقة، فقد كانت لجيران العبرانيين تقاليد قومية على غرار ما خلفه العبرانيون، حسبما تشير إلى ذلك أقوال النبى عاموس: «ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والآراميين من قير» (الإصحاح التاسع آية ٧). ومعنى هذا، أنه بعد أربعمئة سنة تقريباً بعد استقرار الفلسطينيين والآراميين فى أماكن استيطانهم التاريخية، كانت مازلت تتردد فى المنطقة أصدااء عن أصلهم القديم وعن هجرتهم من بلادهم الأصلية.

وهناك سؤال هام يفرض نفسه فيما يتصل بمدى موثوقية المادة التاريخية الواردة فى كتاب «العهد القديم» وعن بداية تاريخ العبرانيين أو بنى إسرائيل، بمعنى، هل المعلومات الواردة فى قصص الآباء الواردة فى سفر التكوين عن أن أصل آباء بنى إسرائيل هو من بلاد ما بين النهرين، وعن هجرتهم إلى أرض كنعان، وعن صورة حياة الآباء فى هذه البلاد بأشكالها الإجتماعية والدينية، وعن قصة الاستعباد فى مصر والخروج والقيّة فى الصحراء، وأخيراً عن احتلال أرض فلسطين، هى معلومات تعكس أحداثاً تاريخية حقيقية؟

إن المؤرخ مازال يصادف صعوبة منهجية خطيرة فيما يتصل بصحة المصادر المتاحة له بشأن هذه الأحداث. فهو من ناحية، عليه أن يدعم صياغة بداية شعب إسرائيل بناء على شهادة هذا الشعب نفسه، أى من خلال الاستناد لما هو وارد فى العهد القديم، بالرغم من كل المحاذير التى ينطوى

عليها الأخذ بهذه الوثيقة كوثيقة تاريخية ذات مصداقية. ومن ناحية أخرى، فإنه من المحذور على المؤرخ أن ينسى أن الوثيقة «التاناخية» (نسبة إلى «التاناخ» وهو كتاب العهد القديم) نفسها على صورتها اليوم قد تحددت على هذا النحو بعد الأحداث التي وصفتها بأجيال كثيرة وعلى أساس تقاليد (مرويات) شفوية ومصادر قديمة مكتوبة مختلفة من حيث طابعها وقيمتها التاريخية. ومن المعروف أن تدوين العهد القديم قد أصبح على هذا النحو كعمل عضوي وزمني. (كرونولوجي) متتابع بعد نشاط أدبي مستمر ومتنوع من الاختيار بين التقاليد المختلفة، ودمجها وإعدادها، سواء بالطريقة التي شكلت «شريعة الوثائق» الارثوذكسية في دراسة العهد القديم، أو بطرق أخرى مقبولة أكثر (مثل بلورة «طبقات» أو «موضوعات» أدبية حسب النظرية التي تبلورت أخيراً في بحث الدراسات الألمانية). وعلاوة على ذلك، فإن الصورة البسيطة والوحيدة التي يثيرها العهد القديم عما قبل التاريخ الإسرائيلي هي ثمرة وجهة نظر إسرائيلية متأخرة ذات هدف تاريخي خاص، يرمى إلى جعل التاريخ القديم للebraانيين ذو أساس قومي عام إسرائيلي واسع.

وقد تخطب الباحثون في هذا الموضوع منذ بداية النقد العلمي للعهد القديم وبالفوا في الحلول التي طرحوها ولم يكن هذا يعنى أن هناك موقفاً سلبياً بارزاً تجاه الثقة في تاريخية التقاليد (المرويات الشفهية) المقرائية، (نسبة إلى «المقرا» وهو الاسم العبري لكتاب العهد القديم) وهو الأمر الذي ظهر بدرجات مختلفة من الشدة، في مدرسة البحث الألماني البروتستانتى، وذلك لأنه كانت هناك استثناءات لهذا بين دوائر الباحثين في أوروبا الغربية وفي الولايات المتحدة الأمريكية أبدت بعض الملاحظات حول هذه المرويات الشفهية.

وقد تناول أسلوب نقد العهد القديم، والذي سار على نهج مدرسة فلها وزن، التقاليد المقرائية بالرفض التام، واعتبر أنها انعكاس متأخر، يرجع إلى أيام الملكية وما بعدها. وعلى سبيل المثال، فإن الخلافات بين يعقوب وعيسو وتفضيل الأول عن أخيه في الحصول على بركة أبيهم، لا تعكس من وجهة

نظرهم، إلا علاقات العداء بين إسرائيل وأدوم في أيام الملكية واستعباد أدوم على يد داود.

وقد ظهرت على يد مدرسة فلها وزن بمرور الزمن نظريات مختلفة ومتغيرة مثل المدرسة الميثولوجية (الخرافية أو المتعلقة بالأساطير) التي ترجع إلى بداية هذا القرن، والتي نظرت إلى آباء بني إسرائيل باعتبارهم شخصيات آلهة أساسا، تحولت إلى بشر عاديين، و «اخترعت» عن طريق الأسطورة.

قصص العهد القديم التي تصف إسرائيل حتى أيام الملكية:

إن وجهة النظر الشائعة حالياً في البحث، والتي هي نتيجة لتأثير المدرسة المشار إليها سابقاً، وهي وجهة النظر المقبولة بشكل أو بآخر لدى الكثيرين من المؤرخين وباحثي العهد القديم، حتى في خارج ألمانيا، تتجلى أساسا في نظرية الباحثين أ. آلت وم. نوط. وتذهب هذه المدرسة إلى أن بني إسرائيل لم يصبحوا شعباً إلا على أرض كنعان وفي مرحلة متأخرة، أي ليس في القرن الثاني عشر ق.م، عن طريق التجمع التدريجي للأسباط الاثنا عشر الذين كان العامل المشترك بينهم هو الإيمان بالرب.

ويرى نوط، بصفة خاصة، أن تجمع هذه القبائل كان بمثابة «حلف انفكتيوني» (أي تجمع الأسباط حول مركز عبادي مشترك، كان في البداية في نابلس (شكيم) ثم انتقل من هناك إلى بيت إيل»، ثم انتقل أخيراً إلى شيلو). ومعنى هذا رفض الروايات القائلة بوجود علاقة منذ البداية بين أسباط إسرائيل ومصيرهم المشترك قبل غزوهم لأرض كنعان. وبناءً على هذا، فإن ما هو وارد في العهد القديم بشأن الاحتلال العسكري لأرض كنعان يكون هو الآخر مرفوضاً، حيث ترى هذه المدرسة أن غزو أسباط إسرائيل لأرض كنعان قد تم عن طريق التسلسل الهادئ، الذي تم بسبب دورات الري الموسمية العادية من أطراف الصحراء إلى حيث الأراضي المزروعة، حسب عادة الأسباط شبه الجواله عبر كل العصور. والأكثر تطرفاً من هذا، تلك الفرضية التي خرج بها مؤخراً ج. مند نهول، الذي يرفض رواية دخول بني

إسرائيل إلى أرض كنعان من الخارج، مفترضاً أن اليهود قد تبلوروا كطائفة دينية من عناصر مختلفة كانت تعيش في الاستيطان الكنعاني المحلي من خلال ثورة إجتماعية وسياسية.

ومن أجل توضيح صياغة الروايات «التناخية» (نسبة إلى العهد القديم «الذي يسمى بالعبرية» «التناخ») نشير إلى أن علم الدراسة النقدية للعهد القديم، يحتاج حسبما تجلى في نظرية آلت ونوط، إلى تكتيك التحليل الأدبي القائم على عدة افتراضات ومبادئ. وسوف نورد فيما يلي عدة نماذج من قضية احتلال كنعان وفقاً للتفسير الإيثولوجي (اللاهوتي) الذي أصبح عنصراً رئيساً في تدوين أسفار التوراة وسفر يشوع. وهنا نؤكد الرأي العلمي الخاص بهم بشأن «تأميم» التقاليد التناخية، التي كانت أساساً، وفقاً لهذه الفرضية، ذات أساس قبلي ومحلي محدود. إن هذه المرويات الشفهية القديمة، التي كانت لدى الأسباط المنعزلة منذ أيام تيههم على حدود البلاد، قد نقلت حسب وجهة النظر هذه إلى أرض كنعان مع استيطان الأسباط فيها، وارتبطت بالمناطق التي استقروا فيها. وعلاوة على ذلك، فإن أماكن العبادة، مثل «شكيم» (نابلس) وبيت إيل التي في تقاليد الآباء، وشكيم وجلجال التي في تقاليد الاحتلال، قد شكلت طابع صياغة القصة أو كانت مصدراً لها. وبعد أن تجمعت الأسباط في إطار شعب إسرائيل «أممت» القصص القبلية وولّبت بطابع قومي شامل. ولم يكن إبراهيم وإسحق ويعقوب إلا رؤساء قبائل منفصلة، أقاموا في البداية على حدود صحراء أرض فلسطين، وفقط مع مرور الزمن جاء المدونون وحولهم إلى شخصيات إسرائيلية عامة ودمجوها في إطار سلسلة أنساب لآباء شعب إسرائيل.

وخلاصة الأمر، تبعاً لهذه المدرسة ومن على شاكلتها، يعتبر كل التاريخ الخاص بالعهد القديم، (التناخي) السابق لعصر القضاة بمثابة رواية.

وبالإضافة إلى وجهة النظر النقدية هذه للعهد القديم ورواياته، توجد مدرسة أخرى يتزعمها و.ف. أولبرايت ترى أن الكثير مما هو وارد في العهد القديم يمكن الاعتماد عليه كأساس تاريخي موثوق فيه لاسترجاع فترة ما قبل التاريخ الإسرائيلي.

ويهتم الباحثون اليهود برأى هذه المدرسة ويحاولون الترويج له لأنه يعطى أهمية كبيرة للاعتقاد الراسخ بشكل أكيد في الوعي الإسرائيلي بشأن وجود علاقة أكيدة ومصدراً مشتركاً لكل أسباط إسرائيل، حيث أنه بهذه الطريقة يمكن التوصل إلى تفسير مقبول لخلق العضوية القومية التي ظهرت في أرض كنعان بعد مرور أجيال على ضفتي نهر الأردن بين هذه الأسباط في إطار الملكية، حسبما هو وارد في أسفار العهد القديم.

وقد انبرى الكثيرون من الباحثين اليهود للرد على وجهة نظر آلت - نوط، وكان أشهر من قام بهذا العالم الإسرائيلي حزقيال كوفمان، الذي أخذ على عاتقه تنفيذ كل بنود وجهة نظر هذه المدرسة مما جعله يقع في تطرف واضح جعله يقبل الرواية التاريخية «التاناخية» بأسرها، وبكل تفاصيلها تقريباً، بإعتبارها مصدراً موثقاً فيه للتاريخ اليهودي. ولكنه ذهب بعيداً حينما افترض أن «الطبقات» الأدبية المبكرة في العهد القديم تعكس بدقة فروقا تاريخية زمنية حقيقية. وعلى أى الحالات، فبالرغم من الميل لوجهة النظر التي يمكن أن تقبل الرواية «التاناخية»، إلا أننا يجب أن نتحفظ من الانجراف في تيار القبول المطلق لروايات العهد القديم دون مراجعة، إذ لا بد دائما أن يتعرض كل ما هو مكتوب للنقد الدقيق، لأنه من طبيعة الأمور أن تشتمل هذه الروايات على عناصر أسطورية بالإضافة إلى وجهات نظر متصلة بالمفارقات التاريخية المتأخرة، سواء من حيث التفاصيل أو من حيث الخطوط العامة (مثل الاتجاه لتوسيع الأساس القومي)، وهو ثمرة عمل المحررين المتأخرين. وبشأن الديالكتيك (الجدل) الذي ينحاز لاستخدام المصدر «التاناخي»، في مقابل المناهج ذات الجانب الواحد، تشهد المناقشات حول قضية احتلال أرض كنعان واستقرار القبائل العبرية فيها، وسنتحدث في النقطة التالية عن آباء شعب إسرائيل، وهي القضية التي تحظى بخلاف كبير بين الباحثين.

الآباء في العهد القديم وفي البحث:

يوافق الباحثون الذين يقرون أسس التقاليد (الروايات) المقرائية على أن زمن الخروج من مصر واحتلال أرض كنعان، أو على الأقل المراحل الحاسمة

لهذه الأحداث، قد وقع فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. ولكن الأمر ليس على هذا النحو إذا ما تدخلت العوامل الزمنية «لعصر الآباء»، وهو الموضوع الذى اختلفت الآراء حوله. إن أصحاب المدرسة النقدية وعلى رأسهم أولبرايت، وسببيلز وديو والباحث الإسرائيلي ش. يابين، يرون أن هذه الفترة هى النصف الأول من الألف الثانية ق.م، وبصورة خاصة بداية هذه الفترة الزمنية، أى خلال العصر البرونزى الأوسط. وهم يستندون فى هذا، من بين ما يستندون إليه، إلى الوثيقة الأثرية التى تم اكتشافها فى شرق الأردن وفى صحراء النقب وعلى الاكتشافات التى تم العثور عليها فى منطقة مارى.

وقد وجدوا فى العهد القديم مارأوا أنه يمثل دليلاً على وجهة النظر هذه فى أسفار المكتوبات، حيث توجد إشارة إلى أن فترة استعباد اليهود فى مصر استمرت ٤٠٠ سنة (التكوين ١٥: ١٣) أو ٤٣٠ سنة (الخروج ١٢: ٤٠ - ٤١). ولكن الباحثين الذين جاؤا بعد ذلك (معظم الباحثين ومن بينهم ي. كوفمان. وك. جوردون وأ. ايسفالدت) اقترحوا إرجاع فترة عصر الآباء إلى القرن الرابع عشر ق.م، استناداً إلى أيام الاحتلال والاستيطان، التى يرجعونها إلى فترة تل العمارنة.

وقد وجدوا أدلة على ذلك فى العهد القديم، وعلى الأخص فى إحصاء الأجيال (قارن التكوين ٢٥ - ١٦ - ٨ الجيل الرابع يقيم هنا)، وفى روايات تتابع الأجيال والتى بموجبها يعتبر موسى - الذى يمكن إرجاعه إلى القرن ١٣ ق.م، كان بمثابة الجيل الرابع ليعقوب (يعقوب - لاوى - كاهت - عمram - موسى، الخروج ١٦: ٦ - ٢). ولكن الأدلة الزمنية داخل العهد القديم محل شك فى هذا الموضوع، وذلك لأن المضمون الحقيقى للأرقام الواردة فى العهد القديم ليس مؤكداً بما فيه الكفاية من ناحية، ولأنه يجب ألا نعتبر قوائم الأنساب هذه ذات قيمة زمنية كبيرة وذلك بسبب طابعها الاختيارى. والدليل على ذلك، مثلاً، الأنساب الأكثر اكتمالاً بالنسبة ليشوع الذى كان الجيل العاشر بالنسبة ليعقوب فى مقابل أنساب موسى غير المكتملة.

وفى الحقيقة، فإن محاولات تحديد تاريخ دقيق، إن قليلاً أو كثيراً، لأباء شعب إسرائيل هي مسألة محل خلاف، وذلك لأنه من الصعب التحدث عن «عصر الآباء» باعتباره عملية محددة وملموسة من الناحية الزمنية، حتى ولو كنا لا نود أن نرفض نفس الروايات «التاناخية».

ويبدو أنه فى سياق قصص الآباء قد ترسبت ذكريات لتطورات تاريخية ترجع إلى مئات السنين، ربما كان بدايتها ذلك التيه السامى الغربى فى منطقة الهلال الخصيب وفى اتجاه الغرب، وهو التيه الذى وصل إلى ذروته فى الربع الأول من الألف الثانية قبل الميلادى، وهذه المراحل الزمنية الواسعة قد أدمجت فى الروايات «التاناخية» فى إطار ضيق ينحصر فى ثلاثة أجيال - وهى فترة زمنية، تشهد عليها التقاليد التاريخية الشائعة بين المجتمعات القبلية البدائية فى أيامنا - والتي تتجلى فى حصر هذه الفترة فى كل من إبراهيم واسحق ويعقوب.

ولكن بالاضافة إلى أن روايات العهد القديم تهتم بهؤلاء الآباء الثلاثة كشخصيات فردية وكممثلين لفترات تاريخية، فإن العهد القديم يعلق عليهم مهاماً متصلة بالمستقبل، أهمها وعد النسل وانفر ادية النسل الإسرائيلى والوعد بالأرض التى سيرثها الأحفاد، وهى الأشياء التى تتكرر عبر المكتوبات اليهودية (مثل قول الرب لإبراهيم «أجعلك أمة عظيمة...» لنسلك أعط هذه الأرض «التكوين ١٢: ٧»). وبناء على هذا، فإن أساس أهمية الآباء هم كونهم موضوعات للتجلى الإلهى وباعتبارهم عاقدى العهد الذى قطعه الرب مع إبراهيم، ونواة هذا العهد هى رسالة الشعب المختار، و«إله الآباء» هو إله ذو طابع خاص يقيم علاقات شخصية ودية مع أسرة الآباء ويدافع عنها فى تيهها، ومع هذا فهو إله بلا إسم، وبلا عالم، تطلق عليه أسماء غامضة مثل: «إله إبراهيم واسحق ويعقوب»، «خوف اسحق» و«بطل يعقوب»، وهذا الرب يظهر للآباء فى أماكن إقامتهم فى أرض كنعان، ومرة أخرى تطلق عليه أسماء عامة مثل: «إله العالم» و«الإله الأعلى»، وعلى الأخص «الله القوى»، أو يسمى بأسماء مرتبطة باسم مكان مثل «إله رنى» و«إله بيت آيل». وربما

كانت هذه الأسماء الإلهية ترمز إلى آلهة كنعانية محلية أساسا، وذلك وفقا ماتشير إليه الوثائق الأوجاريتية والتي كان الإله «إيل»، وفقا لهما، هو رئيس القبيلة الكنعانية، ولكن الآباء ربطوا هذه الأسماء بإصطلاحات الألوهية التي أحضروها معهم من بلاد ما بين النهرين. وعلى أى حال، فقد اتضح أن اكتشاف اسم الإله وعقيدة التوحيد الخالصة، والمرتبطة بهذا الاكتشاف يرجع إلى أيام موسى وذلك ما يكشف عنه سياق السرد في سفر التكوين.

وبالرغم من أن تجوال الآباء عبر البلاد طولا وعرضا قد وصف في سفر التكوين من خلال شكل ديني مرتبط بتقديس أماكن معينة عن طريق إقامة المذابح والنصب التذكارية، فإن المصدر «التاناخي» يبرز بوضوح صورة الآباء باعتبارهم شبه رحالة، كانوا معتادين على الانتقال من مكان لآخر في إطار منطقة الجبل الرئيسي وصحراء النقب وغيرها لدى مرورهم على مدن كنعان. وقد أقاموا خيامهم كذلك بجوار شكيم (التكوين ١٢: ٦)، وبين بيت إيل وعام (تكوين ١٢: ٨) ويجوار الخليل (حبرون) (تكوين ١٣: ١٨)، ويجوار بئر سبع (تكوين ٢٦: ٢٥) و«من هناك إلى مجدل عرار» (تكوين ٣٥: ٢١). وكانوا متمتعين بعهد الحماية من سادة البلاد الكنعانيين وعقدوا معهم علاقات سلام، حسبما يتضح من علاقة إبراهيم بملكى صادق ملك شكيم (التكوين ١٤: ١٨ - ٢٠) ومع أبيمالك ملك جرار (تكوين ٢٠: ٢٦)، وكذلك يتضح هذا من الفقرة الخاصة بشراء مغارة المكفلة من عفرون الحيثي (تكوين ٢٣). وفي بعض الأحيان نجد أنهم ذهبوا في تجوالهم بعيدا عن قاعدتهم وذلك لدى سعيهم وراء المراعى، وذلك على غرار ما فعل أبناء يعقوب الذي خرجوا من وادي حبرون إلى منطقة شكيم «لكي يرعوا غنم أبيهم» (تكوين ٣٧: ٢٢ فصاعدا).

وليس هناك أى معنى لإنكار الطابع شبه الرعوى للآباء وتقبل الاعتقاد، الذى شاع مؤخرا، بأنهم كانوا يتعيشون عن طريق تجارة القوافل الدولية، وكان هناك كذلك من ذهبوا إلى أبعد من ذلك واعتبروا إن الآباء كانوا تجارا محترمين. والفيصل في هذا الموضوع هو الدليل «التاناخي» الذى يؤكد أن طابع حياة الآباء كان طابع الرعاة النموذجيين، الذين يتعيشون على رعى

الغنم والبقر لديهم خبرة في مجال الزراعة الموسمية، وذلك حسبما هو وارد في قصة اسحق في جرار (التكوين ٢٦: ٢٢). ويتفق هذا الطابع الإجتماعي الاقتصادي مع نظام حكم حياة الآباء الموصوف بإعتباره حكما بطيركيا واضحا.

وبالنسبة للموثوقية الخاصة بالروايات (التقاليد) الشفهية بشأن الآباء تبرز تلك الطبيعة المزدوجة التي أشرنا إليها قبلا في المقدمة التاريخية. فمن ناحية حفظت فيها مادة قديمة موثوق فيها، من ناحية أخرى، تطل منها مفارقات تاريخية متأخرة. إن الكثير من نمط حياة الآباء عن النظم الإجتماعية والقانونية، وعن المعتقدات والسلوكيات الخلقية بأنواعها، وعن المجال الجغرافي الاستيطاني وطرق التجوال، كل هذا يتداخل وأحيانا بصورة مفاجئة، مع الواقع التاريخي الشامل لما قبل الاحتلال الإسرائيلي حسبما هو معروف الآن وفقا للاكتشافات الجديدة. وفي موضوعات كثيرة تتناقص الصورة الواردة في قصص الآباء مع الواقع المتأخر الذي يرجع إلى أيام الاستيطان والملكية، أو أنها على الأقل لا مغزى لها تجاهه، وبالتالي فإنه لا يحتمل أن تكون خلفية هذه القصص نتيجة لانعكاس متأخر. ويمكن أن نعثر على النموذج الملموس على ذلك في أسماء الآباء وأسماء أبناء أسرهم، وهي الأسماء التي لها مايقابلها كثيراً في الوثائق الأكادية والمصرية التي ترجع إلى الفترة من الألف الثانية ق.م حتى الربع الأخير من هذه الألفية، حيث أن الغالبية العظمى من هذه الأسماء لم تعد مستعملة في أزمنة لاحقة لذلك، ومعنى هذا، أنها اعتبرت أسماء قديمة.

ومما يثير الدهشة حقا في بعض الأحيان مدى الدقة التي جعلت التقاليد الشفهية تحافظ على تفاصيل قديمة إلى هذا الحد، لدرجة أن المحررين المتأخرين لم يكونوا يعرفون أحيانا مغزاها الأولى.

وبالإضافة إلى هذا فإن فحص التقاليد الشفهية للآباء كل جزء على حدة، يوضح انه إلى جانب التفاصيل القديمة والموثوقة، توجد سلسلة طويلة من المفارقات التاريخية التي تعكس زمن تأليف سفر التكوين، من بينها

مفارقات تاريخية واضحة، أدركها بعض مفسرى العصر الوسيط مثل ابن عزرا، وخاصة فيما يتصل بعصر كتابة سفر الخروج، ومن بينها مفارقات تاريخية غامضة لا يمكن اكتشافها إلا عن طريق البحث المعمق. والمثال على وجهة نظر المفارقة التاريخية فى وصف طابع حياة الآباء، هو احتياج الآباء للجمل (التكوين ١٦: ١٢؛ ٤٣: ٣٠؛ ١٧: ٢١)، حيث أن ترويض الجمل واستخدامه من أجل الأسفار قد بدأ فقط فى القرن ١٢ ق.م.

وليست هذه جزئية شكلية، بل هى فارق عميق فى حياة المجتمع بين الرحالة الكاملين، الذين يعيشون فى الصحارى وحيوانهم هو الجمل، وبين أشباه الرحالة مثل آباء شعب إسرائيل، الذين يعيشون داخل إطار الاستيطان الدائم وعلى حدود الأرض المزروعة ويحتاجون إلى الحمير والأتان فى تجوالهم وفى نقل متاعهم. وتكثر المفارقات التاريخية بصفة خاصة فى المجال الجغرافى. والمثال على ذلك، ذكر مدينة دان (التكوين ١٤: ١٤) التى كانت تسمى ليش قبل الاحتلال الإسرائيلى وتشهد على ذلك وثائق ماري. وفى المجال الانثريولوجى الوصفى - يرد ذكر الفلسطينيين فى قضية اسحق وابيمالك ملك جرار، الذى يسمى أيضاً «ملك الفلسطينيين» (التكوين ٢٦: ١)، (بالرغم من اسمه الكنعانى الواضح)، مع أن هذا الشعب ظهر على حدود أرض كنعان فقط فى بداية القرن ١٢ ق.م وانتظم فى مملكة فى مرحلة متأخرة عن هذا التاريخ.

وينطبق نفس الحكم بالنسبة للآراميين، الذين تدخلهم التقاليد الشفهية مع آباء شعب إسرائيل. فهم من ناحية أقاموا علاقات زواج مع بيت لابان الآرامى (تكوين ٢٥: ٢٠) وربما سمي بسبب ذلك بالآرامى (التكوين ٢٥: ٢٠)، ومن ناحية أخرى سميت منطقة إقامتهم باسم فدان آرام أو آرام النهرين. ولكن المصادر الخارجية لاتشير بتأكيد إلى وجود قبائل آرامية قبل نهاية القرن ١٢ ق.م، حيث أغاروا بجموعهم على المنطقة المسماة فى التوراة باسم «آرام النهرين» والمسماة فى الوثائق الخارجية القديمة باسم «النهرين» فقط. وذلك فإننا يجب أن نعتبر أن آرامية الآباء تمثل وجهة نظر تحوى مفارقة تاريخية متأخرة، ولذلك فإنه لا يوجد أساس قوى كذلك للرأى الشائع بين

الباحثين بأن بنى إسرائيل هم أصلا من الآراميين أو «ماقبل الآراميين». والحقيقة هي أن بنى إسرائيل يعدون من طبقة قديمة من القبائل السامية الغربية، تسمى وفقا لما هو شائع علميا «الأموريون» (خلافا للاموري الوارد في التوراة)، وهم الذين ظهرُوا في بلاد الهلال الخصيب في نهاية الألف الثالثة ق.م.

الآباء على ضوء الاكتشافات الحديثة:

تحتوى الاكتشافات الكثيرة التى تم التوصل إليها، وخاصة خلال الخمسين سنة الأخيرة، على مايفسر الإطار الذى تم من خلاله صياغة التاريخ العبرى. فمن ناحية، كثرت المعلومات عن القبائل السامية الغربية فى ميزوبوتاميا الذين ينتمى إليهم آباء بنى إسرائيل، كما قلنا من قبل، ومن ناحية أخرى ازدادت معلوماتنا عن كنعان وسكانها خلال القرنين السابقين لاحتلال البلاد وتبلور الشعب اليهودى داخلها بشكل عميق. وفى الحقيقة، فإنه لم يتم العثور على القرائن المباشرة أو «الأدلة» بالمفهوم الرياضى، فيما يتصل بوجود الآباء، ويعتبر البحث عن هذه الأدلة بمثابة سعى مبالغ فيه. ولكن فيما يتصل بهذا الخصوص، نجد أن بعضا من آباء إبراهيم المذكورين فى قائمة انساب آباء الأمة العبرية (تكوين ١١) مثل شاروج، وتارح وكذلك ناحور، قد تم العثور عليهم فى المصادر الخارجية كأسماء لأماكن فى منطقة حاران، وهى البلد التى بدأ منها التاريخ العبرى (ناحور يظهر فى التوراة نفسها تكوين ١٤: ١٠ باعتباره اسم مدينة). ومعنى هذا أن مادة المقارنة الخارجية هى بالفعل بمثابة شهادة عرضية فقط، ولكن قيمتها هائلة من ناحية التصنيف.

وهناك أهمية من الدرجة الأولى للمصادر «الأبيجرافية» (النقوش المكتوبة)، وأهمية أقل من هذا بالنسبة للاكتشافات الأثرية. وسوف نورد فى البداية بعضا من الاكتشافات الأثرية ذات المغزى بالنسبة لتقدير المرويات الشفهية عن الآباء. ومن بين هذه الاكتشافات الهامة بعض ماتم العثور عليه فى فلسطين خلال السنوات الأخيرة ويرجع إلى العصر البرونزى الأوسط بالذات، أى إلى حوالى النصف الأول من الألف الثانى قبل الميلاد. وحيث أن

الآباء لم يكونوا من السكان الدائمين ومن خالقي الحضارة المدنية، بل كانوا في حالة تجوال وكانوا من ساكني الخيام، فقد اتضح أن المادة الأثرية التي بين أيدينا، أكثر مما تلقى ضوءاً على حياة الآباء، فإنها تلقى الضوء على كل مايتصل بموتهم وطرق دفنهم. ففي منطقة ما. توجد إشارة إلى منطقة مدافن أسرية في مغارة المكفلة في ضواحي مدينة الخليل (تكوين ٣٢)، وفي منطقة أخرى عن قبر راحيل لدى موتها عند تقاطع طرق لدى تجوالها: «فماتت راحيل ودفنت في طريق أفراثة، التي هي بيت لحم. فنصب يعقوب عموداً وهو عمود قبر راحيل حتى اليوم» (تكوين ٣٥: ١٩-٢٠). وفيما يتصل بطرق الدفن هذه والتي تختلف اختلافاً تاماً عن تلك التي كانت تميز القبائل شبه المتجولة، والذين لا يحرصون على دفن موتاهم أثناء التجوال وكانوا يبحثون عن الحماية في ظل إحدى المدن الكنعانية ويسعون لدفن موتاهم فيها، يكون هذا الاكتشاف الأثري في فلسطين والذي يرجع للعصر البرونزي الأول ذو أهمية. ففي البداية كان يتم العثور على قبور منعزلة على جوانب الطرق دون أي ارتباط بالاستيطان الحضاري، ومن ناحية أخرى، تم العثور في حفائر المدن الكنعانية على مقابر أسرية فاخرة، مثل تلك التي في أريحا. وتم العثور على قبور تشتمل في المتوسط على عشرة هياكل بشرية لرجال، ونساء وأطفال، بما يؤكد أن هذه المقابر عمومية كانت تستخدم عبر عدة أجيال مثل مغارة المكفلة.

وقد تم العثور في القانون الحيثي على شواهد مماثلة لتلك المساومة التي جرت بين إبراهيم وعفرون الحيثي حول شراء المقبرة. وتمثل قضية مغارة المكفلة الاختلاف بين السكان الدائمين في كنعان وبين العائلات الجواله التي في حاجة إلى مقابر لها.

وهناك استنتاج آخر، ربما كان له مغزى تاريخي كبير، أثاره البحث الأثري في منطقة النقب، وهو البحث الذي قام به نلسون جليك وآخرين خلال الخمسينيات من القرن العشرين، حيث اتضح أنه كانت توجد في النقب عشرات المستوطنات التي ازدهرت في المرحلة السابقة للعصر البرونزي

الأوسط، وأنه خلال حوالي ١٩٠٠ ق.م، وربما بعد ذلك بعدة أجيال، تم تخريب هذا الاستيطان الدائم، وأصبحت صحراء النقب أرضاً جرداء لمئات من السنين حتى حوالي عصر الملكية الإسرائيلية. والسؤال الآن هو كيف يمكن تطبيق هذه المعلومات على ما هو وارد في قصص الآباء؟ تقول التوراة عن إبراهيم: «وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وبين شور تغرب في جرار» (تكوين ١٠: ٢٠)، وورد عن اسحق كذلك: «وأتى اسحق من ورود بئر لحى رثى إذ كان ساكناً في أرض الجنوب» (تكوين ٢٤: ٦٢). وهنا نجد أن قصص التوراة تتحدث عن منطقة مأهولة بالسكان وأمنة. وهذا الاستنتاج في الواقع من الممكن أن يكون حاسماً بناء على اكتشافات جليلك وأولبريت من بعده، في تحديد فترة عصر الآباء باعتبارها بداية الألف الثانية ق.م. وفيما عدا هذا من الجائز أيضاً أن يكون ذلك الخراب العام الذي عم النقب وشرق الأردن جنوب اليرموك، قد ورد في التوراة بشكل غامض بعض الشيء عن طريق الإشارات التاريخية وبالذات في الإصحاح ١٤ من سفر التكوين. ففي هذا السفر توجد إشارة إلى حملة عسكرية واسعة لأربعة من ملوك الشمال بقيادة ملك عيلام، وقد ظلت هويتهم غامضة بالرغم من كل المحاولات التي بذلت من أجل ربطهم بشخصيات تاريخية، وقد استمرت هذه الحملة عبر كل طريق الملك شرق البلاد إلى النقب وصحراء سيناء، وهي الحملة التي تم فيها ضرب الملوك الخمسة الذي كانوا في المنطقة الواقعة جنوب البحر الميت وسائر شعوب المنطقة. ولكن، من أجل توضيح الخلفية التاريخية للآباء تحتل النقوش المكتوبة (الابيجرافية) الغنية التي عثر عليها في بلاد الشرق القديم أكثر من المادة الأثرية. ونحن نعني بذلك عشرات الآلاف من الوثائق التي عثر عليها في سوريا والعراق بالخط المسماري وباللغة الأكادية، وإلى حد أقل من هذا، الوثائق التي عثر عليها في مصر، وقد عثر في فلسطين نفسها على كتابات قليلة جداً معدومة القيمة التاريخية بالنسبة لموضوعنا وترجع إلى الألف الثاني ق.م. ولن يمكننا هنا التعرض إلا لبعض من هذه الاكتشافات فقط، وهي تلك التي عثر عليها خلال الخمسين سنة الأخيرة وهي تعتبر حاسمة من حيث أهميتها لموضوعنا. ولن نحتاج كذلك هنا للوثائق الأوجاريتية، التي تم العثور عليها منذ عام ١٩٢٩

فى رأس الشمرة على الشاطى السورى، وذلك لأنه بالرغم من أهميتها بالنسبة لتاريخ وحضارة سوريا إلا أن قيمتها فيما يتصل بالتوراة تنحصر فى الجانب اللغوى والأدبى أساسا. ومن بين المصادر المصرية توجد أهمية من الدرجة الأولى لكتابات تل العمارنة التى تلقى ضوءاً كبيراً على كنعان وسكانها، وهى ترجع إلى القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م.

وقد اتضح من هذه الاكتشافات أن الأسرة التى حكمت كنعان تنتمى إلى مجموعة الشعوب السامية الغربية وتدل على ذلك أسماء المركبة من أسماء مثل أب وعم وشيم وإيل، وهدد، ومن بينها اسم «أب ورهن» الذى يثير اهتماماً خاصاً. كذلك فإن أسماء المناطق الواردة فى هذه المصادر يدل على تمدن اخذ الزيادة لأرض كنعان وعلى انقسامها إلى ولايات متعددة بالعشرات. وهنا يرد ذكر الأسماء القديمة لمدن البلاد مثل ليش التى كانت لفترة تسمى دان، ومدن الحدود، مثل شوتو وكوشو التى تتردد أسماؤها فى التوراة كتسميات قديمة لموآب «أبناء شت» (العدد ١٧:٢٤) ومدين «خيام كوشن» (حقوق ٧:٣).

والاستنتاج الهام الذى نخرج به من رسائل تل العمارنة، هو أن مراكز الحكم كانت موجودة أساسا فى سهول فلسطين، بينما ذكرت نابلس والقدس (شيخيم وأورشليم) فقط فى الجبل الأوسط، وكانت منطقة تجوال الآباء بالذات فى منطقة الجبل الأوسط والنقب. وحقيقة أن كتابات العمارنة وقصص الآباء تعرض مجالات جغرافية مختلفة، هى حقيقة ذات مغزى كبير، والنتيجة المستفادة من ذلك هى، أنه ليس طابع الحياة البدائى للآباء هو الذى حال بينهم وبين البحث عن المعيشة فى الأقاليم الخصبة من البلاد، ولكنهم حيل بينهم وبين الدخول إلى سهول البلاد والوديان، التى كانت مأهولة بكثافة سكانية كبيرة على عكس الاستيطان الهزيل الموجود فى المنطقة الجبلية.

وننتقل بعد ذلك إلى اكتشافات ميزوبوتوميا منطقة المنبع الرئيسى للتاريخ العبرى. ونذكر أولاً وقبل كل شئ، الاكتشافات التى عثر عليها فى مدينة مارى (تل الحريرى حالياً)، التى تقع على شاطئ الفرات الأوسط على

بعد حوالي ٢٥ كم شمال الحدود بين سوريا والعراق. لقد تم العثور في حفائر هذا الأثر عام ١٩٣٣، على قصر يرجع إلى عصر الأسر السامية الغربية، وهو قصر فريد في نوعه من حيث أبعاده وفخامته والخزائن الملكية التي فيه. وتم العثور فيه على ٢٠ ألف وثيقة، لم يتم شك رموزها جميعاً حتى الآن. وقد اتضح بسهولة من الصلة المثلثة بين وثائق ماري وآباء وشعب إسرائيل مايلي:

(١) من ناحية الزمن: ترجع وثائق ماري إلى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م وفقاً للأسلوب الخاص بقياس الزمن وهي فترة معاصرة إن قليلاً أو كثيراً للإطار الزمني لقصص الآباء.

(٢) من ناحية الإطار الجغرافي: وردت منطقة آرام النهرين مرات متتالية في هذه الوثائق. كما تبرز مدينة حاران وناحور، وهي المواطن القديمة للآباء وفقاً للتوراة، باعتبارها مراكز هامة وبؤر للقبائل الجوالة وشبه الجوالة. وأكثر من هذا، فإن أوصاف رحلات القبائل الجوالة وطبائع القوافل من منطقة الفرات نحو سوريا الجنوبية وفلسطين الشمالية، والتي يرد فيها ذكر امورو ومدينة حاتور، تجعل قصص العهد القديم عن تيه الآباء بين آرام النهرين وكنعان ذات أساس حقيقي.

(٣) هناك أهمية خاصة للعنصر العرقي، وذلك لأن معظم الأشخاص والقبائل التي ورد الحديث عنها في وثائق ماري هي من أصل سامي غربي، مثل آباء شعب إسرائيل، وكانت تتردد على ألسنتهم لهجات قريبة من اللغة العبرية في صورتها القديمة جداً. وتشهد على ذلك من ناحية، العديد من أسماء الذات الشخصية، والتي تقابل أسماء كانت سائدة في إسرائيل في عصر الآباء والترحال، مثل اسم يعقوب وإسماعيل، ومن ناحية أخرى، عدد هائل من الكلمات السامية الغربية المستعارة، والتي تعتبر غريبة عن اللغة الأكادية والتي صيغت بها وثائق ماري، وهي كلمات معروفة وواردة في العهد القديم. والمادة الغنية والمتنوعة التي تحويها وثائق ماري عن حياة القبائل السامية الغربية، وانتقالهم من حياة الترحال إلى الاستيطان الدائم واتصالهم

بالسكان، تعتبر بمثابة المادة الخارجية الهامة جداً من اجل توضيح شكل المجتمع البطريركى القبلى الإسرائيلى بتنظيمه ومؤسساته، وطرق استيطان قبائل إسرائيل، وماهية علاقاتهم بالاستيطان القديم فى البلاد. ومن بين تلك الإجراءات التى لها مايقابلها فى التوراة، نذكر على سبيل المثال موضوع إبرام العهد فى حفل قتل حيوان، وهى حادثة توضح الأساس الرعوى لحفل العهد بين إبراهيم والرب.

وهناك تقييم جديد لتقرير قصص الآباء فيما يتصل بالعلاقات الأسرية، والأفكار الشخصية والحياة اليومية بشكل عام، وذلك من خلال آلاف الوثائق التى تم العثور عليها فى نوزى، التى تقع شرق نهر دجلة بالقرب من حقول البترول فى كركوك.

إن هذه الوثائق تمثل الحضارة الحورية، حيث كانت نوزى هذه خلال القرن ١٥، ١٤ ق.م مقراً هاماً للحكم فى مملكة ميتانى، الذى ينتمى سكانها إلى الشعب الحورى. ولكن الحوريين كانوا قد انتشروا قبل ذلك فى منطقة حاران واتجهوا نحو منطقة سوريا وفلسطين وفرضوا طابعهم على التركيب العرقى القديم للأنساب العبرية وعلى أسباط إسرائيل فى فترة متأخرة أكثر. ومن هنا تأتى أهمية هذا المصدر بالنسبة للتاريخ الإسرائيلى القديم، لأن المعلومات الكثيرة التى تم الكشف عنها فى المحفوظات الكثيرة لأشراف المدينة وكبار موظفى الإدارة فيها مايجعل من قصص التوراة أكثر من مجرد أدب ويجعلها قصصاً ذات أسس اجتماعية عرقية من ذلك النوع الذى كان شائعاً فى منتصف الألف الثانى ق.م واندثر بمرور الزمن. ومن بين الأمثلة الكثيرة التى يمكن أن نقدمها سنورد البعض للتدليل على هذه النقطة. إن تصرف إبراهيم، الذى كان على وشك أن يورث عبده وابن بيته اليعازر النمشقى كل ممتلكاته طالما أنه لا ينبج وحديث الرب إليه «لا يرتك هذا. بل الذى يخرج من أحشائك هو يرتك» (تكوين ١٥ : ٢-٣)، يصبح واضحاً بصورة جيدة على ضوء الإجراءات الذى كان متبعاً فى نوزى بشأن تبني العبد حينما يكون سيده عاقراً ثم إعادة العبد إلى مركزه السابق بعد أن يرزق

بأبناء. وتصرف سارة وراحيل، حينما خشيتا من كونهما عاقرتان، فلجأ إلى تسليم جاريتيهما إلى أزواجهن لكي تنجبا أولاداً (تكوين ١٦: ٢ - ٣، ٣٠: ١ - ٤)، هذا التصرف يتفق مع عقود الزواج التي كانت تعقد في نوزي، والتي كانت تتضمن أحياناً بندا يلزم الزوجة العاقر بإعطاء جارتيها لزوجها. والصفقة الغربية الخاصة بنقل البكورية من عيسو إلى يعقوب مقابل طبيع عدس، لها هي الأخرى، أساس واقعي في عقود المساومة، التي يتضمن أحدها بيع حق البكورية للأخ الصغير مقابل ثلاثة كباش.

وهذه النماذج الواردة في التوراة وغيرها عن طبائع الحياة الموصوفة في التوراة، والتي بدت شاذة واستخدمها بعض دارسي العهد القديم ذريعة لمهاجمة السلوك الخلقى المنحط في أسرة الأباء، هذه النماذج، هي بالفعل على ضوء ما كشفت عنه الوثائق التاريخية، كانت جزءاً من نظام الحياة الذي كان شائعاً بين شعوب الشرق القديم.

بنو إسرائيل في مصر

ليس هناك حدث من بين الأحداث التي يرويها العهد القديم حدث يمكن ان نعتبره لغزاً كاملاً مثل قضية إقامة بني إسرائيل في مصر وقضية الخروج من مصر. فبالرغم من ان قضية خروج بني إسرائيل من مصر هي حدث من الأحداث الرئيسية في التاريخ الاسرائيلي القديم، وبالرغم من إنها وصفت بالتفصيل في «المقرا» (العهد القديم) فإن الباحثين على اختلاف مناهجهم لم يتفقوا حتى اليوم على رأى مقبول لا بالنسبة للحدث نفسه، ولا بالنسبة لخط سير عملية الخروج، ولا حتى بالنسبة لمكان العبور في البحر الأحمر او «بحر سوف» كما يسمى في العهد القديم، لأنه لم يتم العثور حتى الآن على براهين أثرية او وثائقية تؤكد وقوع مثل هذا الحدث. وبالرغم من أن بعض الباحثين قد حاولوا العثور على وثائق أو براهين، إلا أن هذه الوثائق أو البراهين ليس فقط أنها لم تكشف عن غموض الحدث، بل إنها خلقت تناقضات جديدة لم يستطيعوا تفسيرها.

وبالنسبة لموضوع خروج بني إسرائيل من مصر ينبغي أن نميز بين ثلاث نقاط أساسية يرتبط كل منها بالآخر وهي:

- (١) إقامة بني إسرائيل في مصر.
- (٢) تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر.
- (٣) نقطة الخروج من مصر، أو موقع أرض جاسان.

وبالرغم من أنه ليست لدينا أية معرفة، أيا كانت، فيما عدا تلك الواردة في التوراة، عن نزول بني إسرائيل من أرض كنعان إلى مصر، وإقامتهم في أرض جاسان وخروجهم منها بعد ذلك إلى أرض كنعان، فإن ماتقصه المرويات الشفهية المتوارثة في هذا الموضوع، في خطوط عامة أحيانا وبالتفصيل أحيانا أخرى، يثير أمامنا أحداثاً تاريخية ترجع إلى الألف الثاني قبل الميلاد، وهي أحداث لها أساس وجذور في المصادر المصرية بالقدر الذي

يدعم هذه المرويات من الناحية الخاصة بدراسة رموز «المقرا». إن مسألة استيطان بنى إسرائيل فى أرض جاسان والظهور المريب ليوسف فى بلاط فرعون إلى أن عين مساعدا للملك (تك ٤١: ٤٠ - ٤٥ ، ٨: ٤٥) «وجعلنى أبا لفرعون وسيداً لكل بيته ومتسلطاً على كل أرض مصر»، يرى كثيرون من الباحثين أنها قد حدثت خلال حكم الهكسوس لمصر (خلال السنوات ١٧٢٠ - ١٥٧٠ ق.م)، حيث كانت عاصمتهم هى صوعن التى فى الدلتا الشرقية، أى فى أرض جاسان، وكانوا قوما من الساميين، وظهر منهم حكاماً ساميون قادوا مملكتهم (الأسر الخامسة عشرة والسادسة عشرة)، مثل يعقبر، وعنتهر، وحين وحمودى. وقد ربط بعض الأدباء الأغريقين وعلى رأسهم مانيتو، والذى وصلت كتاباته إلينا عن طريق يوسف بن متتياهو، بشكل غامض بعض الشئ، بين احتلال الهكسوس لمصر وطردهم من مصر، وبين ظهور بنى إسرائيل فى مصر وخروجهم منها فى زمن موسى (قارن أيضاً الإشارة إلى تأسيس عاصمة الهكسوس وتحديد مدى السنين حسب هذا الحدث حسبما هو وارد فى سفر (العدد ٢٢: ١٣)، «وبنيت حبرون قبل صوعن مصر بسبع سنوات». لكن لا يوجد فى المرويات «المقراية» أى دليل على علاقة من هذا النوع بالذات، وذلك لأنها لا تستقيم مع التحديد الزمنى لمسألة الخروج من مصر. كذلك فإن الجو المصرى الأصيل فى حد ذاته، والذى يلوح فى سياق قصص يوسف، يدل على زمن أكثر تأخراً.

إن نزوح بنى إسرائيل إلى مصر يمكن ان نربطه بشكل عام فقط، بتلك الحركة الدائمة للعناصر السامية الغربية من أرض كنعان إلى أرض النيل، وهى الحركة التى بدأت فى نهاية الألف الثالثة ق.م، وكان من بينهم من وصل فى بعض الأحيان إلى مركز ممتاز فى حياة الدولة. والدخول السامى، على شكل جماعات صغيرة أو كبيرة، كان يتم أساساً بالطرق السلمية، وذلك لدوافع تجارية، حسبما تشير إلى ذلك، على سبيل المثال، وليمة التجار الموصوفة فى النقوش المعروفة فى القبر المصرى القديم فى بنى حسن فى

مصر الوسطى، أو بسبب القحط والجوع الذى كان يعم ارض كنعان، أو بسبب بيعهم إلى المدينيين عبيداً، وهى ظروف ورد معظمها بشكل أو بآخر بوضوح فى سياق قصص الآباء.

ومن هذه الناحية، تلقى بعض الوثائق المصرية ضوءاً حياً أيضاً، وذلك مثل قائمة العبيد فى ضيعة أحد الأشراف المصريين التى ترجع إلى القرن الثامن عشر ق.م، أى قبل أيام الهكسوس، ومعظم هؤلاء لهم أسماء سامية غربية واضحة، وهى الحقيقة التى تذكرنا على الفور بمركز يوسف فى منزل فوطيفار. وفى قائمة أخرى ترجع إلى منتصف القرن الخامس عشر ق.م ورد ذكر أشراف من ارض كنعان (المقصود مدن مثل مجيدو، وحاصور وأشقلون)، من الموجدين فى بلاط فرعون للحصول على المحصول والعطايا، مثلما حدث عندما جاء أبناء يعقوب إلى مصر هرباً من القحط والجفاف. وتشير القصص بصفة خاصة إلى نزوح أبناء يعقوب، وكذلك أسرة إبراهيم وإسحق إلى مصر بسبب الجوع الذى ساد كنعان، وهو ما يتفق مع البيان الذى أبلغه قائد حدود مصرى إلى فرعون بشأن مرور قبيلة من الجائلين من جنوب فلسطين إلى الدلتا الشرقية.

وهناك دليل غير مباشر عن وجود بنى إسرائيل فى مصر يمكن أن نعثر عليه فى وجود مجموعات من الأشخاص فى مصر ممن يسمون «العابيرو» وهى المجموعات التى ورد إسمها فى وثائق ترجع من منتصف القرن الخامس عشر ق.م حتى منتصف القرن الثانى عشر ق.م. وليس هناك شك فى أن الاسم «عابيرو» باللغة المصرية هو الاسم «خبيرو» الشائع الاستعمال فى الوثائق الأكادية لمدة حوالى ألف سنة، اعتباراً من نهاية الألف الثالثة ق.م، مثل وثائق نوزى وفى رسائل تل العمارنة. وهذه الاصطلاحات لها بالطبع صلة بالاسم «عبرى» والتى يرى بعض الباحثين أن هناك تشابهاً بينها من حيث اللغة والمضمون بشكل مطلق، بينما يرى البعض الآخر أن هناك مجرد تقارب موضوعى أولى فقط، بينما هناك من يرفض هذا تماماً. ومن هذا

التنوع الواسع فى تفسير ظهور «الخبير»، من حيث الزمان والمكان، من بابل فى الجنوب حتى الأناضول فى الشمال وفلسطين فى الغرب، وفى معظم أسماء الأعلام عندهم والتي اشتق معظمها من لغات مختلفة تماماً، من كل هذا، يمكن ان نستنتج أننا لسنا أمام شعب أو مجموعة عرقية قومية، بل أمام اصطلاح ذو مغزى إجتماعى، يختلف الباحثون حول تحديده بدقة.

وقد اتضح أن المقصود غالباً بهؤلاء «الخبير» طبقة اجتماعية ذات مرتبة منخفضة، لم تكن ضمن الإطار الإجتماعى العادى، وذلك على غرار اليهودين فى التوراة، وذلك إما لأنها كانت تضم عناصر أجنبية عن المكان الذى كانت تقيم فيه أو لأسباب أخرى غير معلومة.

وإذا كانت هناك علاقة بين الاصطلاح المذكور وكلمة «عبرى»، إذن فإن هذا الاصطلاح كان فى الأصل اصطلاحاً ذو مغزى طبقى. وتتناسب وجهة النظر هذه مع الاصطلاح الإجتماعى القانونى «عبد عبرى» (خروج ٢١: ٢)، ومع بعض التسميات مثل «إبراهيم العبرى» (تكوين ١٤: ١٣)، الذى كان غريباً فى أرض كنعان وليست له الحقوق الكاملة للمواطن، وبصفة خاصة مع المكانة المنخفضة التى كان يحظى بها بنو إسرائيل فى مصر، حيث كانوا مستعبدين لفرعون وخاضعين لسلطوته، وذلك حسبما تقول التوراة: «كنتم غرباء فى أرض مصر».

ويسبب هذه الظروف التاريخية ربما التصق بنو إسرائيل كجماعة بالاصطلاح «عبرى»، ولكنه تحول فى التوراة إلى اصطلاح ذو طابع عرقى واضح. والتسمية «عبريون»، من أجل الإشارة إلى التبعية القومية لبني إسرائيل، هى تسمية قاصرة على مجموعة قصص يوسف وموسى، وعلى قضية الصراع مع الفلسطينيين، كما انه ظل قاصراً كذلك على موقف الصدام بين بني إسرائيل والأجانب (وبالذات ضد المصريين والكنعانيين والفلسطينيين).

ولا يمكن بالطبع أن نبني استنتاجات على أساس الجد الأكبر «عابر» الذى اشتق اسمه بالطبع عن الاصطلاح «عبرى» والذى أضيف إليه فيما بعد تفسيراً جغرافياً من كلمة «عبر النهر»، وذلك لأن التسمية «عبرى» تستعمل بالفعل فى العهد القديم للإشارة إلى إطار أوسع من شعب إسرائيل بمفرده. وفى مقابل هذا فإن التسمية «عبيرو» باللغة المصرية، والتى يمكن أن تشمل بنى إسرائيل، كانت شاملة وتنطبق على عمال السخرة الأجانب الذين عملوا فى مصر بشتى أنواعهم والذين كان معظمهم ساميين من أرض كنعان.

وبالرغم من كل الشكوك حول ما إذا كان المقصود بهذا هم بنى إسرائيل حقيقة، فإن هناك اهتماماً كبيراً برسالة قائد مصرى تعود لفترة فرعون رمسيس الثانى بشأن تزويد العبيرو بالغذاء: «وزع حصص الحبوب على الجنود والعبيرو الذين يسحبون الحجارة إلى معبد رمسيس». والمقصود بذلك أولئك الأشخاص الذين يعملون الأعمال الشاقة فى إقامة المعبد، حسبما يبدو، فى مدينة رمسيس، وهى الحقيقة التى تشير على الفور ماهو وارد فى التوراة عن بنى إسرائيل: «ووضعوا عليه رؤساء تسخير لكى يذلوهم بآثقالهم. فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ور عمسيس» (خروج ١: ١١).

وتبدو هذه المعلومات متسقة مع ماهو وارد عن أعمال الفراعنة الأوائل فى الأسرة المصرية التاسعة عشر. الذين نقلوا لأسباب تتعلق بسياساتهم الخارجية، التى كانت موجهة نحو كنعان، مراكز حكمهم إلى شرق الدلتا، إلى منطقة أرض جاسان، وهى «أرض رعمسيس»، وهى التسمية التى أطلقت عليها نسبة إلى رعمسيس فى قصة يوسف (تكوين ٤٧: ١١)، أو «حقل صوعن» «قدام آبائهم صنع أعجوبة فى أرض بلاد صوعن» (المزامير ٧٨: ١٢) حيث تميز رعمسيس الثانى، بصفة خاصة، بأعمال البناء الواسعة وذلك خلال مدة حكمه الطويلة (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م). وأقام على غرار أبيه سيتى الأول،

عاصمة مصرية جديدة وأسمائها باسمه «مابيت رعمسيس محب الإله آمون»، كما قام كذلك بتعمير المناطق التي تحافظ على مداخل شبه جزيرة سيناء، فأقام مدينة باسم «برأتوم» «بيت الإله أتوم» (هى حسبما يبدو، تل الرطابة) وهاتين المدينتين ليستا إلا فيثوم ور عمسيس اللتان وردتا فى التوراة.

وعلى هذا الأساس، يمكن اعتبار أن ر عمسيس الثانى هو الفرعون الذى تم استعباد بنى إسرائيل فى مصر، وربما خرجوا أيضاً فى عصره من مصر. وإذا أعطينا أهمية تاريخية للمعلومة الواردة فى سفر الخروج والإصحاح الثانى الآية ٣٣ بشأن موت فرعون الاستعباد، فإن بنى إسرائيل يكونوا قد خرجوا من مصر فى عهد ابنه مرنبتاح، وتؤيد هذا الافتراض قائمة انتصار الفرعون مرنبتاح والتي ترجع إلى السنة الخامسة لتوليه الحكم (عام ١٢٢٠ ق.م تقريباً)، وفقاً لها انزل هزيمة بإسرائيل، والمقصود بذلك بالطبع تلك المعارك التى دارت رحاها فى كنعان وليس فى شبه جزيرة سيناء حسبما يعتقد بعض الباحثين، حيث أن هذه المعلومات وردت مع الإشارة إلى إحتلال اشقلون وجيزر وبنو عام جنوب طبرية. وليس معروفاً بوضوح ماهو الإطار المقصود به اصطلاح «إسرائيل» الوارد فى هذه المصدر الخارجى لأول مرة - هل يشمل إسرائيل أم يشمل عدة قبائل فقط إم أن المقصود هو شعب وليس بلد، وعلى أى الحالات فإن ماهو وارد عن إسرائيل هو دليل على أن قبائل إسرائيل لم تكن قد عبرت بعد من اجل الاستيطان الدائم فى فلسطين. وعلى أية حال، يمكن أن نستنتج من كل هذه المعطيات أن قضية الخروج من مصر واحتلال ارض كنعان، أو على الأقل المرحلة الرئيسية من هذه الأحداث، قد حدثت فى القرن ١٣ ق.م وانتهت فى الربيع الأخير من هذا القرن.

وهذا الاستنتاج الزمنى تعززه أدلة أخرى، قد يكون لها ما يبررها فى التوراة، فحسبما هو وارد فى التقويم الزمنى فى سفر الملوك الأول ١:٦، حدث الخروج من مصر قبل تأسيس هيكل سليمان ب

٤٨٠ سنة (عام ٩٧٠ ق.م تقريباً). وهذا الرقم بالطبع ليس دقيقاً لأن المقصود به وهو ١٢ جيلاً وذلك على اعتبار أن الجيل هو ٤٠ عاماً وفق تحديد التوراة. ولكن إذا اعتبرنا أن الجيل هو ٢٥ سنة، فإن المقصود يكون ثلاثمائة عام $12 \times 25 = 300$ عام. وبموجب هذا يكون الخروج من مصر قد حدث في النصف الأول من القرن الثالث عشر ق.م. ويمكن التوصل إلى هذا التحديد الزمني على أساس ملاحظة القاضي يفتاح ملك بن عمون (القضاة ١١: ٢٦) بشأن تواجد الاستيطان الإسرائيلي في شرق الأردن لمدة ثلاثمائة عام حتى أيامه، أي حتى الربع الأول من القرن الحادي عشر ق.م. وإذا طبقنا عدد السنوات وفق حساب الأجيال السابقة، فإن الرقم يحذف منه مائة وثمانين عاماً بالتقريب، وتكون بداية الاستيطان الإسرائيلي في شرق الأردن هي النصف الأول من القرن الثالث عشر ق.م.

الخروج من مصر وجبل سيناء:

يرجع عدم وجود أي نبأ صريح خارج إطار التوراة عن قصة الخروج من مصر واحتلال فلسطين إلى حقيقة أن هذه الأحداث لم تكن ذات وزن دولي، تجعل الشعوب تسجيلها في مصادرها.

ولكن المرويات الشفهية بشأن خلاص شعب إسرائيل من «بيت العبودية» ورحلة صحراء سيناء إلى أرض المعية، هي حجر الأساس في العقيدة الإسرائيلية، وليس في أسفار التوراة والأسفار التاريخية فقط، بل أيضاً في فكر الأنبياء (مثل هوشع ١: ١، وعاموس ٧: ٩، وإرميا ٦: ٢)، ولدى شعراء المزامير (مثل المزمور ٨٧: ١٢ - ١٣، ٩١: ٦).

وقصص الخروج من مصر والتيه في صحراء سيناء هي قصص يلفها بالفعل رداء من الشعر الشعبي والعديد من أعمال المعجزات، ولكنها مع هذا لا تفتقد إلى بعض الخطوط التاريخية التي تعززها بعض المعلومات الواردة في المصادر المصرية. ويتضح هذا من خلال يوميات القادة المصريين الذين

كانوا على الحدود مصر وشبه جزيرة سيناء فى مطلع القرن الثالث عشر ق.م والذين كانوا موكلين بالأشراف الدقيق على حدود وكان العبور فى كلا الاتجاهين مرهونا بالحصول على تصريح من السلطة المصرية. وتتضح هذه الحقيقة بشكل زائد على ضوء عمليات التردد المتعددة التى كان يقوم بها موسى وهارون إلى فرعون للسماح بخروج بنى إسرائيل. ولكن هروب بنى إسرائيل من مصر، بعد أن رفض طلبهم، توقيته بساعات الليل، هذا الهروب له ما يماثله فى الوثائق، مثل القصة المعروفة. للاجئ المصرى شنهات فى فترة الأسيرة المصرية الثانية عشرة، الذى عبر الحدود فى الظلام فى طريقة إلى سيناء وكنعان، ورسالة قائد مدينة ثاكو، (هى، فيما يبدو، سوكوت التى تقع فى أرض جاسان المجاورة للحدود، والمذكورة فى بداية رحلة بنى إسرائيل)، بشأن هرب عبيدين إلى سيناء فيما وراء تحصينات الحدود التى تقع شمال مدينة مجدل (المذكورة فى الأخرى فى قصة الخروج من مصر)، وإرسال حملة عسكرية من حرس الحدود فى أعقابهم من أجل إعادتهم (بردية أناستاسى الخامس نهاية القرن الثالث عشر ق.م)، هذه الرسالة تعتبر دليلاً دامغاً. ويتضح من هذا، أن تحصينات الحدود المصرية كان من بين أهدافها منع هروب العبيد المصريين، ولكن يبدو أن هذا الحاجز لم يكن على الدوام ذو كفاءة كافية، حيث تشير المصادر المصرية إلى هرب الأفراد وقصة الخروج من مصر لستمائة ألف من بنى إسرائيل المسلحين بعائلاتهم (بشأن الرقم المبالغ فيه سنتحدث فيما بعد).

وبالنسبة لرحلة بنى إسرائيل من مصر يبدو مقنعاً ذلك الزعم بأنهم لم يخرجوا فى طريقهم إلى البلاد عبر الطريق الاقصر «لم يهدم الرب فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة، لأن الرب قال حتى لا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر» (الخروج ١٣: ١٧). هذه القصة تبدو مفتقدة للمصداقية على أساس الواقع فى تلك الأيام، لأن طريق أرض الفلسطينيين الممتدة على طول شاطئ البحر المتوسط كانت جزءاً من طريق

دولى، حصنه الفرعون سیتی الأول حوالى ١٢٠٠ ق.م بشبكة من الحصون، وهو الأمر الذى كان من شأنه أن يؤدي إلى فشل بنى إسرائيل . وبناء على ذلك فإن رحلة بنى إسرائيل قد سارت فى طرق ملتوية ومعقدة، وبالرغم من قوائم المحطات التفصيلية الواردة فى سفر الخروج وسفر العدد، فإنه لا يمكن إستعادة طريق تيههم، لأن الغالبية العظمى من هذه المحطات كانت مجرد مواقع مؤقتة لا يمكن التعرف عليها بدقة. وينطبق إنعدام المصادقية كذلك على تحديد موقع «بحر سوف» وجبل سيناء الذين يرى المفسرون القدامى أن موقعهما ينبغى أن يكون فى الجنوب، الأول فى خليج السويس، أو فى إحدى البحيرات المرة، أو فى خليج إيلات، والثانى فى جبل موسى الذى يقع جنوب شبه جزيرة سيناء. وفى مقابل هذا يفترض كثيرون من الباحثين الجدد، أنه لابد من نقل هذه المواقع إلى الشمال: بحر سوف إلى بحيرة البردويل، المتفرعة من البحر المتوسط، ذات المياه الراكدة والقابلة فى بعض مواقعها لعبور الأشخاص، وحيث يتواجد العابرون فى مجرى الطرف الفاصل بين هذا الفرع والبحر المتوسط بين بحر مياه من هنا ومن هناك (راجع سفر الخروج ١٤: ٢٩)، وجبل سيناء فى إحدى التلال الواقعة شرق قادش برنيع. وبالفعل، فإن المعطيات الجغرافية القليلة، بقدر ما يمكن التعرف عليها، فيها ما يمكن أن يعزز الرأى الخاص بأن طريق الرحلة الشمالية وكذلك خط الرحلة قد حدث عن طريق الالتفاف الواسع فى الجنوب. وتشير إلى الطريق الشمالى المواقع المذكورة فى بداية رحلة بنى إسرائيل، أى مجدل وفم الحيروث وبعل صفون (الخروج ١٤: ٢) الذى كان موقعا مقدساً للنازلون عند البحر منذ العصور القديمة حتى العصور الكلاسيكية، ولكن من ناحية أخرى تدل عدة مصادر عن وجود بحر سوف فى خليج إيلات. وعلى أية حال، فإن المحطة الرئيسية فى رحلة تيه بنى إسرائيل كانت فى الواحة الصحراوية الهامة قادش برنيع، التى تقع فى تل قديرات فى شبه جزيرة سيناء الغربية الشمالية، بجوار عين مياه متدفقه كانت كافية بمداد الاسباط «أياماً كثيرة» (التثنية ١: ٤٦).

وبالرغم من كل الغموض الذى يلف قضية الخروج من مصر ودخول أرض كنعان، فإن هذه الاحداث فى حد ذاتها تتشابك مع ظروف العصر وتتناسب مع المشهد التاريخى لتلك الفترة وتبلور جماعات إثنية وتقرير مصيرها الذاتى فى كيانات قومية تسعى إلى تحقيق إطار إقليمى سياسى. لقد قامت فى تلك الفترة الزمنية تقريباً دول أدوم وموآب وعمون التى إنتظمت فى ممالك، على خلاف إسرائيل، فى المرحلة الاقدم. ويوجد التعبير الأعلى لتبلور إسرائيل من «انتماء عبرى» إلى شعب حقيقى فى الثورة الدينية التى ينطوى عليها موقف جبل سيناء، الذى نظرت إليه الدراسات النقدية الحديثة للعهد القديم بإعتباره مرويّات تختلف عن البلورة الادبية لقضية الخروج من مصر، وترى أنهما تضافرتا فى نسيج واحد فى اجيال متأخرة. وعلى أى حال، فإن المرويّات المقرائية تربط الثورة الفكرية الجديدة بشخصية موسى المدهشة الذى ينتمى إلى سبط لاوى، والذى حافظ والوعى اليهودى على ذكره بإعتباره سيد الانبياء، والمشرع والقاضى والقائد العسكرى والسياسى، والزعيم «الكاريزمى» لخروج شعب إسرائيل من العبودية إلى الحرية، والذى رأى خالقه أكثر من أى مخلوق آخر وحظى بتلقى التوراه لشعبه والعالم فى مشهد جبل سيناء. وينطوى هذا التحول الدينى على تجلى الروح القدس لموسى، والذى تطابق التقاليد المقرائية المختلفة بينه وبين إله الآباء: «أنا الرب أبىك، إله إبراهيم، وإله اسحق، وإله يعقوب» (الخروج ٣: ٦) «وأنا ظهرت لابراهيم واسحق ويعقوب بأنى الإله القادر على كل شئ. وأما بإسمى يهوه قلم أعرف عندهم» (الخروج ٦: ٣).

وقد حدث تخبط بين الباحثين حول تفسير اسم الرب ويصفه خاصة حول مصدره، وهناك من خمنوا أن مصدره هو المصطلحات الدينية القديمة للقبيلة العبرية. ولذلك فإننا نشاهد اليوم ، أسماء شخصيات مختلفة فى وثائق مارى. ولكن مايثير الدهشة، أنه لا توجد بالذات فى العبرية أسماء مركبة من الاسم «ياهو» حتى فترة يوخيفد، أم موسى. ومن ناحية أخرى، هناك

الفرضية المديانية القينية بشأن أصل الإله يهوه، التي تعتمد على أن مكان تجلى الإله لموسى هو جبل سيناء، والذي كان في منطقة مجال تحركات المديانيين، وكذلك أيضاً الدور، الفريد من نوعه، الذي تنسبه التقاليد المقرائية ليثرو، كاهن مديان، صهر موسى، فى اتباعه نظم القضاء بين شعب إسرائيل (الخروج ١٨). ويمكن حالياً أن نجد تعزيزاً آخر لهذا التخمين في وجود منطقة من البلاد باسم «أرض الشوسيين ياهوا»، وردت فى نقوش الفرعون أمنحتب الثالث قبل موسى بعدة أجيال، والفرعون رمسيس الثانى، بخصوص منطقة سيناء وأرض سعين، الواردة فى «المقرا» خارج نطاق قضية الخروج من مصر باعتبارها منطقة ظهور الرب (التثنية ٣٣: ٢، القضاة ٥: ٤، حبقوق ٣: ٢، والمزامير ٩: ٦٨). ولكن، ليكن مصدر الألوهية كيفما يكون، ويكفى إنها تحسم التحول الدينى الموضوعى الجديد، ووجهة النظر التوحيدية، والتي تعتبر بمثابة إرهاب إسرائيلى أصيل، لم تتم إستعارته من العالم الوثنى. فعلى خلاف إله الآباء الأسرى والمتوحد، فى الغالب، أى عبادة إله واحد مع وجود آلهة أخرى إلى جواره، فإن عقيدة التوحيد الخاصة بيهوه تركز على وجهة نظر قطبية لإله عالمى وكونى من ناحية، وذات تعبيرات وأهداف قومية واضحة. من ناحية أخرى. كذلك فإن العهد بين الرب وبين الشعب لا يقتصر هذه المرة على هدف الشعب المختار فحسب، بل يشتمل على بشرى أخلاقية إجتماعية وصلت إلى ذروتها بإعطاء الوصايا العشر. ويبدو أن ديانة التوحيد لم تكن ثمرة فكر ثيولوجى متأخر، وفقاً لوجهة النظر المطلقة الخاصة بالدراسات النقدية للعهد القديم، بل هى، وفقاً لرأى حزقيال كويغمان، كانت عاملاً تاريخياً وإجتماعياً حاسماً، عمل منذ بداية ظهور إسرائيل كشعب وظل حياً فى وعى الأسباط لدى إحتلالهم لهذه البلاد، وهنا يكمن المغزى الحقيقى للخروج من مصر ومشهد جبل سيناء.

احتلال ارض كنعان والاستيطان فيها

الاحتلال فى رواية العهد القديم:

ننتقل مع قضية احتلال ارض كنعان واستيطان أسباط إسرائيل فيها من مرحلة ما قبل التاريخ القديم إلى مرحلة بداية التاريخ. إن الرواية «الرسمية» و «القانونية» فى العهد القديم، بشأن احتلال ارض كنعان واستيطان أسباط إسرائيل فيها هى رواية قاطعة: ارض كنعان تم احتلالها من على جانبى نهر الأردن فى عملية عسكرية قصيرة نسبياً، بينما الأسباط الاثنا عشر يعملون متضامنين تحت زعامة موسى وخليفته يشوع. وقد تم استيطان الأسباط أيضاً بعملية بسيطة من أساسها ومن خلال تقسيم معد سلفاً لأقسام الأرض المحتلة. لقد حصلت أسباط شرق الأردن على أنصبتها من موسى نفسه (العدد ٣٢؛ يشوع ٩: ١٣ فصاعداً) بينما حصلت بقية الأسباط على أنصبتها من يشوع حيث حصلت سبعة منهم على المناطق الخاصة بها عن طريق القرعة (يشوع: ١٨).

وصورة الاحتلال القومى الإسرائيلى الشامل والموحد، والتي تعرض فى تتابع، وحسبما يعرضها العهد القديم، تناسب الرؤية الزعامية فى عصر متأخر من مجمل تاريخ إسرائيل القديم. وفى حقيقة الأمر كان الواقع التاريخى معقداً بلا حدود. لقد جمعت عمليات احتلال مختلفة ومراحل تاريخية معقدة فى الرواية الإسرائيلىة المتأخرة فى ملحمة قومية كبيرة، تضع فى مركز الأحداث شخصيتى الزعيمين موسى ويشوع، على نحو ما يحدث فى أى عرض تاريخى للشعوب الأخرى بالنسبة لأبطالها القوميين المشهورين. وعلى أية حال، فإن المصادر المقرائية لهذه القضية، والتي تتركز فى معظمها فى سفر يشوع وبعض منها فى سفر العدد، من ناحية، وفى سفر القضاة الإصحاح الأول، من ناحية أخرى، ومهما كانت أرائنا بشأن صورة صياغتها وزمن تأليفها، هذه المصادر تعرض علينا أساساً تاريخاً شاملاً، إلى حد ما،

يحتوى على مايمكن أن يستخدم كأ ساس لاستعادة تسلسل الأحداث، فى الوقت الذى نجد فيه أن اتجاه استعادة الأحداث عند إحدى المدارس يختلف تماماً عن المدرسة الأخرى، وليس ذلك فحسب، بل إن أتباع وجهة النظر الشاملة يختلفون هم الآخرون تجاه تفاصيلها.

وفى الحقيقة، فإنه بالرغم من تدوين الرواية المقرائية فى أجيال متأخرة، وبناءً على اتجاهات تاريخية مختلفة، فإننا لا نستطيع المبالغة إلى حد الرفض الكامل للموثوقية التاريخية والكفر الكامل بالاحتلال العسكرى لأرض كنعان بواسطة بنى إسرائيل، مثلما اتجهت إلى ذلك بعض الدراسات. إن الرأى الشائع بين هذا النوع من الدراسات، والذى تزعمته مدرسة ألت - نوط، والتى تفترض أن الدخول إلى أرض كنعان قد تم منذ البداية بالطريق السلمى، هذا الرأى يقرب الرواية المقرائية رأساً على عقب، حيث أنها تنظر إلى الاستيلاء على مدن كنعان، (إذا كان هذا العمل قد قام به أصلاً بنو إسرائيل وليست شعوب أخرى)، باعتباره حلقة أخيرة فى عملية متواصلة من التسلسل الهادئ لأسباط بنى إسرائيل إلى داخل أرض كنعان على طريقة دورات البرى الموسمية.

وعلى أى الحالات، فإننا يجب ان نعترف بأن الوصف المجرد والهادف، والذى تجلى فى الرواية «الرسمية» للاحتلال والاستيطان، لم يستطع الصمود فى وجه النقد، لأن مصادر التوراة مليئة بالفجوات الهائلة، وأيضاً بالمتناقضات، التى ستتعرض لبعض منها.

لقد ذكرنا فى المقدمة، أنه قد ظهر من بين سطور الرويات المدونة الاتجاه الخاص بتدوين موسى ويشوع بتاج الأعمال البطولية وعمليات الاحتلال التى تعود إلى فترات مختلفة، والتى قامت بها أسباط أو جماعات. وعلى هذا النحو تم وصف احتلال شرق الأردن على يد موسى ومجموعة إسرائيل فى سفر العدد الإصحاح الحادى والعشرون، بينما تطل فى

الإصحاح ٣٢، الفقرات ٤٠ - ٤٣ قضايا احتلال منفصلة لأبناء مكير بن منشة وليائير الذى اعتبر هو الآخر إبناً لمنشة، ولنوبح، الذى يمثل مجموعة سبطية غير معروفة. ونفس الأمر بالنسبة ليشوع الذى نسبت له الرواية الرسمية عمليات احتلال حبرون وديبر، التى هى «قريات - سيفر» (يشوع ١٠: ٣٦ - ٣٩)، بينما نفهم من مقتطفات أخرى أن الذين سيطروا على هذه المناطق هم كالب وقناز الذين تم ضمهما بعد ذلك إلى سبط يهوذا (يشوع ١٥: ١٣ - ١٩؛ والقضاة ١: ١٠ - ١٦).

ويبرز اتجاه العهد القديم لتتويج يشوع بالانتصار على معظم كنعان بصفة خاصة فى قائمة ملوك كنعان الإحدى والثلاثين المهزومين، والواردة فى سفر يشوع الإصحاح الثانى عشر. وفى مقابل مدن كثيرة ثم وصف احتلالها فى قصة حملات يشوع، لا نجد أى ذكر فى حروبه للاستيلاء على مدن أخرى وردت فى هذه القائمة، مثل عدو لام فى السهل، وتفوح، وحيفر، وترصة فى الجبل الأوسط، وتعنك، ومجيدو فى وادى يزرعئيل. وبيت ايل، التى ترد فى القائمة، ثم احتلالها بناءً على رواية أخرى «بعد موت يشوع» وعلى يد أسباط يوسف فقط (القضاة ١: ٢٢ - ٢٦).

وتظهر العقدة الكامنة فى الشهادة المقرائية بشكل أوضح حينما نفحص بطريقة منطقية مصير عدد من المدن مثل القدس وحرمة وحاصور، حيث وردت هذه المدن الثلاثة فى قائمة ملوك كنعان الذين هزمهم يشوع. لقد وردت بشأن الحرب ضد حرمة (تل المالح، شرق بئر سبع) معلومات متناقضة فى العهد القديم، حيث أنه، حسب إحدى الروايات، انتهت جملة عمليات الاحتلال التى قام بها بنو إسرائيل الذين حاولوا اقتحام أرض كنعان فى أيام موسى من الجنوب بالفشل الذريع (العدد ١٤: ٤٠ - ٤٥، التثنية ١: ٤٤)، وحسب رواية أخرى توجت بالنجاح (العدد ٢١: ١ - ٣)، بينما ترد رواية ثالثة تنسب احتلال حرمة إلى أيام مابعد موسى ويشوع وتنسبها إلى سبط يهوذا

وشمعون فقط (القضاة ١ : ١٧). وتبرز القصص الكثيرة بصفة خاصة، والتي تناقض بعضها مع بعضها، فيما هو وارد بشأن أورشليم في أيام الاحتلال والاستيطان. فحسب واحدة من هذه الروايات، ترأس أدوني صادق، ملك أورشليم حلفا من ملوك الامورى ضد يشوع في صبعون ومنى بالهزيمة، ولكن مدينته لم تحتل (يشوع ١٠ : ١ فصاعدا وقارن هذا بيشوع ١٢ : ١٠).

وحسب رواية أخرى، نجد أن بنى يهودا الذين قاموا بعد موت يشوع بجملة احتلالات في جبل إفرائيم متجهين إلى الجنوب، يحتلون أورشليم في طريقهم ويحرقونها (القضاة ١ : ٨). ورواية أخرى مختلفة تقول، أن بنو يهودا لم يستطيعوا أن يرثوا المقيمين في أورشليم «أما الليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهودا على طردهم فسكن الليبوسيون مع بنى يهودا في أورشليم إلى هذا اليوم» (يشوع ١٥ : ٦٣). وهناك رواية أخرى تدور حول بنى بنيامين وليس عن سبط يهودا (القضاة ١ : ٢١). وأما في قصة محظية جبعة، فإنها ترد باعتبارها مدينة يبوسية غربية: «لا نميل إلى مدينة غربية حيث ليس أحد من بنى إسرائيل هنا» (القضاة ١٩ : ١٢). والواقع أن بنى إسرائيل لم يحتلوا أورشليم إلا في عصر داود.

وإذا كنا استعرضنا حتى الآن بعض الصعوبات المتصلة بعمليات احتلال بعض المدن، فإن الأخطر من هذا عدة مرات هو اقتحام الصورة الشاملة سواء تلك الخاصة باحتلال شرق الأردن أو الخاصة باحتلال الضفة الغربية لنهر الأردن والواردة في الروايات الضالة. إن الرواية الرسمية بشأن حملات إسرائيل في الطرف الجنوبي من أرض كنعان وفي شرق الأردن تؤكد مرة أخرى، أن بنى إسرائيل اضطروا إلى الدوران حول أدوم ومؤاب وعمون، لأن هذه الممالك منعتهم من المرور الحر في داخل أراضيها. إذن، لقد وضع بنو إسرائيل أمام اختيار استخدام القوة أو الدوران حول مناطق واسعة لكي يصلوا إلى وسط شرق الأردن ومن هناك إلى فلسطين الغربية. وقد تم هذا

الاختيار استناد إلى المنهج التاريخي المقراني، بناءً على أمر من الرب بالآ
يحاربوا الشعوب التي كانت تمت لها بصلة القربى (العدد ٢٠: ١٤ - ٢١؛
٢١: ٤، ١١ - ٢٠؛ التثنية ١: ٢ - ٣، ٩: ١٣ - ١٩؛ وقارن أيضا القضاة:
١١ - ١٧ - ١٩).

وفي مقابل هذا يظهر التحليل الدقيق لقائمة المحطات في طريق
«حملات بني إسرائيل الذين خرجوا من أرض مصر» والواردة في سفر
العدد (٣٣: ٣٧ - ٤٩) أن الطريق مر من جبل هور «الذي في طرف أرض
أدوم حتي أبل شطيم في عربات مؤاب في قلب أرض أدوم ومؤاب». وفي هذا
المصدر لا نجد أي ذكر لمقاومة أدوم ومؤاب لمروء بني إسرائيل وللضدام
العسكري مع سيحون ملك الاموري. وبالنسبة للسيطرة على أرض كنعان
غرب نهر الأردن يشكل الإصحاح الأول في سفر القضاة رواية «ضالة»، سواء
نظرنا إليها باعتبارها رواية أخرى عن نفس عملية الاحتلال، أو سواء وردت
من أجل وصف استمرار تاريخ إسرائيل «بعد موت يشوع» حسبما ورد في
عنوان هذا الإصحاح. وقد تناولنا من قبل بعض التعقيدات التي يثيرها هذا
الإصحاح مثل ذكر احتلال اورشليم وحبرون ودبير وبيت إيل وحرمة. إن
الوارد في هذا الإصحاح يحكى من جديد عن احتلال لأقسام تم احتلالها في
أيام يشوع، وأيضاً في أيام موسى (احتلال حرمة)، وفي مقابل هذا ترد في
نهايته قائمة تفصيلية لمناطق كنعانية ظلت بمثابة «نويات وراثية» في تخوم
الأسباط المختلفة. ولكن المثير للدهشة حقاً، هو أنه في مواجهة ما هو وارد في
سفر يشوع، تظهر هنا عمليات احتلال بسيطة تمت بشكل منفرد ومنفصل.
وفي وسط هذه الاحتلالات يوجد سبط يهودا الذي يتحرك في حملة احتلالاته
من مدينة بازاق، وخربة ابزيك شمال شرق شكيم، جنوب القدس ونحو جبال
يهودا والسهل حتى حرمة محل حدود النقب. وينسب هنا أيضاً إلى يهودا
احتلال غزة وأشقلون وعقرون التي يرد ذكرها في رواية سفر يشوع في تخوم

«الأرض الباقية» (يشوع ١٣: ١ - ٦) خارج منطقة الدخول الإسرائيلية (نسخة الترجمة السبعينية القضاة ترفض احتلال مدن بلست). اذن فإن الإصحاح الأول من سفر القضاة يقدم صورة مختلفة تماماً عن سفر يشوع بشأن مراحل السيطرة على أرض كنعان الغربية، سواء في التفاصيل أو في الخطوط العامة.

وعلى هذا الأساس فإن نص الوثيقة المقرائية المعقدة، وعلى النحو الذي استعرضناه يحول بيننا وبين قبول التتابع السردى، على النحو الوارد في العهد القديم في أسفار العدد ويشوع والقضاة، كعرض تاريخي موثوق به وتسلسل تاريخي منطقي لعملية الاحتلال والاستيطان، وبناءً على ذلك لا يكون أمامنا من خيار إلا النظر إلى الروايات المختلفة، بما فيها من متناقضات وهمية أو حقيقية، باعتبارها مجرد روايات أدبية، ثمرة اتجاهات تدوين مختلفة لنفس القصص، أو نحاول ان نعثر فيها على وقائع لأحداث تاريخية معقدة ومتنوعة.

البرهان الأثرى

نظراً للطابع الإشكالى للرواية الشفوية، أو على وجه الدقة، للرواية المقرائية، اكتسبت الأدلة الخارجية قدراً من الأهمية فى إطار القضية المطروحة على بساط البحث، وقد تضمنت هذه الأدلة المصادر الابيغرافية والمكتشفات الاثرية. ولعل اهم هذه الادلة الخارجية التى تعد بالضرورة بمثابة نقطة محورية فى كل محاولة لاسترجاع صورة الغزو العبرانى، هو الايماء إلى إسرائيل فى النص التذكارى الذى يخلد انتصارات الفرعون مرنبتاح فى السنة الخامسة من حكمه، وفيه يفتخر بانتصاراته التى أحرزها فى أرض كنعان عام ١٢٣٠ ق.م تقريباً وفقاً لتقديرات المبكرين، أو ١٢٢٠ ق.م بناء على تقديرات المتأخرين. وتوجد بعض النقوش الأخرى التى لها ثمة علاقة بقضيتنا، حيث برزت بعض الكتابات المنسوبة للفراعنة سیتی الأول ورمسيس الثانى ومرنبتاح وذلك بالاضافة لكتابات أخرى سنوالى ذكرها تباعاً. أما الآن فسوف نركز على اسهامات المادة الاثرية التى تم اكتشافها سواء فى تلال فلسطين أو الحفائر العلمية والاكتشافات التى تمت عن طريق المصادفة والدراسات الاثرية التى أجريت فى بقاع مختلفة. أما قضية التية فى صحراء التيه، ووادی العربا وجنوب شرقى نهر الأردن فقد ارتبطت بالنتيجة المتخلفة عن الدراسات الاثرية التى أجراها ن. جليك فى هذه البقاع اعتباراً من ثلاثينيات القرن العشرين، إذ تبين أنه بعد دمار الاستيطان الثابت فى شرق الاردن جنوبى اليرموك فى القرن الـ ١٩ ق.م ظلت المنطقة خربة (باستثناء بعض المناطق القليلة فحسب) مئات من السنين حتى عاد إليها السكان فى نهاية القرن الـ ١٤ ومطلع القرن الـ ١٣ ق.م. ويعنى ذلك انه يمكن إرجاع بداية ظهور مملكة الأدوميين ومملكة الموابين والعمونيين إلى النصف الأول من القرن الـ ١٣. ووفقاً لذلك أيضاً يمكن تحديد موعد حملات بنى إسرائيل التى وصلت إلينا فى روايتين متناقضتين كما ذكرنا سالفاً، الأولى تتحدث عن حملة داخل المناطق قبل تبلور مملكتى أدوم وموآب، وتحكى الأخرى عن

محاولة تطويق المملكتين وتروى عن محاولة ترمى إلى التسلسل إلى داخل حدودها لكنها منيت بالفشل بسبب منعتها. ويعول هذا الطرح في المقام الأول على اكتشاف شبكة هائلة من الحصون الحدودية التي تحيط بمملكة العمونيين من الغرب والجنوب ونجد أن بعضها مستطيل أو مربع الشكل (طراز القصر) أو بعضها دائري الشكل ويعرف بإسم (رجوم الملفوف). ويبدو أن هذه المنظومة من الحصون التي شيدت في العصر الحديدي الأول هي المقصودة في النص المقرائي عندما دار الحديث عن فشل بنى إسرائيل في الاستيلاء على هذه المنطقة «بسبب منعة حدود العمونيين» (عدد ٢١ : ٢٤).

وقد أجريت سلسلة من الدراسات غرب فلسطين على سلسلة من المواقع بجنوب ووسط وشمال البلاد كان النص المقرائي قد أشار إلى أن بنى إسرائيل قد احتلوها. ويمكن أن نجد في أغلب هذه الدراسات براهين ساطعة تؤيد النص المقرائي الذي يشير إلى حصار هذه المناطق في أواخر العصر البرونزي المتأخر. وعلى الرغم من ذلك، فإن نتائج الدراسات في كثير من الحالات تفجر العديد من العضلات. وتبرز حدة خطر هذه العضلات عندما يتعلق الأمر بمسألة احتلال «عاي»، حيث يحتل تصوير هذه العملية العسكرية موقعاً بارزاً في سفر يشوع (يشوع ٧ - ٨). وكان يجب تحديد موقع هذه المدينة في بيت أون الواقعة على بعد ٢ كم شرقي بيت إيل (يشوع ٧ : ٢) ويلاحظ أن إسمها شأنه شأن الاسم «عاي» يشير إلى مكان خرب. بيد أن الحفائر هناك أثبتت أن هذا الموقع كان خرباً قبل قدوم الغزاة من بنى إسرائيل بحوالى ١٠٠٠ عام، وإلى الآن لم يجد الباحثون إجابة شافية على هذه العضلة التي حاول البعض تجاوزها بأساليب وطرق غير مقنعة. وربما صدق الباحث الذي قال: «إن مقدار الصعوبة الكامن في محاولة حل إشكالية إحتلال عاي لا يقل عن معضلة إحتلالها في الأزمنة الغابرة».

وينطبق الأمر نفسه على النتائج الأثرية في أريحا والتي لا تتواءم مطلقاً مع القصة الواردة في المقرأ بشأن إحتلالها، إذ ثبت من خلال الحفائر

التي أجريت في الآونة الأخيرة أن أسوار أريحا الشهيرة التي تعد لب القصة المخرائية، يعود تاريخها إلى العصر البرونزي الأوسط. اعتباراً من النصف الأول من الألف الثاني ق.م). والقصة بالفعل ليست ملفقة كلية، نظراً لأنه في القرن الرابع عشر، وربما في القرن الثالث عشر ق.م، استقر إستيطان سكنى محدود وفقير نسبياً في هذه المنطقة قام بنو إسرائيل بتدميره. ويمكن أن نفترض إن القصة الشعبية المخرائية استلهمت أحداثها من وحى أنقاض وأطلال حصون عظيمة موقلة في القدم. كما أن الحفائر التي أجريت مؤخراً في «الجيب» (جبعون) تثير الكثير من الدهشة والاستغراب، إذ لم تكتشف أدلة أو آثار تفيد إعمار هذه الأماكن اعتباراً من القرن الـ ١٣ ق.م. بيد أن القبور التي اكتشفت بالقرب من المدينة تدل على أن ثمة حياة وسكان رفرقوا على هذه المنطقة في هذا العصر. وربما يجوز لنا أن نخمن أن بعض الجواله القادمين من منطقة مجاورة قد استوطنوها، بما يتمشى مع الدعاءات الجبعونيين، قبل يشوع، على الرغم من أن المقرأ ترى أن ما حدث مجرد خدعة. وعلى أية حال، فإن الفقرة الواردة «لأن جبعون مدينة عظيمة كأحدى المدن الملكية» (يشوع ١٠ - ١٢)، هي تدخل، بكل تأكيد، من قبل محرر متأخر معاصر للفترة التي عادت فيها جبعون لتصبح مركزاً هاماً في عصر مملكة يهودا.

وفي مقابل هذه النماذج الثلاثة التي تعكس عدم التلاقى بين المقرأ والمكتشفات الأثرية، والتي من الملاحظ أنها تتركز جميعها حول الروايات المرتبطة ببداية حملات يشوع على القطاع الأوسط من البلاد، فإن الأدلة الأثرية تتواءم بشدة مع بقية القصة المخرائية، حيث ثبت إن مجموعة المدن «قرية سيفر» و«دبير» (أم ناتارا بتل بيت مرسوم، لكن الأقرب للصحة هو القول بأنها خربة ربود الواقعة بباطن الجبل) و«خيش وعجلون» (يبدو أنها تل الحاسي غربى لخيش) التي تنسب المقرأ إلى يشوع احتلالها عسكرياً (يشوع ١٠: ٤١ فما بعداً) قد تم تدميرها تماماً في الثلث الأخير من القرن

الـ ١٢ ق.م. وقد أوليت أهمية كبرى للحقيقة القائلة بأن حاصور الواقعة بشمال فلسطين التي تبألغ الرواية المقرائية فى تصوير الدمار الذى أنزل بها، قد تقوضت تماماً فى نفس الحقبة الزمنية. وليس هذا فحسب بل إن الحفائر الأثرية فى هذا المكان أألت باضواء ساطعة على ملاحظة المؤرخ المقرائى «لأن حاصور كانت قبلاً رأس جميع تلك الممالك» (يشوع ١١ : ١٠). وقد تبين انه أسفل التل الذى نهضت أعلاه المدينة المرتفعة الحصينة تمددت مدينة سفلى فوق مساحة هائلة تبلغ ٧٠٠ دونما، وتعد من أضخم المدن الفلسطينية التى اكتشفت حتى الآن. ولا يمكن أن نحدد حتى اليوم، بنفس الدقة زمن حصار بيت إيل، لكن مما لا شك فيه أنها تقوضت فى القرن الـ ١٢ ق.م.

وعلى صعيد آخر تتجلى الحقيقة القائلة بأن الحفائر فى نابلس (شيخيم) التى استؤنف العمل فيها فى السنوات الأخيرة، لم يكتشف بها أية آثار تفيد تقوضها فى نهاية العصر البرونزى، بل إن الاستيطان فيها استمر دون انقطاع حتى نهاية القرن الـ ١٢ ق.م ، بيد أن هذه النتائج تتواءم مع القصة المقرائية باستثناء بعض الاصداء المشوشة التى تتحدث عن احتلال قديم لنابلس حدث فى عصر الآباء - قضية دينا - (تك ٣٤)، ومباركة يعقوب ليوسف (تك ٤٨ : ٢٢)، ولم تتراعى إلينا أية معلومات تشير إلى حدوث سيطرة إسرائيلية على المكان بالقوة قبل عصر القضاة. أضف إلى ذلك أن يشوع يظهر فى نابلس دون أية عوائق ويقيم فى وسط المدينة احتفالاً شعبياً بمناسبة شعائر العهد مع إله إسرائيل (يشوع ٢٤) وازدادت أهمية المكان بدخوله فى نطاق الأماكن المقدسة حيث اكتشف به معبد ومذبح وأنصاب، وهو الأمر الذى يعنى أن نابلس كانت بمثابة مركزاً دينياً رئيسياً اعتباراً من العصر البرونزى الأوسط، ويبدو أن هذا هو سبب هذه الهالة من القداسة التى تكسو ذكرى هذه المكان فى أذهان بنى إسرائيل. ومصير نابلس أثناء الاحتلال العسكرى هو بمثابة نموذج شاذ فى اللوحة الأثرية العامة التى تشير، كما سبق وأوضحنا، إلى الدمار والخراب. فعلى أنقاض المدن

الكنعانية نهضت مدن جديدة بعد فترة قصرت أو طالت مثل: دبير وبيت إيل، وهذه المدن التي كانت في الغالب مدناً غير محصنة كانت فقيرة الموارد ومتدهورة مقارنة بالمدن القديمة. وأبرز النماذج التي تمدنا بها نتائج الحفائر هي نتائجها في حاصور، التي تؤكد أن المدينة السفلى العظيمة لم تقم لها قائمة بعد خرابها أبداً. أما في التل نفسه فقد تبين أنه كان هناك استيطاناً مؤقتاً قد نشأ فوقه في حقبة زمنية لاحقة. ومما لاشك فيه، أن هذه البلدان الجديدة التي كانت تختلف كثيراً في حضاراتها المادية عن المدن الكنعانية هي ذات المدن التي قام بنو إسرائيل والاسباط الذين انضموا إليهم بتأسيس نفسها. والدليل على ذلك هو الاستمرارية الحضارية التي قائم فيها منذ ذلك الحين وحتى عصر الملكية. بالإضافة إلى ذلك فإن الدرس الأثرى يشير إلى أنه في أواخر القرن الـ ١٣ والقرن الـ ١٢ ق.م بدأت عملية استيطانية مكثفة من قبل بني إسرائيل لهذه المناطق التي لم تستوطن من قبل. وعلى هذا النحو نهضت مدن كثيرة على أراضي بكر جنوبي جبل إفرائيم والمنطقة التي استولى عليها سبط بنيامين. وقد أزاحت منطقة جلعاد الستار عن سلسلة من المستوطنات الصغيرة، ولدى خراب المدن الكنعانية وإقامة المستوطنات الإسرائيلية في أخريات القرن الـ ١٣ ق.م انتهى العصر البرونزي المتأخر وأطل العصر الحديدي.

استرجاع أساليب الاحتلال العسكري

بعد تحليل جملة المصادر التي بين أيدينا، التي تتناول قضية الاحتلال العسكري يتضح ان عملية غزو فلسطين كانت بمثابة مسيرة معقدة وتدرجية نفذت بشكل مرحلي. ويبدو هذا الاستنتاج منطقياً إزاء شرق الاردن، بيد أن نفس الأمر لا ينطبق على غرب فلسطين؛ فحتى البرهان الأثري الذي يؤكد - كما سبق وأشرنا - ان كثيراً من المدن الكنعانية قد تقوضت في الثلث الأخير من القرن الـ ١٢ ق.م ليس من شأنه - حتى الآن - أن يشير إلى عملية احتلال عسكري غير قاطعة. ولعله تبسيط مناف للعقل أن نظن أن جميع المدن التي كانت مصيرها الدمار قد تم تخريبها في فترة واحدة فعلاً (وكذلك يبدو ان أريحا قد خربت في حقبة أكثر قدماً)، والحقيقة ان أغلب الباحثين يعتقدون ان بني إسرائيل تسللوا إلى فلسطين على هيئة موجات، لكن تناقضت أراؤهم بشأن عدد مرات التسلل وزمنها والطرق التي سلكتها، وتحديد الاسباط التي شاركت في كل موجة منها. ومن الناحية الأخرى، هناك أهمية بالغة لتقسيم أسباط بني إسرائيل إلى اثني عشر سبطاً بناء على الانتماء للوالدين ليئة وراحيل وجار يتبهما زلفاً وبلهة. وشجرة الأنساب هذه، التي ليس لها تفسير منطقي أو جذور في الواقع التاريخي المتأخر كما تنعكس في إرث الاسباط، هي إذن مقدمة للوضع الذي أسفر عن التلاحم النهائي للاسباط.

وبناء على هذه الفرضية ينبغي ان نرى في بؤرة عملية تسلل بني إسرائيل مرحلتين رئيسيتين، ترتبط الأولى بسمو الرابطة السبطية التي تنتسب إلى ليئة والأخرى في أسباط راحيل. أما الاسباط التي تنتمي للجاريتين وهما: جاد وأشير من جهة، ودان ونفتالي من الجهة الأخرى، فقد درجوا على ان يعتبروهم أسباطاً منضمة ذات مكانة أدنى في التحالف الاسرائيلي، وقد غزوا فلسطين بطرقهم الخاصة. ويرى الباحثون المنتمون إلى

العصور السابقة وغالبية الباحثين المعاصرين أن دخول أسباط ليئة سابق على دخول اسباط راحيل ومعهم كل الحق، ويمثل رؤية هذه المدرسة في الدراسات الإسرائيلية الباحث ش. يابين الذي يفترض حدوث عدد من الموجات الغازية: تسلسل أبناء أشير ونفتالي إلى الجليل مع نهاية القرن الـ ١٤ ق.م ثم دخول اسباط ليئة حوالي سنة ١٣٠٠ ثم دخول اسباط راحيل بعد مرور جيل واحد تقريباً على دخول أسباط ليئة. وفي الفترة الأخيرة ازداد تشعب الآراء خاصة بعد صدور نظرية أولبرايت التي يرى فيها أن دخول أبناء يوسف سابق على دخول أسباط ليئة، وبالمناسبة فإن هناك إشارات في روايات الحكماء تفيد قدم ظهور أبناء يوسف في فلسطين، حيث ورد أن أبناء افرايم خرجوا من مصر قبل سائر الاسباط بسنوات طوال (انظر الترجوم الارامى للمزامير (٧٨ - ٩)، وراشى نفس الموضع، وقارن مع مخيلاً رابى يشمعئيل مسيخيت «فيهي بشلواح»، الاصحاح الاول، انظر أيضاً أقوال الحكماء ومفسرى القرون الوسطى حول ماورد أعلاه، واخبار الايام الأول ٧:٢٢) ونتيجة هذا المنهج الأخير اختبر ب. مازار محاولة استعادة تفصيلية لعملية الاحتلال العسكرى، وسنورد هنا الخطوط العريضة لهذه المحاولة نظراً لأنها قادرة على تفسير كثير من المعطيات الغامضة مما ورد في المصادر، دون الحاجة لمنظومة معقدة من التخمينات والتكهنات.

لقد حددت هذه الفرضية واحة قادش برنيع كقاعدة تنطلق منها موجتى الهجرة لاسباط راحيل وليئة. وقد صعدت أول مجموعة بقيادة يشوع في النصف الأول من القرن ١٣ ق. م نحو وديان موآب داخل المناطق التي بحوزة أدوم وموآب (عدد ٤٣) التي لم تصبح ممالك بعد، ومن هناك عبروا نهر الاردن ثم احتلوا أريحا وصعدوا إلى منطقة الجبل المركزى وجوار جبعون تورطوا في قتال مع تحالف الملوك الأموريين واستولوا على المناطق المتاخمة

للمدينة من الشمال والغرب. ومن هناك انتشروا فى منطقة جبل افرايم بل وتسلسل بعضهم نحو الشمال بإتجاه حصّة نفتالى، وفى فترة أكثر تأخراً تسلسلوا إلى شرق الأردن وشمال جلعاد وأرض باشان. أما سلسلة الغزوات الأخرى التى اشتركت فيها أسبابا لينة فقد اضطرت أن تدور حول مملكتى موآب وأدوم فاصطدمات فى طريقها بالملكة الامورية التى يحكمها سيحون وعاصمته حشبون. وقد استمرت هذه الدولة الاجنبية الواقعة بين عمون وموآب فترة قصيرة فحسب قبل دخول بنى إسرائيل إذ ان تأسيسها، وفقاً لهذا الطرح مرتبط بنتائج المعركة فى قادش بين رمسيس الثانى والحيثيين وعندئذ تسلسل الحيثيون مع حلفائهم الاموريين لمنطقة دمشق ويبدو ان الأخيرين واصلوا حملتهم العسكرية جنوباً.

وفى أعقاب هزيمة سيحون فى يهصة واصل بنو اسرائيل تقدمهم شمالاً نحو المملكة الامورية التى يحكمها يعزير (عدد ٢١: ٢١ فصاعداً) واستولت أسبابا جاد ورؤ بين على جنوب ووسط شرقى الاردن من أرنون وحتى يبيوق. ومن المحتمل ان بقية الحملة العسكرية لموجة الهجرة الثانية فى اتجاه غرب فلسطين هى التى تتجلى فى القصة التى حفظها لنا سفر القضاة الاصحاح الأول. وبناء على ذلك عبر بنوا إسرائيل بقيادة يهودا نهر الأردن على مسافة بعيدة من شمالى أريحا فاحتلوا بازق عند جبال منشة وتحركوا جنوباً نحو جبال يهودا وغور يهودا مضرمين النار فى اورشليم أثناء مرورهم بها. وفى نفس الفترة تقريباً (الربيع الأخير من القرن الثالث عشر ق.م) تم احتلال مدن الجبل الجنوبى وحدود النقب وحبشرون ودبيروهارام حيث قامت أسبابا قريبة من يهودا بغزوها، وهى أسبابا الكلبى والقنيزى والقينى الذين تسلسلوا بين جهة الجنوب. وسياق سفر يشوع (١٠: ٢٨ - ٤٩) يلحق بقصة احتلال جنوب فلسطين قصة عن

احتلال مدن تقع عند سفح الجبل وتخوم غور يهوذا: مقيدة ولبنة، ولخيش، وعجلون. أما الحرب مع الكنعانيين في شمال فلسطين والتي يرد ذكرها في سفر يشوع (١١: ١ - ١٥) وسفر القضاة (حرب دبورة وباراق قض ٤ - ٥)، فهي ثمرة مبادرة مشتركة بين أسباط ليئة ويسساكر وزبولون الذين تسللوا من جبل إفرايم باتجاه الشمال واتحدوا مع اسباط يوسف الذين ازدادوا وتعاضموا في ذلك الوقت.

والطرح المذكور أعلاه، شأنه شأن كل محاولات استعادة صورة الغزو العسكري والاستيطان، ظل مجرد احتمال حيث أن أسلوب ونتائج النقاش في قضيتنا تخلع رداء وترتدى آخر وفقاً للثقل الذي توليه للمصادر المقرائية والمعلومات المختلفة التي بحوزتنا. ولذلك فمن المفيد أن تعالج قصة الاحتلال العسكري بأسلوب نمطي، أي بطرح الرؤى العامة والرئيسية التي تتبدى في هذه المسألة دون الانسياق وراء محاولات استرجاع التسلسل الدقيق لمراحل الاحتلال العسكري بصورة نظرية وعملية.

ولذلك سنركز فيما يلي على عملية غزو فلسطين على ضوء الرؤية العسكرية. لكن قبل ذلك سنشير إلى عدد من النقاط الرئيسية المستنتجة من القصة المقرائية والتي لا يمكن إغفالها في أي محاولة لاسترجاع واستعادة صورة ما حدث.

لقد اتضح انه تعذر على بني إسرائيل الخارجين من مصر أن يدخلوا إلى أرض كنعان عنوة عن طريق أقصر الطرق المتاحة وهو الطريق الجنوبي سواء بسبب السلطات المصرية بحراً أو من جراء التحصينات الكنعانية المحكمة التي أغلقت مداخل فلسطين عند سفوح الجبال مثل هاراما. لذا اضطر بنو إسرائيل أن يدوروا دوارات واسعة عن طريق نهر الأردن وهنا يكتسب ما جاء في المقراعن الصدام بين بني إسرائيل وسيحون ملك

الأموريين بعدما نصبوا خيامهم فى أرضه واستولوا عليها أهمية بالغة على الصعيد السياسى والعسكرى وعلى الصعيد «الكرونولوجى».

وتدعم الملاحظة الواردة فى المقرأ حول سيحون الذى حارب أول ملوك موآب واستولى على كل مافى يده من أراض حتى آرنون» (عدد ٢١؛ ٢٦) نظرية تواكب قدوم بنى إسرائيل أو فريق منهم مع نشأة مملكة موآب التى يمكن تحديد زمن نشأتها، كما سبق أن ذكرنا، بالنصف الأول من القرن الـ ١٣ ق.م. وإذا وافقنا على الفرضية المذكورة سلفاً القائلة بأن مملكة سيحون شيدت بعد معركة قادش، فينبغى إذن أن ندقق أكثر فى مسألة تحديد زمن وقوع الأحداث المذكورة. وعلى أية حال يبدو أن المنطقة الخصيبة الواقعة بين آرنون ويبيوق كانت تؤل السيطرة عليها فى النصف الأول من القرن الـ ١٣ ق.م من يد لأخرى. ففى البداية سيطرت مملكة موآب على الجزء الجنوبى وتقريباً سيطرت مملكة عمون على الجزء الشمالى، ثم قام سيحون بإحتلالها، وأخيراً استولى عليها بنو إسرائيل. ويمكننا أن نضيف العنصر المصرى إلى صراع القوى الذى دار فى هذه المنطقة خلال هذه الحقبة الزمنية، والدليل على ذلك حملة رمسيس الثانى على أراضى موآب حتى أنه غزا مدنا تقع شمالى آرنون. أما فيما يتعلق بإحتلال غرب فلسطين، فنجد فى بؤرة الأحداث صدامين حاسمين مع الكنعانيين ارتبط بنتائجها مصير استيطان بنى إسرائيل فى فلسطين، حدث الصدام الأول فى الجنوب بجوار جبعون والآخر فى الجليل الأعلى. وقد كشف خصوع المدن الحيوية الأربعة المتحالفة «جبعون، الكفيرة، بئىروت وقرية يعاريم أمام قوات بنى إسرائيل، الجناح الشمالى الغربى لمملكة أورشليم الأمر الذى يتماثل مع الملابس الشهيرة التى يرجع زمنها إلى فترة تل العمارنة التى عرّضت المدن الكنعانية الغربية للخطر وتمخضت عن رد الفعل العسكرى الحازم من قبل أدونى صادق ملك أورشليم

الذى تزعم أربعة حلفاء كنعانيين: حبرون ويرموت ولخيش وعجلون وقادهم
فى عملية عسكرية مضادة ضد جبعون التى استغاثت فهب جيش بنى
إسرائيل لنجدة حميته. وحقق بنو إسرائيل انتصاراً باهراً ففتح هذا
الانتصار أمامهم الطريق للسيطرة على سفوح الجبل الغربية (يشوع ١٠).
كما حققوا انتصاراً آخر فى حربهم ضد الحلف الكنعانى الشمالى بزعامة
ملك حاصور، وفيها بز بنو إسرائيل أعداءهم فى القتال عند مياه ماروم
الواقعة شرقى الجليل الأعلى (ومن المحتمل ان مدينة مياه ماروم نفسها كانت
خربة منذ ان احتلها ومسييس الثانى) ثم دمروا حاصور مركز القوة الكنعانية.
(يشوع ١١: ١ - ١٥).

غزو فلسطين في الميزان العسكري

على الرغم من موافقتنا على قدر كبير من الرواية المقرائية التي تحكى عن سيطرة بنى إسرائيل على فلسطين بقوة السلاح، و على الرغم من أن هذه الرواية تعضدها براهين أثرية ، إلا أننا حتى الآن فى حاجة ماسة للعثور على اجابة للسؤال : كيف استطاع بنو اسرائيل أن يحتلوا فلسطين عسكرياً؟ إن الامر حقاً يثير الدهشة والاستغراب معاً. فكيف تمكنت أسباط بنى إسرائيل الصاعدين من البرية مفتقدين إلى الخبرة و الدراية العسكرية اللازمة لهم و يعانون من نقص الموارد والعتاد اللازمين ، أن يتغلبوا على أعدائهم الكنعانيين أصحاب التاريخ العسكرى الطويل والمعرفة التكنولوجية الراقية والمتطورة، الذين يشيدون القلاع المحصنة، التى وصفها بنو إسرائيل بقولهم «مدناً عظيمة محصنة إلى السماء» (تثنية ١ - ٢٨). إن الجدير بالذكر هو ان هذا الاستغراب ليس وليد اللحظة بل تنبه إليه القدماء أمثال الأديب الهلينستى ديمتريوس الذى عاش فى القرن الـ ٣ ق.م حين طرح السؤال: من أين حصل بنو إسرائيل على السلاح إبان صعودهم إلى فلسطين. وقد هون الأمر على نفسه بنفس اجابة يوسف بن متتياهو (تاريخ اليهود ٦: ١٦): إنهم بكل تأكيد قد تزعموا بسلاح المصريين الذين غرقوا فى البحر الأحمر.

يبدو إن نجاح بنى إسرائيل رغم أنف التفوق العسكرى الكنعانى راجع لأسباب مختلفة، استطاعت ان تمهد الطريق أمام غزو سريع نسبياً، على الأقل فى المناطق الجبلية من فلسطين، وهذه الاسباب هى: ضمور أرض كنعان من جراء نظام الحكم المصرى الاستعمارى المستبد، والحالة الامنية المزعزعة التى تجأت بوضوح من خلال رسائل تل العمارنة ويرديات انستاسى الأول بالاضافة إلى النزاعات والصراعات الداخلية بين حكام المدن الكنعانية أنفسهم، وهى تلك الصراعات التى تفاقمت إثر تدخلات السلطات المصرية التى انتهجت سياسة «فرق تسد» فتركوا كنعان إبان دخول أسباط

بنى إسرائيل متشر ذمة تعاني مدنها من آثار العزلة السياسية، في مقابل الحماس الدينى والقومى المتأجج فى نفوس بنى إسرائيل وتطلعهم لاحتلال أراضى جديدة موعودة، بينما وقف المواطن الكنعانى خاوياً من الوعى القومى، ولذا لم يحتشد ولم يقف وقفة رجل واحد فى وجه تسلس الاسباط. أما الحلفان الكنعانيان فقد شمالا منذ البداية قسماً ضئيلاً من أرض كنعان، كما كان الحلف الجنوبي موجه ضد الجبعونيم فحسب، ولم يهب أحد لمساعدة ونجدة أريحا أو عاي ساعة الخطر. وحتى مساعدة ملك جيزر لمدينة لخيش المحاصرة (يشوع ١٠: ١٣) لم تأت على ما يبدو إلا بدافع من السلطات المصرية التى فرضت اتفاقية دفاع مشترك بين المدينتين. اللتان تعتبران بمثابة مركزين هامين من مراكز الإدارة المصرية فى الثلث الأخير من القرن الـ ١٣ ق.م، كما نتبين ذلك من الوثائق المصرية.

ويمكن أن نشير إلى عنصر آخر من العناصر التى يسرت عملية السيطرة على أرض كنعان، وهو عدم التجانس العرقى الواضح فى تركيبة السكان الكنعانيين وهو الأمر الذى تشير إليه المصادر المقرائية. وقد أفلح بنو إسرائيل فى الاستفادة من ذلك التناقض الطبيعى بين الجماعات العرقية المختلفة التى استوطنت أرض كنعان. ومن أبرز الأمثلة على ذلك اتفاقية السلام المنفردة التى أبرموها مع الجبعونيم المحسوين على التركيبة العرقية الحوية (يشوع ٧: ٩) وكانوا يختلفون عن الكنعانيين حتى فى نظامهم السياسى والاجتماعى، وكانوا يؤثرون النظام الأبوى، حيث تبوأ الزعامة فى مدنها شيوخاً لا ملوكاً. ويجدر الإشارة فى هذا السياق إلى أن سكان نابلس أيضاً، أو على الأقل جزء منهم انتسبوا إلى الحويين (تك ٤٤ - ٢) واستندت قيادتهم السياسية فى فترة استيطان بنى إسرائيل على الزعامة الجماعية «لأصحاب شكيم»، ولم تعتمد النظام الملكى. وقد آلت السيطرة على هذه المدينة أيضاً لبنى إسرائيل دون الدخول فى حروب. ولعل المعلومات

الواردة بشأن التعايش الذى نشأ بين بنى إسرائيل فى أورشليم والسكان اليبوسيين (يشوع ١٥: ٩٣، قض ١: ٢١) تضرب بجذورها فى العلاقات السلمية التى نشأت بين بنى إسرائيل والسكان اليبوسيين. ومن المحتمل أن هذه العلاقات أيضاً نهضت على أسس عرقية شمالية (أى الحيثيين أو الحوريم،) لاحظ أن الاسم الأخير تترجمة أحياناً الترجمة السبعينية إلى حويم) عرفت طريقها إلى المدينة فى الفترة التى قطن بها بنو إسرائيل، وربما قبل ذلك. ومع ذلك فإن أهم العناصر التى ساعدت فى التغلب على الكنعانيين كانت الأساليب القتالية الفريدة التى استخدمها بنو إسرائيل فى فترة الغزو والاستيطان إلى جانب الفطنة البالغة التى اتسم بها المقاتلون، التى تبرز بوضوح من بين سطور ماورد فى المقرأ. فقد اتضح أن بنى إسرائيل كان لديهم جهازاً إستخبارياً للتجسس متطور، كما نستخلص من إرسال موسى للاثنى عشر جاسوساً، ليقوموا بإستقصاء أخبار فلسطين وهو الأمر الذى يستدعى فى أذهاننا أساليب وطرق المخابرات العسكرية والاقتصادية والديموغرافية (عدد ١٣ - ١٨ : ٢٠). كما تصور لنا النصوص المقرآنية عملية إرسال الجواسيس إلى أريحا وعائ عشية الهجوم عليهما حتى يجمعوا معلومات عن خطط الأعداء، وكيف فشلت هذه العملية الاستخبارية فى الوقوف على القدرة الدفاعية لمدينة عائ مما تسبب فى الهزيمة بادئ الأمر: «اصعدوا وتجسسوا الأرض، فصعد الرجال وتجسسوا عائ ثم رجعوا إلى يشوع وقالوا له لا يصعد كل الشعب بل يصعد ألفى رجل أو ثلاثة آلاف رجل ويضربوا عائ، لا تكلف كل الشعب إلى هناك لأنهم قليلون» (يشوع ٣: ٧).

وقد اهتم بنو إسرائيل، على سبيل المثال، بحل بعض المشاكل اللوجستية مثل توريدات الغذاء والمهمات ونحو ذلك، كما يظهر من أوامر يشوع، قبل عبور نهر الأردن، بخصوص إعداد مؤونة للشعب

(يشوع ١ - ١١:١٠) ولنا أن نلاحظ وجود إعتبارات لوجستية فى تحديد موعد الحملة فى فصل الربيع، العاشر من نيسان، يشوع ٤ - ١٩) حيث تنضج المحاصيل فى وديان أريحا: «وأكلوا من غلة الأرض فى الغد بعد الفصح... فأكلوا من محصول أرض كنعان فى تلك السنة» (يشوع ١٠:٥ - ١١) ولنقل كما هو مألوف فى الجيوش الغازية. (قارن أفعال المديانيين فى أيام جدعون) قام اقتصاد بنى إسرائيل على نهب المحاصيل الكنعانية من المدن التى تركها أهلها، فأضحت مصدراً هاماً لأمداد الغزاه بالمؤن والمهمات (يشوع ٨: ٢٧، ١١: ١٤). ونلاحظ كذلك أسساً استراتيجية ولو جستية فى تقاليد الاحتلال الرسمية، التى تمنح مكانة مميزة للجلجال، أول الأماكن التى نزل بها بنو إسرائيل بعد عبور نهر الأردن، حيث كانوا يعودون إليها فى كل مرة بعد انتهاء معاركهم بجنوب البلاد (يشوع ١٠: ١٥ - ٤٣). وقد دفعت هذه الحقيقة المذهلة الكثيرين إلى الافتراض بأن هذه التقاليد هى ثمرة قصص خاصة مروية عن سبط بنيامين، وأن هذه القصص انتجت حول مقر العبادة الكائن بالجلجال، ولكن الجلجال من الناحية العسكرية كانت أيضاً تمثل رأس جسر وقاعدة حيوية للتسلل من عبر الأردن إلى غرب فلسطين، وكانت المنطقة الأمنة التى بوسعهم الانسحاب إليها بعد إنتهاء غاراتهم بعيدة المدى، وذلك حتى يحرصوا على الصلات مع العمق الاسرائيلى الواقع بشرق نهر الأردن.

وقد واجه بنو إسرائيل فى حروبهم ضد الكنعانيين مشكلة عسكرية مزبوجة، فمن جهة اعتمد الاعداء على مدن محصنة منيعة، كانت بمثابة حبات الجوز غير القابلة للكسر حتى أمام الجيوش المصرية الجرارة، ومن جهة أخرى أدار الكنعانيون جيشاً محترفاً عالى الكفاءة يمثل سلاح المركبات يده الطولى التى بزت أسلحة المشاة «لدى بنى إسرائيل». ويتضح من التحليل الجيد لمسار المعارك منذ بدء فترة الغزو وحتى بداية عصر الملكية أن

بنى إسرائيل قد تغلبوا بصورة عملية على هذه العناصر بانتهاج أسلوب قتالي خاص هو «الانقضاض العسكري غير المباشر، أى أن المحاربين من بنى إسرائيل سعوا جاهدين ألا ينقضوا على المدن الكنعانية انقضاضاً مباشراً وتحاشوا قدر الامكان المواجهة مع العدو - وخاصة سلاح المركبات - فى ساحة قتال وفى صدام مباشر وصريح، بل اعتمدوا تكتيكا قائم على الدهاء والحيلة والخداع.

أما النموذج انوحيد للحصار الصريح الذى ضربه بنو إسرائيل على مدينة كنعانية فهو أريحا. ومع ذلك فإن النصوص المقرائية لاتصف لنا معارك حصار، وإنما تصور كيف سقطت المدينة إثر تدخل قوى خارقة للطبيعة. أما بيت إيل وحتى اورشليم فى عصر داود فقد قيل بوضوح انهم استولوا عليهما بأساليب الخداع وليس من خلال صدام مباشر (قض ١: ٢٢ - ٢٥). أما غزو عاي ومرتفعات بنيامين التى تهدمت من جراء الحرب التى نشبت بين أسباط بنى إسرائيل أنفسها، فقد حفظت لنا النصوص المقرائية تصويراً تفصيلياً لمكائد وحيل بنى إسرائيل، إذ إحتلت المدينتان الأخيرتان بعملية تمويه حيث مثل فريق من بنى إسرائيل الفرار من العدو حتى يبعدوا القوات المدافعة عن المدينة وحينئذ يتمكن الكمين من التسلل إلى المدينة المكشوفة فى يسر وسهولة (يشوع ٨، قض ٢٠: ٣٩ فصاعداً). والمدهش ان ثمة محاولات فاشلة فعلاً قد سبقت عملية احتلال عاي ومرتفعات بنيامين أيضاً حيث انتهت هذه المحاولات بفرار حقيقى. ويبدو ان هذه الحقيقة ذاتها - هى التى استغلت على الفور لاجراج تمثيلية الفشل المزعوم بعد تعويد الاعداء على عملية متكررة حتى خملت يقظة الاعداء فانقضوا عليهم بغية. وهناك حالات أخرى سقطت فيها الحصون الكنعانية فى أيدي بنى إسرائيل بعد هزيمة الاعداء فى معركة حاسمة فى ساحة الوغى، ومن ذلك على سبيل المثال، سقوط بعض القلاع بجنوب فلسطين فى أعقاب معارك جبعرن وسقوط مدينة حاصور بعد معركة مياه ميروم .

والطريف أنه فى هذه المعارك، شأنها شأن معارك أخرى، حقق بنو إسرائيل النصر على الجيوش الكنعانية بفضل عمليات تخطيط وأساليب قتال من الطراز الأول مثل فيها عنصر المفاجأة المبدأ الرئيسى. ففى معركة جبعون صعد بنو إسرائيل من الجبال لمسافة تبلغ حوالى ٣٠ كم وساروا نحو ١ كيلو متر فى رحلة ليلية شاقة، وذلك حتى يستغلوا عنصرى الظلام الدامس والمفاجأة كما ينبغى. « فأتى إليهم يشوع بغته، صاعداً الليل كله من الجبال » (يشوع ١٠ : ٩). ويبدو ان القتال بدأ مع أول خيوط الفجر هو الامر الذى يمكن استنتاجه من كلمات القصيدة المقتبسة من «سيفرهياشار» - «ياشمس حومى على جبعون وياقمر على وادى أيلون» - (يشوع ١٠ : ١٢) وتستند هذه القصيدة على واقع طبوغرافى: حيث أنه فى الصباح فحسب يظهر القمر وكأنه يسبح نحو الغرب فى وادى أيلون كما تشرق الشمس من جهة الشرق أعلى جبعون. وبعد ان منى العدو بالهزيمة مع شروق الشمس شرعت قوات بنى إسرائيل فى مطاردة فلول الجيش الهاربة على طريق مرتفعات بيت حورون.

والجدير بالذكر ان هناك معلومات ترجع إلى فترات أقدم زمنياً تشير إلى عمليات عسكرية مشابهة وإلى رحلات ليلية وإلى شن قتال عند بزوغ الفجر، مثلما حدث فى معركة جدعون مع المديانيين. ومن أبرز نماذج القتال الليلي تلك المعركة التى ضرب فيها أبيمالك الحصار على (قض ٩ : ١٤) وحروب شاول مع بنى عمون والبلسيتينى (صموئيل ١١ : ١١ - ١٤، ٣٧)، وقارن أيضاً غارة إبراهيم على العدو الذى أوقع أخيه لوط فى الاسر (تك ١٤ : ١٥).

ويتجلى عنصر المفاجأة ايضا فى معركة أخرى كبرى منسوبة إلى يشوع. وهى معركة مياه ماروم، التى استعان فيها الكنعانيون بسلاح المركبات (يشوع ١١ : ٧، ولاحظ أيضاً اللفظ: «بغته» الوارد فى هذه

الفقرات). ومن المعلوم أن سلاح المركبات الكنعاني مثل مشكلة حقيقية في حرب دبورة وباراق مع سيسرا الذي كان بحوزته، بناء على ما جاء في المقرأ ٩٠٠ مركبة حديدية. وقد حفظت لنا المقرأ صفا تفصيلياً لهذه القصة. لكن الحقيقة ان القتال نفسه تم تصويره بإيجاز شديد حتى أنه صار غير واضح المعالم. ومع ذلك فمن بين السطور نرى بوضوح خطة العملية العسكرية «البنى إسرائيلية» التي اهتمت في المقام الأول باتلاف وتحيد سلاح المركبات وتم لهم ذلك على ما يبدو تأسيساً على اعتبارات طبوغرافية ومناخية، ويبدو ان قادة بنى إسرائيل أجلوا الهجوم على الكنعانيين حتى حلول موسم الامطار التي حولت أراضي الوديان إلى مستنقعات وحرمت المركبات الكنعانية من قدرتها على الحركة. ومن هنا جاء، التأكيد على الامطار الغريزة عند وصف معجزات إله إسرائيل في مطلع قصيدة دبورة (قض ٥: ٤ - ٥) والغيث الشديد ضمن فقرات المزمور الذي يتناول حرب دبورة (مزامير ٩٨: ١٠)، والتصوير الشعري للوديان ونهر قيشون (قض ٥: ٢١) والحقيقة التي تؤكد أن سيسرا نفسه اضطر أن يغادر مركبته التي غاصت بكل تأكيد في الوحل وأسلم ساقيه للريح حتى ينجو بحياته.

استيطان الأسباط ونتيجة

على الرغم من اساليب القتال الفاعلة، لم ينجح بنو إسرائيل في التغلب تماماً على السكان المحليين إلا في المناطق الجبلية من فلسطين، أما في السهول فلم يتمكنوا من السيطرة، بسبب فاعلية السلاح الكنعاني المحوري هناك، وهو سلاح المركبات. وتؤكد المقرأ نفسها هذا الامر عند الحديث عن مسألة استيطان أبناء يوسف (يشوع ١٧ : ١٥ - ١٨)، ومرة ثانية عند الحديث عن سبط يهوذا. «فملك الجبل ولكن لم يطرد سكان الوادى لأن لهم مركبات حديدية» (قض ١ : ١٩). وتعكس مقولة بنهدد ملك آرام أثناء حربه مع أحاب مسألة تفوق بنى إسرائيل في المناطق الجبلية ووهنهم في السهول وأن ذلك دام حتى في العصور التي تلت دخولهم إلى البلاد: «إن آلهتهم آلهة جبال لذلك قوا علينا، ولكن إذا حاربناهم في السهل فإننا نقوى عليهم» (ملوك أول ٢٠ : ٢٣) بناء على ماتقدم ثبتت جيوب كنعانية كثيرة في نطاق الاستيطان السبطي، خاصة في وادى يرزعئيل، أصبح بعضنا منها بمرور الوقت يشكل عبئاً على بنى إسرائيل (أنظر قائمة مثالب الاحتلال العسكري قض ١ : ٢١ - ٣٥، يشوع ١٥ : ١٠). أما بنو إسرائيل الذين تسللوا إلى الوديان فقد عانوا الوليات من استعباد الكنعانيين لهم. كما نستخلص من مباركة يعقوب لسبط يساكر الذى أقام بشرق وادى يزور عنيل ووادى بيت شان، فأحنى كتفه للحمل وصار للجزية عبداً؟» (تك ٤٩ : ١٥) وتشير الفاظ الحمل بالعبرية «سبيل» والجزية «مس» إلى أعمال السخرة خاصة في حقل الزراعة، حيث وردت بنفس الالفاظ تماماً في رسائل ماري «سبل» والعمارنة «مسا»، ولعل اللفظين يصفان كيف كان الاستعباد نظرياً وعملياً.

ويتضح مما سبق أن استيطان بنى إسرائيل تركز في البداية في القطاعات الجبلية من فلسطين، تلك القطاعات التي كانت تكاد تخلو من السكان الكنعانيين. وعلى أية حال فإنهم تمتعوا هناك بنوع من السيادة،

حيث قاموا بتمهيد الاراضى فى المناطق الجبلية الخالية من أجل الاستيطان وذلك عن طريق قطع أشجار الغابات. كما يفهم من نصيحة يشوع لأبناء يوسف المتعطشين لمنطقة تصلح للسكن: «بل يكون لك الجبل لأنه وعرف فتقطعه وتكون لك مخارجه» (يشوع ١٧ : ١٤ - ١٨). وقد أدى قطع الأشجار وإقامة تجمعات سكنية فى مناطق لم تكن أهلة بالسكان من قبل إلى تغيير جوهرى فى المنظر الطبيعى الفلسطينى والتي ارتسمت فى الازهان قبل مجئ بنى إسرائيل على أنها أرض الغابات، ويبرز ذلك بصفة خاصة فى المصادر المصرية. وقد استند بنو إسرائيل فى تمهيد المناطق الجبلية للسكنى إلى الخبرة والدراية التكنولوجية التى اكتسبوها، مثل استخدام الآبار المنحوتة لتخزين مياه الأمطار (قارن ماورد فى المشنا «مسيخيت أفوت» ٨/٢ عن البئر الجيرى الذى لا يسرب المياه) وخلق الظروف المواتية لتمهيد مناطق أخرى. أما الإضافة التكنولوجية الهامة التى حملوها معهم من بلاد الشمال ويبدو أثرها ملحوظاً فى القرن الـ ١١ ق.م فحسب، فهى تصنيع المركبات الحديدية ذات الفائدة التى لا تبارى فى تطوير الزراعات الجبلية وقطع الغابات. وقد تفوقت بوضوح على الآلات النحاسية و البرونزية التى كانت تستخدم قبل ذلك .

وهكذا انفتحت أمام استيطان بنى إسرائيل مناطق فسيحة، سواء فى شرق الأردن وبخاصة منطقة عجلون شمال نهر يبيوك أو فى غرب فلسطين. وفى البداية نشأت عملية استيطان مكثف فى المنطقة التى استولى عليها سبط بنيامين وفى المناطق الجبلية المتاخمة لها من الشمال والجنوب. ويفهم أيضاً من شهادات مختلفة فى المقرآن الاكتشافات الأثرية أن بنى إسرائيل أعادوا بناء كثير من المدن الكنعانية الخربة مثل عاي وبيت إيل ومتسفا، بيد أنهم اهتموا أساساً بتشديد مستوطنات جديدة مثل تلل بنيامين، جيبع، مكمش راما، عناتوت وعزاموت. ويبدو أن القطاع الأوسط بالجبل المركزى كان نواة الاستيطان الدولى لغالبية اسباط بنى إسرائيل، ولكن فى مرحلة

متأخرة جداً، ولدى تزايد أعداد السكان هاجرت أسباط بأكملها، أو عشائر تشعبت من السبط الام، إلى مناطق أنصبة السبط. ومن هذه الناحية ويمكن أن نعتبر أن عملية استيطان بني إسرائيل في حالات كثيرة كانت بمثابة عملية انتشار طردى من الجبل المركزى باتجاه السهول والمناطق المحيطة داخل فلسطين على ضفتى الأردن، وهو الانتشار الذى كان من أسبابه الضغوط الديموغرافية وعدم القدرة على الاستقرار فى المنطقة الاولى.

وقد كان مصير سبط دان هو النموذج التفصيلى الوحيد الذى حفظته لنا المقرأ عن ترحال سبط من أسباط بني إسرائيل وعن الظروف التاريخية التى أحاطت بهذا الترحال (قض ١٧ - ١٨)، وهو النموذج الذى يضع أيدينا على مغزى هذه القصة برمتها، حيث لم يتمكن سبط دان ان يضرب بجذور راسخة فى السفوح الغربية من القطاع الجبلى الاوسط، نظراً للضغوط الهائلة التى جابهها سواء من الاموريين غرباً (قض ١: ٣٤) أو من أسباط بني إسرائيل شرقاً، فاضطر قسم من السبط أن يهاجر عله يستطيع أن يستولى على منطقة جديدة، وظل القسم الآخر يقيم فى الجنوب دون أرض ثابتة تحت قدميه. وهو الامر الذى تطلعنا عليه قصص شمشون. وتعكس حملة سبط دان العسكرية كما وردت فى المقر نفس أحوال اسباط أخرى كانت بمثابة لوحة مصغرة لقصة الخروج من مصر والغزو العسكرى لفلسطين. إن سبط حال يسبق حملاته بجواسيس ينفذون عمليات استخباراتية ويستقصون عن طبيعة البلاد التى يستعدون للاستيلاء عليها. وقد أرسلوا هذه المرة خمسة رجال شجعان من منطقتى صرعة واشتاؤل، وهناك تمكنوا من العثور على موقع مناسب للاستيطان وهو منطقة لايش بالطرف الشمالى الشرقى من فلسطين، إذ أن المناطق المؤدية إلى هذا المكان كانت بالطبع مستوطنة بالفعل من قبل أسباط بني إسرائيل، بالاضافة إلى أن لايش والمناطق المجاورة لها كانت قابلة للغزو بناء على وجهة نظر الجواسيس

«الارض واسعة الاطراف... والشعب الذى فيها يعيش فى طمأنينة كعادة الصيدونيم... وهم بعيدون عن الصيد ونيين وليس لهم أمر مع انسان» (قض ١٨ : ٧ - ١٠) أى أن لايش الواقعة فى النطاق التابع للساحل الفينيقي معزولة تماماً من جراء بعدها عن حماتها ويسهل احتلالها . وبالفعل وتؤكد الحفائر والدراسات الاثرية التى أجريت مؤخراً فى تل دان (تل القاضي) بالفعل ان المدينة قد خربت فى العصر الحديدي القديم.

وقد كان عدد المقاتلين الذين أعدهم سبط دان نموذجياً بالنسبة لهذا النوع من الحملات العسكرية « ست مئة رجل متسلح بعدة الحرب » (قض ١٨ : ١١) أى ما يعادل كتيبة كاملة . ويلاحظ التشابه مع عدد الخارجين من مصر ٠٠٠ ر ٦٠٠ رجل يحملون السيف . ويبدو ان هذا الرقم الفولكورى الغرض منه هو الاشارة لضخامة الجيش فحسب وهناك سمة أخرى خاصة بالحملات العسكرية تبرز بوضوح فى ترحال سبط دان، وهى الانصياع للكاهن و طلب مشورة الاله : « فقالوا له إسأل الله لنعلم هل ينجح طريقنا الذى نحن فيه سائرون» (قض ١٨ : ٥) وهناك مايمثل ذلك فى قصة الخروج فى تصرف اليعازر الكاهن الذى يسأل عن حكم الاوريم : «(أدوات عبادة لاستلهاهم الوحي)حسب قوله يخرجون، وحسب قوله يدخلون هو وكل بنى إسرائيل معه كل الجماعة» (عدد ٢٧ : ٢١ فصاعداً) ونظرا لانه بعد احتلال فلسطين وطُن بنو إسرائيل خيمة الاجتماع فى شيلوه بعد أن كانوا يحملونها معهم أينما حلوا، فإن بنى دان فعلوا نفس الشئ فى مقرهم الجديد فأقاموا تمثال ميخا الذى أخذوه معهم فى طريقهم وقاموا كذلك بتغيير اسم المدينة من لايش إلى دان بعد تحريم المكان واعادة إعمارها. وهناك تقابلات كثيرة مع عملية احتلال المدن الكنعانية مثل تغيير أسماء قرية أربع إلى حبرون وقرية سيفر إلى دبير وصفاء إلى حرمة ولوز إلى بيت إيل (سفر قضاة الاصحاح الأول، ولكن الجديد بالذكر حقاً هو تغيير أسماء بعض

الاماكن بشرق الاردن وتسميتها باسم العشائر السبطية التي احتلتها (يائير ونوبح) (عدد ٣٢، ٤١ - ٤٢).

ومن وحى مصير سبط دان يمكن أن نتوقع اسباط أخرى وتشعبهم وترحالهم وإن كان ذلك تم بصورة غير مباشرة، لأن المقررا اكتفت بتقديم الصورة النهائية للاستيطان السبطي كما تبلور في نهاية مسيرة تطور تاريخي طويل (يشوع ١٣ - ١٩). لكن مما لاشك فيه أن هذه اللوحة المتبلورة قد سبقتها سلسلة ديناميكية متشعبة من التحركات السبطية التي يبدو أثرها ملحوظاً بناءً على الايماءات الواردة في النصوص المقرائية، وعن ذلك أنه عند وصف مناطق استيطان الاسباط، نجد ثمة أصداً لهذه الاحداث متناثرة ذات اليمين وذات اليسار. بيد أن هناك أهمية بالغة من هذه الناحية لقوائم الانساب السبطية التي حافظت عليها المقررا، وللشهادات الثلاثة التي تصف مكانة وشمائل أسباط بني إسرائيل وبركة يعقوب (تك ٤٩) وبركة موسى (التثنية ٣٣) وقصيدة دبورة (قض ٥) وسنتخذ مما ورد عن زبولون في بركة يعقوب كنموذج: «زبولون عند ساحل البحر يسكن وهو عند ساحل السفن وجانبه عند صيدون» (تك ٤٩ - ١٣) وهو ما يتناقض مع وصف حدود هذا السبط في سفر يشوع (١٩: ١٠ - ١٥) حيث وفقاً لهذه الحدود الأخيرة تقلص السبط في غرب الجليل السفلى ولم ينتشر حتى ساحل البحر وهو الامر الذي يعنى ان بركة يعقوب تعكس انتشاراً عظيماً حققه السبط في موقف تاريخي معين (من المحتمل في أعقاب حرب دبورة) إلا أن إرثه أخذ يتقلص وينكمش في مقابل تعاظم نفوذ سبط أشير.

سبل الأستيطان فى مرآة قوائم الانساب السبطية

تعد لفائف الانساب السبطية عنصر ابالغ الاهمية فى عملية الكشف عن آلية الاستيطان السببى (خاصة اللفائف التى يشتمل عليها سفر أخبار العام الاول ٢ - ٩) التى ليس لها مثيل فى مصادر الشرق القديم، ولم يظهر لها مثيل، إلا عند ظهور الاسلام بين القبائل العربية. وتطلعنا هذه الوثائق بأسلوب تخطيطى على الهيكل الداخلى للسبب، ومع ذلك فإنها تعكس أيضا المسيرات المعقدة لصعود وهبوط الأسباط المختلفة بداخله، وتشعبها واندماجها مجدداً وانتقال الفرع الفلانى من أحد الاطر السبطية إلى إطار آخر، ورحلات الترحال - التى تكون احياناً بعيدة المدى - من قطاع لآخر، والحقيقة إن خطوط سير شجرة الانساب السبطية لا يتسم دائماً بالوضوح الكافى، بيد أننا نستطيع أن نعثر على ثمة مفاتيح توقفنا على نوايا مؤلفيها وذلك من خلال المنهج الذى سلكوه فى تأليف هذه القوائم، مثل إستخدام مفاهيم مستمدة من الهيكل الاسرى بمعناها الضيق والتركيز على العلاقات الناجمة عنها، وإذا كان الامر على ما يبدو لا يعدو عن كونه رموزاً. ومن ثم فإن المنطق يقول انه عندما نتحدث هذه القوائم عن الزواج أو المصاهرة فالمراد هنا رسم العلاقات بين العشائر السبطية من خلال صورة تخطيطية (سكيما). وعندما يدور الحديث عن منزل العائلة فى «معليت باخور»، فإن المؤلف يقصد الإشارة إلى مسقط رأس أقوى العشائر فى السبب. أما البنات فتمثلن بيوت الاباء أو التجمعات السكنية التابعة للمركز الرئيسى وتتمتع بحمايته مثل العبارة الشهيرة «مدينة وبناته». أما الزواج من محظية فيرد عادة ليرمز إلى العلاقات مع أصول عرقية غريبة أو من طبقات دنيا. (قارن أخبار الايام الاول ٧: ١٤)، أما الانتهاء إلى محظية أو جارية فيحتمل إنه يشير إلى هجرة أبناء العائلة من مسقط رأسهم إلى قطاعات حدودية مثلما درجوا فى العائلات القديمة ان يطردوا أبناء الإماء والمحظيات. (قارن مع القصص الواردة عن هاجر

وإسماعيل ومصير أبناء إبراهيم من المحظيات تك ٦: ٢٥، وما ورد عن يفتاح ،
قض ١١: ١-٢) ولعلنا قد نجد فيما سبق ثمة تفسير لا وضاع الاسباط
الاسرائيلية التي تنتسب إلى الجوارى حيث سكن أربعتهم: جاد ونفتالى
ودان وأشير عند الحدود الشمالية والشرقية المتاخمة للبقاع التي استوطنتها
بنو إسرائيل، وفي حوزتنا براهين قاطعة تؤكد أن السبطين الأخيرين
هاجرا من وسط فلسطين.

وقد نحتاج إلى قوائم الانساب نظراً لأنها تعكس هجرة العشائر
السبطية من حدود وتخوم الجبل المركزى باتجاه الحدود، تلك الظاهرة التي
يؤكددها ضمناً ذكر أسماء عائلات وأسر متحدة الالقباب فى أسباط مختلفة.
ومن أبرز الأمثلة لذلك مانجده فى شجرة أنساب سبط آشير (أخبار الأيام
الأول ٣٠ فصاعداً) الذى يرتبط عدد وفير من فروع بمنطقة الجبل المركزى
مثل عائلات بريعة ويقلط وشوعال وشيليش أو شيليشة، التى تسمى بأسمائهم
عائلات وقطاعات حدودية تقع بين مناطق سبطى افرايم وبنيامين (يشوع ١٦،
صموئيل الأول ٤٩؛ ١٣ - ١٧). وبناء على ماتقدم يجوز لنا ان نفترض أن
هذه العائلات، على غرار بنودان، لم يفلحوا فى الاستيطان فى نطاقات
استيطانهم الأولى إذ انسحقت بين أسباط بنى إسرائيل. وقد قطعت عشائر
منهم مسافات هائلة نحو غرب الجليل، حيث انضوت تحت لواء سبط آشير.
أضف إلى ذلك إن أغلب العائلات فى سبط آشير تنتسب إلى «حيبر» الذى
يبدو أنه مجرد اسم يرمز إلى الرابطة التى تؤلف بين بعض العائلات التى
واصلت الارتحال سوياً، ويؤكد ذلك معنى هذا اللفظ فى وثائق مارى (وقارن
حيبر هقيني الذى اعتزل قايين وارتحل إلى وادى يزرعئيل). إذن يشتمل «حيبر
بن بريعة الوارد فى انساب آشير كافة العائلات التى تنتهى إلى أسرة بريعة
والتي ارتحلت شمالاً، وذلك من أجل تمييزها عن الفروع التى تبقت فى
الجنوب وانضوت تحت لواء سبط افرايم وسبط بنيامين (أخبار الأيام الأول ٧:
٢٣، ٨: ١٣).

أما فيما يتعلق بسبط يساكر ومنشأة فتوجد براهين تفيد أن بعض عائلاتهم اللاتي سكن منذ البداية في منطقة الجبل الاوسط، ارتحلوا شمالاً إلى الوديان والجليل السفلى في مجموعة القضاة الصغار: «تولدع بن فوأة بن دودو رجل يساكر، الذي يمثل هو وأبيه الإسر الرئيسية في أنساب هذا السبط» (اخبار الايام الأول ١:٧)، وقارن هناك إبناً آخر ليساكر هو شمرون، المرتبط على ما يبدو بالاسم المقرائي شامير أو بـ «شيمير، صاحب جبل شوحزون» قد اقام في فترة متأخرة من عصر القضاة بجبل اشرائيم. ويمكننا ان نعثر على دليل لتدفق أبناء سبط منشأة شمالاً من خلال وصف الحدود الشمالية لهذا السبط الذي استحال تحديدها بدقة إلا بخطوط عامة فحسب: (ووصل إلى أشير شمالاً وإلى يساكر جهة الشرق، وكان لمنسى في يساكر وفي أشير بيت شان وقراها) (يشوع ١٧: ١٠ - ١١). وتحصى هذه الفقرات سلسلة من الجيوب الخاضعة لمنسى في داخل حدود الاسباط المجاورة له من الشمال. ويحق لنا ان نفترض ان عفرا كانت إحدى هذه الجيوب في نطاق حدود يساكر، وعفرا هي مسقط رأس جدعون الذي ينتسب إلى أسرة أبيعيزر من سبط منسى (قض ٦: ١٥).

كانت المناطق المترامية الاطراف الواقعة شرق نهر الأردن تعد مخرجاً رئيسياً لاستيعاب فائض السكان الذي ينوء به الجبل الاوسط. خاصة المنطقة الواقعة شمالي نهر ييوك، التي كانت فقيرة في عدد السكان، كما سبق أن ذكرنا. وفي الحقيقة يمكن ان نستخلص من قوائم الانساب ومن رموز أخرى واردة في المقر انه كانت هناك حركة هجرة واسعة صادرة عن كافة الأسباط القاطنة بالجبل إلى نهر الأردن، وكان سبط منسى في مقدمة هذه الاسباط، حتي ان الرواية المقرائية تتحدث عن «نصف سبط منسى» الذي يستوطن الجلعاد الشمالي حتى شرق الباشان. وأغلب نصف سبط منسى المشرقي هم لاريب من أبناء مكير الذين يرد ذكرهم في قصيدة دبورة كعشيرة سبطية

مستقلة فى جبل افرايم. (قض ٥ : ١٤). أما فى سائر اشجار الانساب فإننا نجد أن مكير هو أبوجلعاد وابن منسى (يشوع ١٧ : ١، أخبار الأيام الأول ١٤ : ٧) ويتضح ان مكير أو على وجه الدقة نصف أبناء مكير (يشوع ١٣ : ٣١) ارتحلوا شرقا واحتلوا مناطق فى الجلعاد والباشان (قارن عدد ٢٢ : ٢٩، يشوع ١٧ : ٢) وبمرور الوقت تم ادخالهم فى النطاق السبطينى الاوسع لبنى منسى، وهى الحقيقة التى تتجلى أيضا فى الروايات الواردة عن موادهم على ركبتى يوسف. (تك ٢٣ : ٥). بيد ان الكثيرين من أبناء اشرم ارتحلوا إلى الجلعاد كما نفهم من وجود «وعر إفرام» الذى إختص به أباشالوم، ونفس المنطقة (مسموئيل الثانى ١٨ : ٩) تفسر الحرب الأهلية فى عصر يفتاح.

وقد كان وضع سبط بنيامين، على وجه الخصوص، حيث انحسر فى «إرثة» الجبل الضئيل بين أبناء يوسف وأبناء يهوذا وكان حده من الغرب السكان الغرباء. ولذلك فإنه لاغربة إذا كان قد وجد متنفسا لفائض سكانه فى شرقى نهر الاردن بالذات. وتضم المقرات شهادات كثيرة عن العلاقات الوثيقة التى ربطت بين سبطى بنيامين وبين شمال الجلعاد مثل الحكايات عن المحظية فى الراما وتخليص شاعول لياييش الجلعاد، وتتجلى هذه العلاقات أيضاً فى قوائم الانساب، التى تذكر عائلات ذوات أسماء متطابقة (شويم وحوبيم) فى شجرة أنساب بنيامين ومكير بن منسى (أخبار الأيام الأول ٧ : ١٢ ومن جهة أخرى فقرة ١٥). وعلى ذلك يمكننا، تعويلاً على الصياغة المقرائية فيما يتعلق بمنسى ومكير، أن نتحدث عن شئ أشبه «بنصف سبط بنيامين الذى استوطن شرق الأردن. وبالفعل قد نجد أصداء لهذا الانتشار تنبعث مما ماجاء فى نبوءة النبى عوبديا بشأن استيلاء سبط بنيامين على الجلعاد (عوبديا ١ : ١٩) وينطبق نفس الامر على سبط يهوذا الذى قيل عن احدى عائلاته الرئيسية: «وبعد دخل حصرون على بنت مكير أبى جلعاد واتخذها وهو ابن ستين..»

فولدت له سجون وأنجب سجون. يائير (أخبار الأيام الأول ٢: ٢١ - ٢٢)،
اذن يمكننا ان نقول ان فروعاً من عائلة حصرون المتشعبة التي تنتسب إلى
سبطى يهودا او رؤبين (أخبار الأيام الأول ٣: ٥)، قد هاجرت إلى الجلعاد،
وهناك اختلطوا بعائلات مكير أستوعبت بداخلها أصولاً أخرى، أقارب لبنى
إسرائيل، استوطنت نفس المكان.

ويشير النموذج الأخير إلى ظاهرة ذائفة بوضوح فى قوائم الانساب،
وهى إحتواء أصول عرقية غريبة بين ظهرانى أسباط بنى إسرائيل، سواء فى
صورة امتزاج أو ذوبان إثنى حقيقى أو مجرد ضم تجمعات سكنية قديمة
داخل الاطارات السبطية، مثل مدينة شكيم التي يرد ذكرها كأحد الأبناء فى
شجرة أنساب منسى، ومن المهم أن ننقب وننبش خلف مثل هذه العمليات
الاستيطانية خاصة فيما يتعلق بسبط يهوذا، الذى صوّرت منطقة استيطانه
بأسلوب تفصيلى بالغ (يشوع ١٥) وتمخضت عن هذا السبط قوائم أنساب
غنية (أخبار الأيام الثانى ١: ٢ - ٢٣) بسبب الاهتمام الخاص الذى أولاه
مدونى المقرأ لهذا السبط. وهذه القوائم توضح التشريح المعقد للهيكل السبطى
الذى يعتبر نتيجة انتشار السبط فى جنوب فلسطين فى تخوم الجبل وغور
يهوذا وحدود النقب، حيث كان يوجد بالفعل استيطان أجنبى تليد كنعانى
وهورى بالاضافة إلى بعض القبائل التي استوطنت هذا المكان منذ فترة قريبة
شأنها شأن أسباط بنى إسرائيل. وتتجلى هذه التشكيلة العجيبة من الأصول
العرقية الغريبة فى مستهل قائمة الانساب التي تورد بالتفصيل أحفاد يهودا
من امرأة كنعانية (نفس المرجع ٣: ٢ وقارن قضية يهوذا وتامار تك ٣٨). لكن
هذا الامر على وجه الخصوص يخرج من سياق قوائم الانساب التي تشتمل
بوفرة على اسماء كنعانية وهورية، يمكن تحديدها إن وجهت اليها دراسة علمية
دقيقة. وقد تم، فى الار سبط يهوذا على وجه الخصوص، إحتواء أسباط
تربطه بها صلة دم، كانت قد تجولت فى فترة الغزو بمنطقة الحدود الجنوبية

مثل القينى والقنيزى واليرحمنلى، ومنهم من توغلوا شمالاً باتجاه حبرون
وبيت لحم مثل بنو كليب الذين شكلوا أساساً مهماً فى الهيكل النهائى
لسبط يهوذا.

ولعل هيكل سبط يهوذا، شأنه أسباط أخرى، يشير إلى ميل هذا السبط
إلى الامتزاج بسهولة مع أصول عرقية غريبة، فى مقابل أسباط أخرى أو
بعض عشائرها كانت تتزمت فى الحفاظ على نقاء السبط، واستوعبت الأصول
العرقية الأخرى بصعوبة بالغة. وقد ساد فى مجتمع بنى إسرائيل الأبوى فى
البداية مبدأ التزاوج الداخلى بين أبناء وبنات السبط، ويتجلى هذا الأمر فى
الروايات عن حرص الآباء البطارقة على مصاهرة الأقرباء، لكن بمرور الوقت
تراجع هذا المبدأ، خاصة بين الأسباط الذين إحتكوا فى أماكن استيطانهم
بتجمعات كبيرة من السكان الأجانب وانتشرت بين عدد منهم عادة التزاوج من
خارج السبط. وبالإضافة إلى سبط يهوذا يبرز الميل إلى الاختلاط الإثنى، على
وجه الخصوص، لدى سبط شمعون، الذى اتصل بالسكان الكنعانيين أثناء
ترحالهم قرب حدود فلسطين علاوة على التقائهم بالقبائل الجوالة فى برية
الجنوب. فأول أحفاد شمعون الرئيسيين كان ينتسب إلى امرأة كنعانية، (تك
٤٦: ١٠) كما أن مبشم ومشمع تتماثل أسماؤهم مع أسماء بنى إسماعيل.
(أخبار الأيام الأول ٤: ٢٥، تك ٢٥: ١٣ - ١٤). ونلاحظ فى المقرا إشارة
تؤكد الميل إلى التزاوج من خارج السبط فى قصة بعل فغور التى تصور علاقة
البغاء بين بنى شمعون وبنات مديان (عد ٢٥: ٦ فصاعداً).

وسنختتم الحديث عن مسيرات الاستيطان السبطى، كما نتضح من
خلال قوائم الانساب، بملاحظة ذات مغزى تظهر فى هذه القوائم فيما يتعلق
بتبادل البكورية بين أسباط بنى إسرائيل، وهو الأمر الذى يفيد تغير مكانة
الأسباط بالنسبة لعموم الأمة: «وبنو رأوبين بكر إسرائيل لأنه هو البكر ولأجل
تدنيسه فراش أبيه أعطيت بكوريته لبنى يوسف بن إسرائيل فلم ينسب بكرأ

لأن يهودا اعتز على اخوته ومنه الرئيس أما البكورية فليوسف». (أخبار الايام
الاول ٥: ١ - ٢). وتدلل هذه الفقرة على انحطاط مكانة سبط رأوبين، الذي
كان يحتفظ بحقه في البكورية منذ البداية. (قارن تك ٤٩: ٣ - ٤، وتث ٣٣: ٦)
وتعاضم سبط يوسف وأخيراً تعاضم وازدياد ثقل سبط يهودا، أما بالنسبة
للثقل المتزايد الذي بدأ يحوزه سبط افرايم بين ظهراى بنى يوسف فى فترة
الاستيطان فتدلل عليه الروايات عن نقل البكورية من منسى إلى افرايم فى
مباركة يعقوب لاحفاده (تك ٤٨: ١٣ - ٢٠).

عصر القضاة

حكم القضاة:

يقوم الاستعراض التاريخي لعصر القضاة، بالضرورة، على مجموعة القصص الواردة في سفر القضاة، بالإضافة إلى الإشارات القليلة الواردة في المصادر المقرائية الأخرى، التي تنطوي على معلومات إضافية تتعلق بالفترة موضوع الحديث. ويقوم الأطار البراجماتي - التاريخي، الذي تقاطرت فيه قصص القضاة، على وجهة النظر المؤمنة بدورة التاريخ، وهي رؤية إسرائيلية. في عمومها. ووفقاً للأولى تبدو أحداث هذه الفترة مثل حلقات متكررة من وقوع اليهود في العبادات الوثنية، واستعباد الأغراب لهم، والصراخ ليهوه من أجل الخلاص وافتدائهم بيد مُخلص، يهبهم فترة هدوء مديدة. وقد فرضت وجهة النظر هذه على السفر ظهور القضاة وفقاً لتسلسل تاريخي. أما الرؤية الإسرائيلية، التي ربطت أحداث هذه الحقبة ومجال أعمال القاضى بخلفية قومية إقليمية فإنها تنطوي على قدر كبير من المبالغة، على الرغم من أن عدداً من الأسباب قد تضرر فعلياً من الضغوط الأجنبية، بوجه عام، واقتضت عملية التحرر من نير المستعبد وجود ثمة تعاون بين مجموعة من الأسباب.

وقد صورَ نظام حكم القضاة، عن حق، بناءً على نظرية الأنظمة الحاكمة لعالم الاجتماع ماكس ويبر، على أنه زعامة كاريزماتية شخصية، وذلك للتمييز بينه وبين السلطة الأبوية - السبطية، التي تبوأها شيوخ القبائل ورؤساء العائلات، من ناحية، وبين السلطة الكاريزماتية المؤسسية التي ظهرت بعد ذلك في عصر الملكية، من ناحية أخرى. وتنبع السلطة الكاريزماتية من الإيمان بأن الشخص صاحب الكاريزما يتمتع بحظوة خاصة يسبغها عليه الإله، ويتجلى الأمر في التجليات الدينية المختلفة والروح البطولية التي تنبض بداخلهم. وتمتاز الزعامة الكاريزماتية بأنها عفوية وذاتية، دون أية ارتباطات

بالأنساب أو المكانة الاجتماعية، ولا تنتقل بالوراثة. ويؤدي التطلع إلى ظهور مثلث في أوقات الضيق والازمات إلى احتشاد الشتب حوله حال ظهوره، بطريقة حرة، ومن خلال صحوة دينية قومية، اذن فإن النظام السياسى فى عصر القضاة اتسم بالضعف، إذ كانت النظم الاجتماعية الثابتة والحياة اليومية تتجمع فى أيدي رؤساء العائلات ومؤسسة الشيوخ، إلا أن الصلاحية البطيريركية - السبطية ذاتها أخذت تضعف أثناء عصر القضاة، نتيجة استقرار أنساب بني إسرائيل على الأرض وتكيفهم مع ظروف التجمعات السكانية الحضرية من أهل كنعان، الذى أسفر، بقدر أو بآخر، عن الميل إلى تفضيل المبدأ الإقليمي على مبدأ قرابة الدم.

وقد كان القضاة الكاريزماتيون الكبار، الذين قرروا مصير الشعب بأعمالهم البطولية، وفقاً لترتيبهم فى سفر القضاة، عثنيل وإيهود، وعلى مايبدو أيضاً شمجر بن عناة، الذى لم تحتفظ المقرأ من قصته سوى بفقرة واحدة، (قض ٣: ٣١) وجدعون، والثنائى دبورة وباراق ويفتاح وشمشون، وإن كان الأخير عمل بصورة فردية، ولكن سفر القضاة يورد أيضا نموذجا آخر من القضاة، وهم القضاة الصغار الذين لم ينسب لهم أعمال بطولة فعلوها من أجل إسرائيل، وإنما على مايبدو انهم كانوا من ذوى الحسب فى الاسباط، وهم تولاع بن فؤاة (رجل يساكر) ويائير الجلعاى وإبصان من بيت لحم (ربما المقصود مكان بين ظهرانى سبط زبولون) وأيلون الزبولونى وعبدون البرعتونى من جبل إفرايم، (قض ١٠: ١ - ١٢/٥ - ٨: ١٥ - ١٥).

وهناك رأى رائج بين الباحثين يرى أن القضاة الصغار شغلوا منصب عموم إسرائيلى ثابت ومتواصل، ولم يكونوا قضاة مُخْلِصِينَ وإنما قضاة فعليون، تعهدوا برعاية القانون فى الفترة التى سبقت عصر الملكية. ويفترضون أيضا أن المحرر المتأخر الذى دُون سفر القضاة أعد قصص القضاة المُخْلِصِينَ على شاكلة قصص القضاة الصغار، أى أنه حوّل

الشخصيات الكاريزماتية إلى قضاة حاكمين. وينبغي ألا نقبل مثل هذه الافتراضات، وخاصة الزعم بأن مسألة القضاء لدى الزعماء الكاريزماتيين هي إضافة متأخرة. جاءت لتزاحم نظرية المُخْلِص، التي تمثل الرفض الأساسي القديم. ويتضح من مصادر خارج المقرأ، أن مصطلح قاض هو مصطلح قديم ويفيد معنى الحاكم والوالى. وقد جاءت وثائق مارى لتفيدنا أن لفظ «قاضى» استخدم فى الربع الأول من الألف الثانى لتشير إلى صاحب منصب فى الهيكل السبى، وأن صلاحيات صاحب هذه المنصب تختلف تماما عن إصدار الأحكام القضائية، ويرد مصطلح «قاضى» فى الكتابات الفينيقية أيضا بمعنى حاكم وخاصة فى اللهجة البونية، وربما ورد بهذا المعنى أيضا فى الوثائق الأوجاريتية.

وبناء على ماتقدم فإن اللفظ «شوفيط»، سواء لدى القضاة الكبار أو الصغار، لا يعدو عن كونه إشارة إلى زعامة الشعب، التى تشتمل تلقائياً على صلاحية التحكيم والحسم فى القضايا، إلى جانب تخليص الشعب وتحريره من سيطرة الأعداء. ويبدو أن الفارق الكبير، البادى لنا من خلال القصص الواردة، بين القاض المُخْلِص والقاض الصغير ناجم فى الأساس عن طبيعة المصدر الأدبى الذى يصف كل من النموذجين، حيث رويت أعمال القضاة الكبار من واقع القصص الشعبى، أما المعلومات عن القضاة الصغار فقد استمدت من توارىخ عائلية، تشمل تفصيلات عن أصول القاضى، ومكانه وفترة حكمه، وموقع قبره، وعدد أحفاده... الخ.

ومن الممكن والمحتمل أن القضاة الصغار كانوا أيضا زعماء وقادة عسكريون. ولكن لم يحتفظ سفر القضاة بحكايات عن بطولاتهم، ويمكن أن نستخلص ذلك من قصة يائير الجلعادى الذى يصور فى رواية خارج سفر القضاة على أنه فاتح شرق نهر الأردن (انظر عدد ٣٢: ٤١). وقارن أخبار الأيام الأول ٢: ٢٢). ومن جهة أخرى نجد بعض السمات المميزة للقضاة

الصفار لدى القضاة المُخْلِصين مثل يفتاح الذى ترد فى نهاية قصته بعض التفاصيل التى تميز قصص القضاة الصفار (قض ١٢: ٧)، وكذلك لدى دبورة التى اشتهرت قبل حرب التحرير بأنها قاضية بنى إسرائيل فيما بين الراما وبين بيت إيل (قض ٤: ٤ - ٥). ويظهر الترابط بين صنفى القضاة بصورة واضحة فى شخصية يشوع الذى كان مخلصاً لبنى إسرائيل كان يقضى ويحكم بين الاسباط. مثلما حدث عند ما طالب بنو يوسف بتوسيع حدود إرثهم (يشوع ١٧: ١٤ فصاعداً).

وعلى الرغم من كافة المآخذ، فإن قصص سفر القضاة ذات قيمة بالغة، بوصفها مصدراً للتعرف على نمط الحياة فى عصر القضاة وعلى الظواهر التاريخية التى تميز هذا العصر. وهناك أيضاً لفيفة (مجيلاه) «روث» التى تعد شاهداً على الواقع الذى ساد إبان حكم القضاة (روث ١: ١). وليس هذا فحسب بل إن كل قصة من قصص القضاة المُخْلِصين تجسد صراعاً مع عدو من طراز خاص، مختلف، سعى إلى عرقلة خطوات بنى إسرائيل، وتسلب الأضواء على المشاكل الخاصة التى رافقت كل صدام من هذه الصدامات: فتحف قصة ديبورة الصراع مع الكنعانيين، أصحاب الأرض الأصليين، وتمثل قصة جدعون نموذجاً للصراع مع القبائل الجواله، قبائل الصحراء (مغيرى الصحراء). وتقدم قصص إيهود ويفتاح نموذجاً للحروب مع شعب الحدود المرابط بشرق الأردن، الموابين والعمونيين، وتسلب مجموعة قصص شمشون الأضواء على القوة الفلسطينية الآخذة فى التعاظم داخل البلاد.

حرب دبورة وباراق :

لقد أدى إزدياد قوة بنى إسرائيل، وإزدياد عددهم وتغير وجه البلاد نتيجة لهذه الأمور، إلى المساس بأصحاب البلاد الأصليين الذين طردوا من أجزاء كبيرة من أراضيتهم مما دفعهم إلى أكبر صدام عسكري ومصيرى واجه بنى إسرائيل فى عصر القضاة، وهو حرب دبورة وباراق مع الكنعانيين. وقد كانت هذه الحرب كسائر حروب إسرائيل فى عصر القضاة حربا دفاعية فرضت على بنى إسرائيل من الكنعانيين الذين فيما يبدو، حاولوا المحاولة الشاملة الاخيرة فى شمال البلاد لاعادة الامور إلى نصابها.

وتضع حرب دبورة الباحثين أمام صعوبات تاريخية وتأريخية خطيرة للغاية ترجع إلى الرواية المزدوجة، الادبية والغنائية، عن هذه الحرب (القضاة الاصحاح الرابع والخامس) وعلاقتها بحرب مياه ماروم وتخريب حاصور التى فى سفر يشوع.

لقد وقعت حرب دبورة فى القرن ١٢ ق.م، وليس فى مرحلة أقدم من هذا. والدليل على هذا ورود اسم شمجر فى نشيد دبورة، والذي هو ليس إلا شمجر بن عنارة الذى أنزل هزيمة بكتيبة فلسطينية مكونة من ستمائة رجل. وشمجر بن عنارة، سواء كان إسرائيليا أو كان من أصل كنعانى، كما يدل اسمه على ذلك، يعتبر من وجهة النظر الإسرائيلية بمثابة مُخلص بفضل انتصاره على الفلسطينيين. ولكن مثل هذا الصدام والذي وقع، حسبما يبدو، فى شمال البلاد، من الصعب افتراض حدوثه قبل بداية القرن الثانى عشر ق.م، حينما اقترب الفلسطينيون من حدود البلاد، وكانت حرب دبورة بعد هذا الحدث. ويدل على وقوع حرب دبورة فى تاريخ متأخر نسبيا ورود اسم سبط دان فى نشيد دبورة بين جلعاد وأشير، أى بعد أن تمكن السبط من الهجرة

إلى منطقة في الشمال. وفي هذا الخصوص لابد من الإشارة إلى الرأي القائل بأن مكان المعارك كان هو «تعنك التي على مياه مجدو» (قضاء ه: ١٩) ولم يكن المركز الرئيسي لها هو مجدو نفسها، وهناك من يستنتج من ذلك، أن مجدو كانت خربة في ذلك الوقت. وعلى هذا الأساس يمكن تحديد زمن حرب دبورة على أنها وقعت في الفترة بين الخراب الكبير للمدينة السابعة لمجدو وتأسيس المدينة السادسة، أي حوالي ١١٢٥ ق.م.

وهذا التاريخ يناسب نتائج الحفريات التي تمت مؤخراً في تعنك، (والتي ضربت المدينة الكنعانية وفقاً لها في بداية القرن الثاني عشر ق. م، وهو التخريب الذي يحتمل أن بنى إسرائيل هم الذين قاوا به) وبإستعادة قصة دبورة لآبد من الارتكاز على الوصف الأدبي المتأخر وكذلك على نشيد دبورة، والذي يعتبر مصدراً أقدم بلاشك، وربما كان معاصراً للأحداث. ويرى البعض أن هذين المصدرين متناقضين، بينما يرى البعض الآخر أنهما يكملان كل منهما الآخر. والفروق الأساسية بين المصدرين، أي عدد الأسباب التي قامت بدور في المعارك والمعلومات الطبوغرافية لميدان المعركة، لاتعكس فيما يبدو إلا مراحل مختلفة من نفس الحرب. وبناءً على هذا فقد قام بالجهد الأساسي في هذه الحرب أسباب تفتالي وزبولون، اللذين ذكرا في كل من القصة والنشيد. ان المقاتلين العشرة آلاف الذين وضعتهم هذه الأسباب تحت إمرة باراق بن ابينوعم والذي ينتمي إلى سبط نفتالي، قد تمت قبادتهم إلى جبل تابور. وتابور تتميز بميزات عسكرية كبيرة وبإمكانية استطلاع لمسافات بعيدة وقدرة على متابعة تحركات العدو، وتنظيم القوات الاسرائيلية خارج نطاق اصابة المركبات الكنعانية وتجعل المبادرة الهجومية في يد القيادة الإسرائيلية.

وقد وصل بنو إسرائيل إلى الحد الأقصى من التضامن القومي ضد الاعداء في عصر القضاة: من بنيامين في الجنوب وحتى نفتالي في الشمال. وقد كانت القبائل التي أقامت في المناطق الجبلية، أو في سهولها هي التي

أخذت زمام المبادرة للحرب، لأنها كانت أقل تعرضاً لضغط الكنعانيين وكانوا أكثر صلاحية للصدام، أما أسباط الوادي، والذين كانوا مرغمين على الإقامة في أماكنهم مع الخضوع لاستعباد الكنعانيين، وكانوا المستفيدين الأساسيين من هزيمة العدو، فلم يكن في إمكانهم أن يبدأوا الصراع ضد الكنعانيين. وعلى ضوء هذا الانتصار قويت مكانة بني إسرائيل في وادي يزرعئيل وتم تأمين التابع الاقليمي بين أسباط الجليل وأسباط الوسط.

حرب جدعون ضد قبائل الصحراء:

لقد ساهم انتصار بني إسرائيل على الكنعانيين، فيما يبدو، في تقريب أخطار جديدة على الاستيطان في شمال البلاد. لقد هزت هزيمة الكنعانيين القوة الدفاعية الكنعانية في المنطقة الشمالية والحالة الأمنية وكشفت البلاد أمام الغارات من الخارج، وعلى الأخص من القبائل الصحراوية. وقد كانت هجمات القبائل الصحراوية على المناطق المزروعة وعلى المناطق الأهلة بالسكان ظاهرة تاريخية تتكرر باستمرار في فترات الضعف السياسي والعسكري، على النحو الذي حدث في أيام الاستيطان الإسرائيلي. ولم تتوقف مثل هذه الهجمات إلا بعد استتباب الأمور والحكم في عهد داود. واقترب قصة جدعون من قصة دبورة في سفر القضاة استناداً إلى هذه الظاهرة فيها منطق تاريخي داخلي.

لقد تدافع البدو الجوالون بجموعهم من حدود الصحراء وهم يشكلون تضامناً من عدة قبائل في شكل اتحادات ضعيفة إلى حد ما، وكانوا يقومون كل بتصفية الآخر، مثل مديان، ويشمعئيل، والهاجريون والعماليق، وكان المنتصر منهم يفرض نفسه على الائتلاف الاتحادي كله. وقد كان المديانيون على رأس موجة القبائل التي قامت بغزو أرض كنعان الغربية في عصر جدعون ووصلوا إلى ذروة قوتهم في القرن ١٢ ق.م، وكان برفقتهم العمالقة بنو المشرق (القضاة ٦: ٣، ٧، ١٢) وقد كانت منطقة تجمع المديانيين هي

حدود شرق الاردن الجنوبية، ومن هنا علاقاتهم الخاصة بالمؤابيين وبمملكة سيحون الأمورى. ولكن طرق تجوالهم امتدت على مساحات شاسعة حتى مصر فى الغرب، ووديان الفرات فى الشمال، وصلت فروع قبائلهم إلى سبأ فى جنوب الجزيرة العربية. قد كانت هذه الجولات طويلة المدى، وكان الازدهار الذى حظيت به هذه القبائل، هو ثمرة استئناس الجمل وتربيته وتكاثره بمدى واسع، وهو الأمر الذى بدأ فى القرن ١٢ ق.م. ومنذ ذلك الحين أصبح الجمل هو الركيزة الاقتصادية الأساسية للحياة فى الصحارى العربية، واستخدم كذلك فى الأغراض القتالية.

وقد كان هدف غزوة بنى مديان فى أيام جدعون، والتى حدثت حسبما يبدو فى مطلع القرن ١٢ ق.م، هو وادى بيت شان ووادى يزرعئيل، وفيما وراءها السهول الخصبة الممتدة على طول الساحل. وقد تمكنوا من التسلل بعمق حتى غزة (قضاة ٦: ٤)، بسبب سقوط عواصم المملكة الكنعانية، وبخاصة التابعة للسلطة المصرية، فى «طريق البحر» فى النصف الثانى من القرن ١٢ ق.م. وحسب عادة القبائل الصحراوية فإن جيوش المديانيين كانت تتحرك بنسائها وأطفالها فى شهور الصيف، فى وقت نضج المحاصيل، ويقومون بالسلب والنهب والتدمير للمحاصيل، ولذلك فقد أضرير الاستيطان الاسرائيلى الزراعى بصفة خاصة.

وقد اضطر بنى إسرائيل فى مواجهة هذا الأمر إلى إعداد «الكهوف التى فى الجبال والماير والحصون» (قضاة ٦: ٢) من أجل انقاذ أنفسهم ومحاصيلهم، ولكى يقوموا بأعمالهم فى ظروف الطوارئ مثلما فعل جدعون عندما «خبط الحنطة فى المعصرة لكى يهر بها من المديانيين» (قضاة ٦: ١١). ومما يشير إلى عدم شيوع الأمن فى هذه الفترة تلك الاكتشافات الاثرية والتى تشير إلى وجود عدد كبير من المغارات فى مناطق المدن من أجل تخزين المحاصيل.

وقد قاد الحرب هذه المرة جدعون بنى يواش الابيعزرى من سبط منسى، وقد سبقت هذه الحرب كسابقاتها عملية يقظة قومية دينية. ويصف العهد القديم بالتفصيل الاصلاح الدينى الذى قام به جدعون، والقضاء على عبادة البعل والسارية فى موطنه عفرة، وذلك على غرار ما فعل شاؤول عشية حملة ضد الفلسطينيين. وقد استدعى للحرب ضد المديانيين بالاضافة إلى منسى كل من أشير وزبولون ونفتالى وفى مرحلة متأخرة بنى إفرائيم.

ويشير تخطيط العملية العسكرية وتنفيذها الناجح، إلى أن جدعون استغل بالكامل عناصر المفاجأة والحرب النفسية، مما أشاع الربكة فى معسكر المديانيين وأرغمهم على الهرب فزعين مع الفجر إلى وادى الاردن. وقد ظل هذا النصر رمزاً للأجيال عند بنى إسرائيل ووصف بأنه «يوم مديان» (سفر اشعيا ٤:٩). ولكن جدعون حاول، من ناحية، قطع طرق انسحاب العدو فى منطقة الاردن بواسطة قوات بنى افرائيم، ومن ناحية أخرى قام بعملية مطاردة طويلة وراءهم. وقد فاجأ قواعد المديانيين فى قرقر التى فى وادى سيرحان، وسقط فى يده كذلك ملكا مديان زبح وصلمناع. وفى طريق عودته عاقب، أمراء سكوت وشيوخها، أى القيادة المسئولية عن إدارة المدينة، وشدد العقوبة على فنوئيل، حيث قتل سكانها وأحرق حصنها وذلك لأن سكان هاتين المدينتين رفضوا تقديم المساعدة لكتيبته فى أثناء المطاردة خوفاً من انتقام المديانيين.

الارهاصات الاولى لاقامة الملكية فى أواخر فترة جدعون وقصة ايمالك:

إن الميل لجعل نظام الزعامة الكارزمية مستقراً ومنحه صفة الدوام والاستمرارية، هو من الظواهر الموجودة فى تاريخ الانظمة التى من هذا النوع، وقد أثيرت فى بداية عصر القضاة فكرة الحكم الملكى وأدت إلى

المحاولات الاولى من اجل تحقيقه، وهى المحاولات التى أدت إلى جدل واختلافات بين بنى إسرائيل.

فعلى غرار ماحدث مع شاؤول، حيث عرض عليه الملك، حسب احدى الروايات الواردة فى العهد القديم فى إثر انتصاره على بنى عمون (صموئيل الاول ١١) فإنه قبل ذلك بعدة أجيال توجه «رجال إسرائيل» إلى جدعون وطلبوا تنصيبه ملكا عليهم، بعد أن عاد مكللا بالنصر على بنى مديان. ولكن جدعون رفض هذا العرض بقولته المشهورة «نن أتسلط أنا عليكم ولايتسلط ابنى عليكم، الرب يتسلط عليكم» (قضاة ٨: ٢٣)، وهى الجملة التى تعكس وجهة النظر بشأن تسلط الرب، وسواء كان هذا القول قد قاله جدعون بالفعل أو قد وضع على لسانه، فإنه، على أية حال، ليست ثمرة تدوين ثيوقراطى متأخر، بل انعكاس مخلص للاتجاهات التى كانت سائدة بين بنى إسرائيل فى عصر القضاة، حيث كانوا يستمدون وحيهم من الأيمان بحرية الفرد.

وهناك دليل أقوى على وجهة النظر المعادية للملكية فى تلك الفترة الزمنية نجده فى قصة يوثام، التى تعرض الملكية باعتبارها مؤسسة ظالمة جائرة، لا فائدة لها ولا غاية. وبالإضافة إلى هذا، يشير عرض الملكية على جدعون ويوثام، إلى أن الرغبة فى تحويل الزعامة الكارزمية إلى نظام حكم ثابت ودائم قد ضربت بجذورها لدى قطاع من بنى إسرائيل، ولكن المعارضة كانت أقوى لدى قطاعات أخرى من بينهم. وينطبق نفس الشئ على اتجاهات السلطة عند يفتاح وشيوخ جلعاد، الذين استجابوا لطلبه بأن يحظى بمكانة «رجل لكل المقيمين فى جلعاد» أى حاكم أعلى يواصل تقوية صلاحياته فى أيام السلم والحرب.

وبالرغم من رفض جدعون عرض الملكية، فإنه قد حظى بإحترام كبير بفضل عملية الخلاص التى قام بها وركز فى يديه صلاحيات واسعة، سواء فى مجال الحكم أو فى مجال الدين (إقامة، الإيفود وتحويل عفرة إلى مركز

للعباداة). ولكنه لم يعط رأيه فى مسألة وراثة السلطة، ومن هنا نشأ نزاع دموى بين ابنائه الكثيرون بعد أن مات «فى شعبة صالحة». وقد كان أبيمالك ثمرة زواج جدعون من ابنة أحد نبلاء شكيم، وكان بمثابة زواج ديبلوماسى، حيث استغل روابطه الاسرية من ناحية أمه من أجل إبعاد إخوته والاستيلاء على السلطة فى شكيم. وقد أيد «أهل شكيم»، أى القيادة الروحية للمدينة، تنصيب أبيمالك ملكا، وذلك لمصالح اقتصادية ونهجا على الايمان بالتقاليد القديمة المتجذرة بنظام الحكم الملكى الذى كان متبعاً فى المدن الكنعانية. وقد كانت الحسابات خاطئة، لأن أبيمالك الذى فرض سلطانه على جبل إفرائيم بمساعدة كتيبة من المرتزقة «رجال بطالين طائشين»، قد تولى عن شكيم كمقرله وأصبح قوة سياسية واقتصادية منافسة لنبلاء المدينة. وقد كان هذا هو سبب النزاعات والاحتكاكات بين أبيمالك والطبقة الحاكمة فى المدينة، بينما كان جعل بن عابد يدعو إلى الثورة ويستغل التوتر الاجتماعى، وربما العرقى، الذى ساد بين طبقات السكان المختلفة فى المدينة. ويبدو أن جعل قد دبر مؤامرة مع الطبقة النبيلة القديمة فى المنطقة والتى تنتسب إلى «حمور أبى شكيم» (قضاة ٩: ٢٩) وكانت محسوبة حسبما يبدو، ضمن الاستيطان الحوى (راجع سفر التكوين ٣٤: ٢)، ضد سائر الاستيطان الكنعانى وعلى الأخص ضد العناصر المخلصة لأبيمالك والذين كان على رأسهم زبول «حاكم المدينة». وقد قضى أبيمالك على التمرد فى شكيم بقسوة ودمر المدينة تدميراً كاملاً، كانت علامته أن زرع الملح مكانها.

وقد أكدت الحفريات فى شكيم بوضوح تخريب المدينة فى نهاية القرن ١٢ ق.م وأوضحت إلى حد كبير ماهو وارد فى قصة أبيمالك. وقد اتضح ان شكيم قد قسمت إلى مدينة سفلى وإلى قلعة، كانت مبنية على قطعة أرض هى المشار إليها فى القضاة ٩: ٦ (سكان القلعة). وقد اكتشفت هناك سلسلة من التحصينات المتداخلة يرتفع فى مدخلها برجين، ويبدو أن هذا ليس إلا

«برج شكيم» الذى يتبعه «برج بيت إيل بریت» حيث تحصن هناك سكان شكيم، بعد احتلال المدينة السفلى. وقد دارت سلسلة مشابهة من المعارك حول مدينة تابامى، التى تمردت هى الأخرى على سلطة أبيمالك. وقد انسحب السكان من هناك أيضاً بعد احتلال المدينة السفلى إلى «مجدل عوز» ، أى إلى منطقة الحصن والهيكل المقدس، وتحصنوا فى الجزء الأعلى من المبنى، على «سطح البرج (قضاة ٩ : ٥١)، ولكنى ابيمالك لقي حتفه هناك، حينما اقترب من السور بأن رمت عليه امرأة قطعة من رعى، وقد أصبحت هذه الحادثة عبرة ودرسا بعد ذلك فى محاصرة الحصون وغزوها.

إذن لقد كان نظام الحكم فى فترة ابيمالك بمثابة ملكية قاصرة على مدينة، وحكم قبلى على جزء من بنى إسرائيل، وهى محاولة باءت بالفشل بعد ثلاث سنوات. وعلاوة على ذلك، فإنه حيث أن نظام الحكم هذا قد استمد وحيه من الايديولوجية الملكية الكنعانية ودعمه الاستيطان الكنعانى، وسبقه حمام دم بين بنى إسرائيل، فلا غرابة فى أن الرواية المقرائية قد رفضته من اساسه. إن الرواية المقرائية نظرت إلى ابيمالك على أنه ليس ملكا وليس قاضيا بل رجلاً ظالماً، وأشارت إلى أنه «ترأس ابيمالك على إسرائيل ثلاث سنين» (القضاة ٩ : ٢٢). إذن، فإن هذه الملكية التى لم تقم بالقوة الكارزمية، مثل ملكية شاؤول وداود، وكانت تفتقد إلى الاساس الشرعى فى التقاليد الاسرائيلية، وكانت بمثابة تجربة فاشلة. ولم تكن الساعة قد حانت بعد لقيام حكم ملكى فى إسرائيل.

الصدام مع شعوب شرقى نهر الأردن (قصة إيهود ويفتاح)

ظهرت آثار حالة التوتر التى خيمت على العلاقات بين بنى إسرائيل وجيرانهم، نتيجة تزايد وتنامى استيطان بنى إسرائيل، ظهرت آثارها أيضاً فى شرقى نهر الأردن. وقد اختلف الأمر عما كان عليه فى غرب فلسطين، حيث واجه بنو إسرائيل أصحاب الأرض الأصليين، أما هنا فقد جابهوا شعوباً أقارب لهم من حيث المنشأ، شعوب مالبثت أن استوطنت وبنفس الطريقة التى سلكها بنو إسرائيل. لقد وقع الصدام بين بنى إسرائيل والموآبيين والعمونيين. ويرى كثير من الباحثين أن كوشان رشعائيم، أول من استعبد بنى إسرائيل حسب ماورد فى سفر القضاة، الذى ألحق به عوتثنيل بن قناز الهزيمة، هو ملك أدوم وليس ملك آرام نهارييم. ويطالبون بتعديل صيغة المقرأ بهذا الشأن، بيد أن هذا الاعتقاد لا يتمشى مع العقل (انظر صموئيل الثانى ٣١/٢). وحتى فى شرق الأردن بالمنطقة الواقعة شمالى ييوق، حيث امتدت مناطق فسيحة فقيرة بالسكان، لم يتسبب انتشار الأصول البنى إسرائيلية والارامية فى اندلاع حروب حقيقية.

وفى المقابل، بالقطاع الفلسطينى الزاهر الواقع بين ييوق شمالاً وأرنون جنوباً، والذى يمتاز بظروف طبيعية جيدة للغاية، سرعان ما بلغت الزيادة السكانية نقطة التشبع. وقد أدى نطاق الحياة المحدود من الأساس نظراً لمثل الصحراء شرقاً ونهر الأردن من ناحية الغرب، إلى تأزم العلاقات بين أسباط بنى إسرائيل المحلية وبين الموآبيين والعمونيين من ناحية، وبين الأدوم الحدودية ذاتها من ناحية أخرى، كما أسفرت الظروف السياسية الجغرافية للمنطقة عن اندلاع صراع عنيف بين القوى المختلفة التى تبلورت هناك. ونشأ مما يمكن وصفه بمسيرة إيقاعية من بروز شعوب وممالك وضمحلل أخرى، إذ أن تعاظم نفوذ إحدى القوى كان مرهوناً بالضرورة باضمحلل وتدهور

القوى الأخرى. وضمور الحيز الذى يمكن لعناصر الجوار الآخر أن تنمو وتزدهر فيه.

ويمكننا ان نحيط علماً بمسألة تأرجح القوى فى المنطقة بصورة غير مباشرة من خلال جمع بعض المعلومات والإشارات المتناثرة فى المصادر «التناخية». ومن ذلك على سبيل المثال، تسبب تعاظم نفوذ الموابيين فى عصر الملك عجلون فى إضعاف أسباط بنى إسرائيل المجاورين له من جهة، ومملكة العمونيين، من جهة أخرى، وبين بنى إسرائيل المجاورين له من جهة، ومملكة عمون من جهة ثانية. ويمكننا أن نستدل على مكانة عمون المتدنية إزاء مواب من خلال الحقيقة التى تفيد أن عمون اضطرت أن ترسل إمدادات لمعاونة مواب فى حربها ضد بنى إسرائيل (قض ١٣:٢). كما ان اشتراك العمالقة فى حرب مواب تدل على سيطرة الموابيين على الحدود الصحراوية. بيد أن اضمحلال الموابيين بعد انتصار ايهود قاد بالطبع إلى تدعيم مكانة الجيران الثلاثة - إسرائيل وعمون وأدوم. ويبدو أن انتصار القاضى إيهود فتح الباب أمام تيار متزايد من الاعراق البنى إسرائيلية القادمة من غربى نهر الأردن إلى مواب وأمام علاقات أسرية مع الموابين، كما نستنتج من لفيفة «مجيالة» روث وقوائم أنساب يهودا او بنيامين (قارن أخبار الأيام الأول ٤: ٢٢، ٨: ٨). وتترد أصداد لتعاظم النفوذ العمونى من خلال تبادل الرسل بين يفتاح وملك بنى عمون (قض ١١: ١٢ فصاعداً) والتى يظهر فيها أن الأخير قد تسيد على الأراضى الموابية، أو على الأقل قطاعاتها الشمالية، واعتبر نفسه مخولاً بالمطالبة بالحقوق الاقليمية لهذه الدولة من بنى إسرائيل.

أما بصدد التزم شئت تبقت معلومة ذات مغزى فى قائمة ملوك ادوم هزم بناء عليها، ملكها هداد بن بداد الاسباط المديانية فى بلاد مواب (تك ٣٦: ٣٥) وهذه المعلومة تفيد أنه تعذر على مواب نفسها أن تصد قبائل الصحراء المغيرة، ناهيك عن سيطرة أدوم على مواب ذاتها. وقد حكم هذا الملك الأدومى قبل ظهور شاول وداود بحوالى خمسة أجيال، أى حوالى ١١٠٠ ق.م تقريباً، أى قبل عصر يفتاح. ويتضح من ذلك أنه فى هذه الفترة تقزمت السيادة

المؤابية على يدى شاعول. وفى مقابل ذلك تعوزنا المعلومات الكرونولوجية الكافية لكى نحدد فترة الازدهار المؤابى فى عهد الملك عجلون ويجب إدراج قصة إيهود، بالتأكيد فى القرن الثانى عشر ق.م.

وقد ارتبط ازدياد نفوذ مؤاب كعنصر سياسى هام بإنتشارها شمالاً نحو أرنون ووديان مؤاب. ومن هنا أخذت مؤاب فى عهد الملك عجلون تبسط سلطانها على الضفة الغربية للأردن واستعبدت منطقة بنيامين وأخذ إيهود بن جيرا على عاتقه المبادرة بشن حرب التحرير الخاصة بينى إسرائيل، وإيهود هو أحد افراد أسرة من أشراف سبط بنيامين ظلت معروفة حتى عصر داود. (تك ٤٦ : ٢١، صموئيل الثانى ١٦ : ٥)، وقد لعب إيهود من قبل دوراً محورياً فى سبطه، حين ترأس الوفد الذى قدم القريان لملك مؤاب كعادة رؤساء الشعوب المستعبدة التى تدفع الجزية لساتتها.

ويبرز الطابع الشعبى لقصة إيهود فى الايجاز المتبع فى تصوير الحرب بين بنى إسرائيل ومؤاب، فى مقابل الاسهاب الزائدة عن الحد عند تصوير البطولات الشخصية لايهود واغتياله لعجلون (قض ١٢:٣ فصاعداً) وعلى الرغم من ان المعطيات الطبوغرافية لا تتيح تتبع سير الاحداث فيمكننا أن ندرك بوضوح طبيعة الحيلة التى اتبعها المخلص الإسرائيلى، حيث بنى إيهود خطته على كونه أعسرا أى قادر على استعمال السلاح بيده ~~أيسرى~~ شأنه شأن سائر أبناء سبطه (قارن قض ٢٠ : ١٦). وقد استطاع أن يخلع قلب ملك مؤاب وحراس قصره بطريقته فى ربط سيفه الصغير على فخذه الايمن، على غير المألوف، واشهاره فى حركة غير متوقعة مستخدماً يده اليسرى. وقد أسفرت وفاة ملك مؤاب عن ارتباك ساد فى جيشه وتم طردهم من أراضى غرب فلسطين. وأثناء انسحابه تكبد خسائر فادحة فى مخاضات نهر الأردن التى كانت تحت سيطرة بنى إسرائيل، وفقاً للأسلوب الاستراتيجى الموثوق به الذى اتبعه بنو إسرائيل أكثر من مره فى عصر القضاة.

يغتاج الجلعادي

بعد انتصار بني إسرائيل على مؤاب لم تعد مؤاب مصدر خطر عليهم طوال عصر القضاة، وبالفعل فإن سفر القضاة يصف فترة إيهود بأنها فترة هدوء لمدة ثمانين عاماً، أى لمدة جيلين، وهى فترة سلام أطول من أى فترة حظوا بها بعد أى مخلص آخر من بين القضاة.

وقد ورث المؤابيون فى شرق الأردن فى بداية القرن الحادى عشر ق.م عنصر آخر بدأ فى مضايقة الاستيطان الإسرائيلى فى بداية عصر القضاة، وهم العمونيين، حيث حدث تصاعد قوة العمونيين فى اعقاب تدهور مؤاب، وازدادت بشكل ملموس فى اعقاب هزيمة المديانيين على يد جدعون وعلى يد هداد بن بداد، ملك مؤاب فى عام ١١٠٠ ق.م تقريباً. لقد كانت مملكة عمون التى تقع على اطراف الصحراء تعاني أكثر من أى مملكة أخرى من هجمات بدو الصحراء؛ وما أن توقف هذا الخطر حتى أتيح لها أن تقوم بالاشراف الفعال على تجارة القوافل، التى كانت التجارة عاملاً رئيسياً فى الازدهار الاقتصادى غير العادى الذى نعمت به عمون، وذلك لأنها كانت تسيطر على مفترق الطرق، وبصورة خاصة على قطاع من الطريق الرئيسى الذى كان يربطها بسوريا وبشبه الجزيرة العربية.

ومع ازدياد قوة عمون انتشرت إلى الغرب، بعيداً عن حدود مجالاتها الصغيرة إلى ذلك القطاع الخصب من البقاع، المحاط بمنطقة ييوق وإلى أرض جلعاد، ولكن عمون لم تكتف بالسيطرة على خط نهر الأردن وتطلعت إلى فرض سيادتها فيما وراء ذلك الخط على منطقة إفرايم وبنيامين وكذلك يهودا، والمؤرخ «المقرائى» يجعل هذا الهجوم الكبير القادم من الشرق موازياً للضغط المتزايد للفلسطينيين من الغرب (القضاة ١٠: ٧ - ٩)، وهو توازى يتناسب مع الواقع التاريخى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ق.م. ولم يتأخر رد بني إسرائيل على هذه الهجمة حينما أصبح الخطر قريباً من

جانب عمون على استيطانهم الكثيف فى أرض جلعاد. وقد اضطر شيوخ جلعاد فى لحظة الطوارئ هذه إلى التوجه إلى يفتاح. الذى كان قد طرد من قبل من أرض أبيه لأنه كان ابن إمراه زانية، وذلك لأنه كانت تحت إمرته قوة مدربة، وهو الأمر الذى أثار يفتاح أن يقود حربه ضدهم. وقد تمكن يفتاح بفضل هذا الجيش الخاص وبعد مساومة شاقة مع شيوخ جلعاد من أن يحصل على مكانة كل من «القائد» (قاتسين) و «الرئيس» (روش)، أى من يحكم فى أيام الحرب والسلم معا.

ومن هذه الناحية كان تولى يفتاح للسلطة مشابها لما حدث مع جدعون وأبيمالك وداود ورزون بن اليدا ع فى دمشق، حيث كانوا جميعاً من قادة العصابات المدربة.

وقد كان مركز حشد الجيش الإسرائيلى هو مصفاة، وهى المركز الدينى والسياسى لسكان جلعاد، والتى أخذت مكانة مقدسة فى قصص الآباء (تكوين ٤٨: ٣١)، وعسكر بنو عمون فى مواجهتهم فى مدينة جلعاد. وقد امتنع جلعاد فى البداية عن استعمال القوة وبدأ فى التفاوض مع ملك بنى عمون، وهى المفاوضات التى أوردها العهد القديم. وبالرغم من أن صياغة المفاوضات تدل على علامات تحرير للنص متأخرة، إلا أن هذه الصياغة تعتبر مصدراً تاريخياً هاماً يعكس بحق مطالب كل من الطرفين ودعاواهم بالنسبة للملكية المنطقة المتنازع عليها الواقعة بين نهر ييوق وبين أرنون. لقد كانت حجة يفتاح حجة مزدوجة، وهى أن بنى إسرائيل احتلوا هذه المنطقة من سيحون ملك الأمورى وليس من عمون ومؤاب، وأنهم لذلك لهم حق قوى على المنطقة إستناداً إلى إقامتهم هناك لمدة ثلاثمائة عام. أما العمونيين فقد أقاموا حجتهم على أساس أنهم هم أصحاب هذه المنطقة الأصليين قبل إحتلال الأمورى.

وبعد أن فشلت المفاوضات هاجم يفتاح خط التحصينات على الحدود الغربية لمملكة عمون، ولكن يفتاح لم ينجح في اقتحام عاصمة عمون ولم يستطع أن ينزل ضربة قاصمة يبنى عمون، وقد استطاعوا أن ينتعشوا بعد فترة زمنية ليست كبيرة، وبعد مرور حوالى خمسين عاماً، عشية مملكة شاؤول حيث أغاروا على المنطقة الشمالية وسيطروا على يابيش جلعاد.

الحروب الاهلية فى عصر القضاة:

مع نهاية حرب يفتاح مع بنى عمون حدث حدث مأساوى فى تاريخ إسرائيل، وهو الصدام الدموى القاسى بين بنى جلعاد وبنى افرايم. وكان سبب النزاع هو رغبة بنى افرايم فى السيطرة على الاستيطان الإسرائيلى شرق الأردن، وهم مدعومون من العناصر الافرايمية الكثيرة التى هاجرت إلى جلعاد حيث أن «أنتم منقلتوا إفرايم بين جلعاد ومنسى» (قضاة ١٢: ٤). وقد تجمع بنو إفرايم فى مدينة صافون المعروفة من خلال رسائل تل العمارنة، وباعتبارها واحدة من مدن سبط جاد وتقع غالباً فى تل السعيدية فى وادى الاردن الشرقى. وقد حاولوا الصعود من هناك إلى مصفاة، حيث مقر يفتاح. وما أن حلت بهم الهزيمة حتى سعوا للهرب إلى مقرهم فى الضفة الغربية من نهر الأردن، ولكنهم ذبحوا بجموعهم فى معابر النهر. وفى هذا الخصوص يورد العهد القديم كيفية تمييز بنى افرايم وفق نطق كلمة «شبولت» على أنها «سبولت» (قضاة ١٢: ٦).

وتوجد هناك مُهادة فريدة من نوعها على التوحيد اللغوى لبنى افرايم، والذى يشير، حسبما يبدو، إلى التغييرات الموجودة فى اللهجات التى كانت شائعة بوجة عام فى لغة أسباط بنى إسرائيل. وقد ظلت أصداء هذا الحدث تتردد لمئات السنين بعد ذلك فى أقوال هوشع (سفر هوشع ٨: ٦).

لقد كان سبب النزاع بين الاسباط فى أيام يفتاح هو ادعاء بنى افرايم بأنه لم يشركهم معه فى الحرب ضد العدو. وينسب ادعاء مشابه لبنى افرايم

فى فترة جءءون بعء انءصاره على المءىانىن؛ ولكن جءءون نجح فى مصالءهم عن طرىق اشراكهم فى مءارءة انءو المنسحب، وهو الأمر الذى جعلهم يحظون باءءصار عسكرى محترم (قضاء ٢٤: ٧، ٣: ٨). وكما أن هءه الءواءء قء وقعت بسبب عءم إشراك اءء الاسباط فى حرب الءلاص، حيث أن هءا السبب يءسر بءاك لءظة مناسبة لكى يحظى بالءمءىء العسكرى وبءمار الاءءصار، فقء ءءء صءاماء اءرى لسبب عكس هءا، أى بسبب رفض المءن والاسباط من بنى إسرائيل مساعءة إءوانهم، ءىنما طلب منهم أن يقدموا هءه المساعءة. وقء رأىنا فىما سبى كيف انءقم جءءون من سكان سكوء وفنوءل لأنهم لم ىءسجىبوا لمطلبه بإعالة رءاله أثناء مءارءته للمءىانىن. والمءال الآخر الأوضء عن عءم اسءءابة أسبباط اسرائيل للمساهمة فى المعركة ىرجع إلى فترة حرب ءبورة ضد الكنعانىن، حيث اسءنكرء ءبورة فى نشىءها سبب رأوبىن، وبنى جلعاء وءان وأشعر، وبصفة ءاصة مءىنة مىروز لأنهم «لم ىءقدموا لمعونة الرب ولمعونة الرب بن الجبابرة» (قضاء ٥: ٢٣). وقء نشبء النزاعات بن الاسباط، إلى ءء كبىر، بسبب انءءام ءءضامن، وكذلك بسبب العءاء الصرىء الذى ساء بن الاسباط المقىمة على ضفى نهر الأردن. وىشهد سفر القضاة على أن أى من ءروب الءلاص لم تؤء إلى ءعاون أسبباط فلسطين الغربىة وشرق الأردن، أى من كان السبب فى ءلك. ومن المءءمل أنه بسبب انءءام الاءساس بالءضامن كان من الضرورى أن تؤء الرواية المقرائىة، مرارا وءكرارا، على ءءزام نصف اسبباط شرق الاردن بالأسىر أمام الجىء فى اءءلال فلسطين الغربىة. وىنعكس ءءوءر بن قسمى بنى إسرائيل أىضا فى الرواية الوارءة فى سفر ىشوع الاصءاء ءانى والعشرىن بشأن اقامة مءبىع بواسطة أسبباط شرق الأردن. ولكن سائر أسبباط إسرائيل اعءبرء هءه العملىة بمءابة ءء لهىكل شىلو وكاءوا أن ىهاجموهم. وقء ءف غضبهم فقط بعء أن ءءءت مهمة المءبىع على أنها رمز لوءءة الشعب وأنها لىسء أءاة عباءىة ءءعو للشقاء.

وبالاضافة إلى عدم التضامن الذى ساد بين أسباط فلسطين الغربية وبين أسباط شرق الاردن كان القوة المحركة لمعظم الصدامات هو سبط افرايم، الذى كان يخشى من فقدان المكانة الزعامية على سائر اسباط اسرائيل. ولذلك دخل فى نزاعات مع الاسباط التى كانت تقيم حوله بمجرد أن صعد نجمه فى أعقاب انتصار جدعون وهو من سبط منسى ويفتح الجلعادى. وعلاوة على ذلك، كان سبط افرايم هو القوة المحركة التى تزعمت أسباط اسرائيل فى الحرب ضد بنيامين بسبب حادثة المحظية فى جبعة، وهو الصدام الذى شمل اسباط بنى إسرائيل كلها وكان أكبر وأقسى صدام حدث عبر تاريخ بنى إسرائيل كله. وبالرغم من أن سبب هذه الحرب الأهلية كان هو الجريمة التى وقعت فى أرض بنيامين، فإن هذا فى حقيقة الأمر كان نتيجة للتنافس على الزعامة على أسباط بنى إسرائيل.

وقصة المحظية فى جبعة، الواردة فى القصص الملحقه بسفر القصة (القضاة ١٩ - ٢١)، تقوم على روايات تاريخية قديمة، حسبما تدل على ذلك أقوال النبی هوشع عن «أيام جبعة» (هوشع ٥ : ٨ ، ٩ : ٩)، وإن كان كثيرون قد شكوا فى صحتها ، بسبب الطابع القصصى الغالب عليها .

ومن الناحية التاريخية حدثت هذه القصة فى الفترة الزمنية ما بين يفتاح، وكاستمرار لعلاقات العداء بين إفرايم وسكان جلعاد، وبين بداية عصر شاؤول، أى بعد ذلك بحوالى خمسون عاماً. وتتضح فى قصة محظية جبعة علاقات الود التى كانت بين بنيامين ويابيش جلعاد، والتى كانت الوحيدة من بين كل إسرائيل التى رفضت المساهمة فى حملة الإبادة ضد بنيامين، وعوقبت بسبب هذا بقسوة بالغة. ولن ندهش إذن أنه حينما هوجم سكان يابيش جلعاد بواسطة بنى عمون فى أيام شاؤول، توجهوا لطلب المساعدة من سبط بنيامين ولم يوجهوا إلى افرايم الأقرب لهم، وكان شاؤول الذى ينتمى لسبط بنيامين هو الذى أنقذهم فى لحظة الضائقة.

وقصة محظية جبعة تثير الاهتمام من ناحية طرق تجميع أسباط
بنى إسرائيل، وأنظمتهم الإجتماعية والعسكرية، وكذلك التفاصيل
الخاصة بالنواحي الدينية، مثل معلومة أن بيت ايل كانت مركزاً دينياً
(قضاة ٢٠: ٢٧). وتعكس القصة كذلك صورة «الديموقراطية البدائية»
الاسرائيلية والتي كانت عناصرها الرئيسية هي الطائفة والجمعية العامة،
التي تتمتع بصلاحيات عليا في إصدار الأحكام وإعلان التعبئة للجيش، كما
توجد أهمية لموضوع أن عشر المقاتلين قسراً كانوا يؤمرون بالخروج رلى
الحرب بينما تتحمل بيوت آبائهم أمر إعالتهم إقتصادياً. والأهمية المميزة
لقصة محظية جبعة هي في كونها نموذجاً وحيداً في عصر القضاة لعملية
ضمت حلفاً من كل أسباط بنى إسرائيل (فيما عدا السبط المعاقب)، بينما لم
يقم بقيادة هذه العملية قاض أو ملك، أو رئيس بل قادتها المؤسسات الممثلة
للأسباط.

الصراعات مع الفلسطينيين

ظهور شعوب البحر ودمار المدن الساحلية:

يمثل اقتحام الفلسطينيين (البست) لشاطئ فلسطين حلقة ضمن الانتقاض الهائل من قبل شعوب البحر على الحوض الشرقي للبحر المتوسط والبلدان المجاورة، وقد تمخض هذا الاقتحام عن هزات دولية هائلة. فقرابة سنة ١٢٠٠ ق.م أقل نجم الامبراطورية الحيثية، بعد أن سيطرت على المنطقة لمئات من السنين، واقتربت مصر من عتبة الدمار، وتقوضت مدن ساحلية وموانى جمّة على طول الساحل السوري والفلسطيني. وفي شبه القارة اليونانية وجزرها إنهار عالم الحضارة الموكينية (جزيرة كريت) الفاخر وبعد فترة احتضار قصيرة تلاشى واختفى تماماً.

وفي نفس الفترة طرأت تحولات هائلة على الخريطة الاثنية (العرقية) في الشرق، في أعقاب الانتشار الاثنونجرافي (العرقى) الجديد في آسيا الصغرى، وتدفق السكان من هناك إلى سوريا وربما جنوبها أيضاً واستيطان أعراق جديدة قادمة من الغرب في قبرص وفلسطين (بالإضافة إلى الفلسطينيين).

وعلى صعيد آخر، حدثت هجرة الأسباط الدروية إلى اليونان وتم غزو إيطاليا على يد أعراق شندو أوربية. والحقيقة، هي أنه من الصعب أن نحدد ما إذا كان بإمكاننا نسبة هذه الأحداث المتلاحقة إلى عنصر تاريخي واحد. لكن لا ريب في أن شعوب البحر لعبت دوراً رئيسياً في هذه الأحداث، وتسببوا في سلسلة من العمليات المتوالية شملت ثلاث قارات.

لقد اقتحمت الموجة الأولى من شعوب البحر الباب الغربي لمصر في العام الخامس لحكم مرنبتاح (٢٢٠) ق.م تقريباً. صحيح أن مرنبتاح أفلح في صد هجوم شعوب البحر، بيد أن مجموعات أخرى انقضت على طول

الساحل الشرقى للبحر المتوسط بهمة زائدة فى عهد رعمسيس الثالث، فاحتلت قبرص وتسللت لأراضى أمورو وتشاهى الواقعة داخل حدود سوريا وفلسطين. وبلغت الحرب التى اندلعت بين المصريين وشعوب البحر براً وبحراً ذروتها حوالى العام الثامن لحكم رعمسيس وخلدت فى نقوشه. وأهم مايعنينا هو ورود ذكر الفلسطينيين فى هذا السياق، حيث وردت أول إشارة لهم فى ذكرى حروب رعمسيس بالسنة الخامسة لحكمة. وترد هذه الاشارات بوجه عام فى النقوش على رأس قوائم شعوب البحر، مما يعد دليلاً على مكانتهم وثقلهم البالغ بين هذه الشعوب. وهذا هو أقدم ذكر لهم خارج «المقرا»، وقد يعد التاريخ الأول لظهورهم فى فلسطين (سنة ١١٩٠ أو ١١٧٥ ق.م حسب التسلسل الزمنى صعوداً أو هبوطاً).

ومع ذلك، فمع مرور الأيام التصق اسمهم بهذه البقعة من المنطقة، حتى صار إسمها فلسطين. وقد كان شعب التكر الذى استوطن شمال الشاطئ الفلسطينى من أقرب أقربائه حسب شهادة الرحالة المصرى وان - آمون، حيث يذكر هذه المعلومات بعد مائة عام تقريباً من أيام مملكة التكر فى المدينة الساحلية دور الواقعة بساحل الكرمل ويذكر اساطيلهم التى احترفت القرصنة على طول الساحل الفينيقي، وهناك احتمال شبه مؤكد انهم استوطنوا قبائله فى قبرص.

وتدل على الدمار الذى حلّ بالبلدان المطلة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط آثار ذلك الخراب التى تكشففت خاصة فى التجمعات السكانية الكائنة بجوار السواحل، حيث تثبت الحفائر والدراسات التى أجريت على طول الساحل السورى والساحل الفلسطينى فعليا أن العديد من المدن الساحلية فى تلك الآونة تعرضت للهلاك والدمار، ومنها مدن لم تقم لها قائمة بعد ذلك أبداً، وهى على أية حال، ليست كالمراكز الهامة مثل الاخ

وأوجاريت فى الشمال، ومنها مدن انتفضت وأفاحت من الدمار الذى حل بها بعد فترة وجيزة، مثل يافا وتل مؤر واشدود واشقلون على الساحل الفلسطينى. وهناك رواية متأخرة حافظ عليها المؤرخ البيزنطى يوستين عن دمار مدن الساحل الفينيقي تفيد أن ملك أشقلون انتصر - يقصد بالطبع حاكم فلسطينى - على سكان صيدا، وأن الأخيرين منذ أن تقوضت مدينتهم «أسسوا مدينة صور قبل عام واحد من احتلال طروادة أى أن صور أيضا تخربت فى هذه الفترة وأعاد إعمارها الحيثيون. وتنعكس هذه القصة أيضاً من خلال روايات يوسف بن متياهو.

ونستخلص من الرسائل الدرامية المتبادلة مع ملك أوجاريت عشية دمار المدينة، معلومة عن النكسة الأخذة فى الدنو والاقتراب وتتمثل فى شعوب البحر. وفى إحدى الخطابات يخبره ملك قبرص عن اقتراب سفن العدو (الذى لم يذكر اسمه صراحة) ويستحثه أن يتأهب للقاء الغزاة. ويعلن ملك أوجاريت ربما فى رسالة الرد، «إن سبعة من سفن العدو قد وصلت وعلى وشك إهلاكه. وإذا رأيت سفناً أخرى تابعة للعدو فلتخطرنا». ويتضح من رسالة أخرى إن جزءاً من أسطول أوجاريت قد تقوض بفعل الاعداء. وفى خطاب آخر يكتب ملك الحيثيين عن العدو الذى تسلل إلى بلاده ويناشد ملك أوجاريت أن يمدّه بالغذاء نظراً للمجاعة العارمة التى نزلت ببلاده. ومن الصعب أن نحدد بدقة الزمن الذى تم فيه تدمير أوجاريت ومدن الساحل الشرقى الأخرى. ويحتمل أنها تخربت فى الربع الأخير من القرن الثالث عشر ق.م. خلال الغارة الأولى التى شنتها شعوب البحر فى عهد الفرعون مرنبتاح. لكن من المحتمل إمكانية تأخير الدمار إلى جيل آخر. وعلى أية حال، يتضح أنه قد سبقت عملية الانقضاخ الكبير فى عهد رعمسيس الثالث غارات على الساحل السورى والفلسطينى.

حقاً لقد نجح رعمسيس الثالث فى صد هذا الانقضاخ عن بلاده وإغلاق الطريق أمام تسلل شعوب البحر إلى مصر نفسها، لكنه لم يستطع

أن يمنع استقرارهم الجماعى فى فلسطين. ويبدو أنه فى إطار سعى فرعون لابعاد الخطر عن مصر لم يملك ألا أن يوافق على استيطان شعوب البحر فى أرض كنعان، وفى مقدمتهم الفلسطينيين، ويجعلهم أداة طيعة فى يد السلطات المصرية، أى على مسار الساحل الجنوبى، فى وادى مرج بن عامر ووادى بيت شان، وبالإضافة إلى ذلك فقد اكتشفت أدلة أثرية ترجع للقرن ١٢ ق.م تشير إلى أن الفلسطينيين أصبحوا حاميات فى بعض المراكز مثل الفرعا، التى هى شروحان بشمال النقب، وفى بيت شان. وقد استعانت السلطات المصرية فى أرض كنعان بالطبع بالفلسطينيين وبشعوب البحر الآخرين كقوات مأجورة لقمع الثورات المحلية، وهى الظاهرة المعروفة فى مصر أيضاً. ولدى أفول نجم الحكم المصرى فى فلسطين أصبح الفلسطينيون هم ورثة هذا الحكم بعد صراعهم مع بنى إسرائيل.

الفلسطينيون - أصولهم وثقافتهم المادية:

وفقا للشهادات المقرائية، القائمة لاريب على الروايات الفلسطينية، فقد جاء الفلسطينيون من كفتور وهى جزيرة كريت، حسب ما جاء على لسان النبى عاموس (٧:٩). وعلى شاكلة الذكريات التى ترسبت لدى الادباء اليونانيين المتأخرين عن هجرة شعوب على صلة بشعوب البحر ومن ضمنهم، الفلسطينيين، ترسبت لدى عاموس أصداء لهجرة الفلسطينيين بعد ٤٠٠ سنة من استيطانهم. ويحتمل أن النبى أحاط علماً بقصة هجرة الفلسطينيين، ووصف رحلة تجوالهم فى فلسطين، كما اهتم بنو إسرائيل بقصة خروجهم من مصر.

وحتى النبى إرميا يعتبر الفلسطينيين «بقايا جزيرة كفتور» (إرميا ٤:٤٧) وتشير نصوص أخرى إلى قرابتهم للكفتوريين (تك ١٠:١٤/ تث ٢٣:٢). وتذكر أسفار أخرى الفلسطينيين فى مقابل سكان كريت (حزقيال ٢٥: ١٦، صفنيا ٥:٢). ويدل جيش المرتزقة الموالى لدواد عن ارتباطهم

بالكريتين: «الكريتي والبلتي»، ويبدو ان المقصود «البسلتيم» ولكن اللفظ يحيط به كثير من الغموض، ويقودنا المساس بهذا الأمر للقطاع المسمى جنوب الكريتي الممتد بجوار الحدود الفلسطينية. وهناك دليل غير مباشر يفيد ان أصول الفلسطينيين تعود إلى جزيرة كريت وعبارة عن إناء فخارى من منتصف الالف الثانى ق.م تم العثور عليه في كريت» قرص بياسطوس. ويصف أحد رموز الكتابة التصويرية التى لم تحل شفرتها بعد، ويتكرر كثيرا فى اللوحة، رأس رجل مكلل بقبعة من الريش، وهى القبعة التى تميز الفلسطينيين.

وتتواءم روايات المقرء مع المدرسة الإيجية فى دراسة أصول الفلسطينيين، والتى وفقا لها، قدم الفلسطينيون وشعوب البحر بوجه عام من جزر بحر إيجه واليونان، وفى المقابل تبرز المدرسة الاناضولية التى تحدد أن مسقط رأسهم هو الساحل الغربى والجنوبى لقارة آسيا الصغرى. وتستند هذه النظرية ضمنا على روايات مستقرة فى ملاحم يونانية. جاء فيها، أن أبطالاً مثل فرسياوس ومويسوس، الذين يرتبطون، بشكل أو بآخر، بآسيا الصغرى، قد حاربوا فى مدن الساحل الفلسطينى، حيث حارب الأول ضد وحش مخيف فى بحر يافا وقام الثانى بغزو أشقلون. لكن هذه النظرية تتغذى فى المقام الأول على كتابات الأدباء الكلاسيكيين المتأخرين الذين يذكرون، على سبيل المثال، روايات عن أبناء ليديا التى خرج الفلسطينيون من بلادهم ويوردون وصفا لعادات الكاريين التى تتماثل مع عادات الفلسطينيين. أما النظريات المتعارضة بشأن أصول شعوب البحر فيمكن تسويتها بناء على الروايات الكلاسيكية التى تزعم أن شعوب غرب آسيا الصغرى أنفسهم (مثل الليكيون والكاريون) جاءوا من جزيرة كريت على حسب ما جاء لدى هيرودوت، بيد أن الزن التاريخى للروايات الواردة فى الأدب الكلاسيكى لا يتمتع بقدر كبير من الثقة. ويبدو ان هذا التمييز الجغرافى تفاقم بين

المدرستين المذكورتين وأضحى مصطنعاً ومستفحلاً بدرجة بالغة، لأنه بالنسبة لشعوب البحر، لا تمثل سواحل آسيا الصغرى واليونان مع جزر بحر إيجه إلا عالماً عضوياً واحداً يقوم على علاقات وثيقة بين مختلف السواحل، وبناءً على ذلك كانت بؤر إنطلاقات شعوب البحر والفلسطينيين بوجه عام هي كل من جزر بحر إيجه وسواحل آسيا الصغرى .

وقد حارت الدراسات التاريخية والمقارنة في مسألة النسب العرقي للفلسطينيين. وهناك عدد قليل من الكلمات وأسماء الاعلام الفلسطينية الواردة في المقرأ يمكن ان تشكل مدخلاً لمحاولة تحديد هويتهم الاثنية واللغوية. ومن أبرز المفردات الفلسطينية وهي «سيرن» (لم ترد في المقرأ سوى في صيغة الجمع «سرانيم» و«سيرنى») التى تشير إلى حكام المدن الفلسطينية. تتماشى فى شكلها ومدلولها مع كلمة يونانية. قديمة وهناك كلمات أخرى ذات أصل فلسطينى مثل «كوباع» (قبة) و«أرجاز» (حقيبة) وهى كلمات لها مايقابلها فى اللغات الهندو - أوربية. وأشهر أسماء الاعلام الفلسطينية الواردة فى المقرأ الاسمان جليات والملك أخيش (أنكوس فى الترجمة السبعينية) وهناك من ضاهى بين إسم الأول وإسم ملك ليديا إلياتس (صورته القديمة «فالفتا») والثانى مع الاسم السومرى أنخيسس المذكور فى ملحمة الالياذة، وهو احد أحفاد الاسباط الايرلية. وفى الآونة الأخيرة تم تحديد والتعرف على ثلاثة أسماء لحكام فلسطينيين وردوا فى لفيفة وان - آمون المصرية كأسماء تميز شعوب غرب آسيا الصغرى، درجت ألسنتهم على نطقها بلكنة هندأوربية مختلفة بالفاظ اناضولية قديمة. ويتضح من كل هذه الأمور ان الفلسطينيين وكذلك سائر شعوب البحر، محسوبون على أسرة الشعوب الهندأوربية، بيد أن نسبتهم الدقيقة لاتزال موضع شكوك. فهناك من ينسبهم للأسباط اللوقية وآخرون يرون أنهم من نسل الاسباط الايرلية (ووجدوا دليلاً على رأيهم فى مدينة تسمى بلستى ونهر يدعى بليستينوس فى إيرليا الواقعة فى شبه جزيرة البلقان. وهناك من يجنحون إلى اعتبارهم

أحفاد الفلسطينيين المذكورين فى المصادر التى تتناول الفترة اليونانية القديمة على أنهم شعب يسكن باليونان وفى جزر بحر إيجه واستوطن كذلك سواحل آسيا الصغرى. بيد أن الرأيين الأخيرين ليسا متناقضان بالضرورة بسبب وجود ثمة رابطة بين الفلسطينيين والشعوب الأيرلية.

وتدل حضارة الفلسطينيين المادية التى تم أكشافها فى عدة مناطق بفلسطين عن العلاقات الوثيقة التى ربطت الفلسطينيين بالحوض الشرقى للبحر المتوسط، إذ تتباين هذه الثقافة عن حضارة الكنعانيين تبايناً تاماً. كما أن هناك خلفية مشتركة تربط بين الفلسطينيين ومسقط رأسهم. وتبرز هذه العلاقات على وجه الخصوص فى الخزف الفلسطينى الذى يعد استمراراً مباشراً للأوانى الخزفية الموكينية المتأخرة (أواخر القرن الـ ١٢ ق.م) التى اكتشفت بادئ ذي بدء فى قبرص وكذلك فى كريت ورودوس وشواطئ الأناضول وأثينا فى القارة اليونانية. وهذه الأوانى الفخارية الفلسطينية تتسم بزخارف ذات لونين، تتركب من رموز حسابية وتصوير للحيوانات وبخاصة الطيور. وبالإضافة للأدوات التى تستخدم فى الحياة اليومية اكتشفت أوانى الشعائر الدينية الفلسطينية، التى ليست إلا محاكاة للطراز الموكينى المتأخر. ومن المكتشفات الأخرى التى تميز الفلسطينيين توابيت الموشى المصنوعة من الفخار على هيئة إنسان واكتشفت فى تل الفرع فى لاخيش وفى بيت شان. وتتشابه زخارف الرعوس التى نقشت على أغطية التوابيت بشدة مع أنماط الجنود الفلسطينيين فى النقوش المصرية التى تعود لعصر رعمسيس الثالث بقبعاتهم المتسعة المكحلة بالريش.

وتمنحنا نقوش رعمسيس الثالث فكرة واضحة تماماً عن ملامح وسلاح الفلسطينيين، وقد نقشها فنان بارع وصف محاربين من شعوب البحر من بينهم الفلسطينيين، فأبرز تفاصيل ملابسهم وأسلحتهم وسفنهم الحربية، وعجلاتهم ومركباتهم الحربية التى استخدموها فى معاركهم البرية. ويختلف

ذلك فى بعض التفاسيل عن التصوير والوصف «المقرائى» الكلاسيكى للمحارب الفلسطينى، خاصة فيها يتعلق بجليات (صموئيل الأول ١٧: ٤ - ٧). لكن بضم المصدرين بعضهما إلى بعض، يتضح أن هؤلاء الأشخاص كانوا طوال القامة حليقى الذقن، على عكس الساميين، ويتسلحون بخيرة الاسلحة المتعارف عليها فى الحضارة الإيجية والابطال الهومريين (فى إلياذة هوميروس). فبناءً على وصف جليات كانوا يرتدون دروعاً نحاسية ودروعاً لوقاية الساقين، أما سلاحهم فى الهجوم فكان الرماح والسيوف الطويلة ذات النصل المستقيم. وقد وصف نصل سيف جليات بأنه مصنوع من الحديد (صموئيل الأول ١٧: ٧) وربما يمكننا أن نقول سيفه بدلاً من رمحه المذكور فى بقية القصة لكنه ناقص عن وصف سلاح جليات) الامر الذى يعدّ تجديدًا فى أسلحة سكان البلاد. وقد كانت الادوات الحديدية من أهم الاستحداثات التكنولوجية التى حازها الفلسطينيون ومنحتهم تفوقاً على سائر السكان. وقد عثر على منشآت لصهر المعادن فى تجمعات الفلسطينيين السكنية اعتباراً من القرن الـ ١١ ق. فى تل كسيلا عند مصب اليرقون وفى بيت شيمش وفى تل چاما.

لقد كانت الحضارة الفلسطينية منذ البداية حضارة انتقائية، حيث استوعبت تأثيرات متنوعة التقطها الفلسطينيون أثناء ترحالهم، ومالت للتكيف السريع نسبياً مع الحضارة المحلية بفلسطين، حتى اندمجت فيها تماماً. وعلى هذا النحو أخذت صناعة الخزف الفلسطينى فى الازمحلل حتى تلاشت فى النصف الثانى من القرن الـ ١١ ق.م. وقد كانت مسيرة الانصهار الفلسطينى فى نفائس الحضارة الروحية عاجلة جداً، ومن ذلك على سبيل المثال تغييرهم لدينهم ولغتهم بدين ولغة الكنعانيين، وآلهة الفلسطينيين المعروفة من المقرأ هى آلهة كنعانية شهيرة مثل داجون. الذين أقاموا له معبداً فى غزة وآخر فى أشدود (قض ١٦، ١٣ / صموئيل الأول ٥: ١ - ٧) وفى بعل زبوب (وهناك من يدعوها بعل زبول) وقد انتشرت عبادة هذا الإله فى عقرون بصفة خاصة (ملوك ثانى ١: ٢ فصاعداً).

الجزء الثاني

فترة الهيكل الأول

تأليف

حييم تدمور

ترجمة وتعليق

دكتور رشاد عبد الله الشامي

★ عن كتاب «تاريخ شعب إسرائيل، (تولدوت عم إسرائيل) - الجزء الأول
«تاريخ إسرائيل في العصور القديمة، (تولدوت إسرائيل بيמי قديم) - دار
نشر دافير، تل أبيب - ١٩٦٩.

المملكة الموحدة

فترة النبي صموئيل:

تعتبر الفترة الواقعة بين دمار «شيلوه» وبين بداية الحروب ضد الفلسطينيين بقيادة شاول، هي فترة نشاط صموئيل النبي والقاضي. ومن الصعب الوقوف على خطوط واضحة مميزة لشخصية هذا الزعيم الديني والسياسي من خلال المصادر. إذ يعتبر صموئيل من ناحية، بمثابة «رائي» أي متنبئ، يقوم بتقديم القرابين في أماكن العبادة الرئيسية، وقد تتلمذ على يد أحد كهنة هيكل الرب في شيلوه، ومن ناحية أخرى يعتبر قاضياً، كما عمل أبناؤه قضاة في بئر سبع [صموئيل ٨: ٢]. وقد قام صموئيل بنور رئيس في زعامة بني إسرائيل حتى فترة الملكية. وتركز نشاطه في منطقة بنيامين وأفرايم، التي كانت خاضعة للفلسطينيين آنذاك. ولا يحتوي سفر صموئيل، الذي يحمل اسمه، على وصف متسلسل لأعماله. أما دوره الأساسي فقد قام به في شيخوخته، عندما اقتربت فترة نشاطه من نهايتها، عندما طالبه الشعب بأن ينصب لهم ملكاً ليحكمهم مثل الأغيار [صموئيل ٨: ٥]. ومن خلال أفعال وأقوال صموئيل ينعكس الصراع السياسي الذي كان دائراً آنذاك بشأن الحاجة لقيام مملكة، ووضعها وصلاحياتها سوء سلباً أو إيجاباً.

ويتضح وفقاً لقصة سفر صموئيل الأول [٩ - ١٠] أن صموئيل هو الذي نصب شاول ملكاً، وهو أول ملك، على الرغم من معارضته الشديدة لفكرة الملكية في البداية. كما أنه ساند الملك الجديد في خطواته الأولى، ولكنه اختلف معه في النهاية، وترك نشاطه السياسي، بل إنه هو نفسه الذي بشر بنهاية ملكية شاول واعتلاء داود العرش وفقاً للقصة [صموئيل ١٦]. وفيما يبدو أن كاتب السفر قد تناول هذه القصص من وجهة نظر معادية لشاول ومناصرة لداود، كما حاول بوصفه لشخصية صموئيل أن يخلق تواصلاً بين آخر القضاة وبين داود الذي كان مؤسساً لسلسلة ممتدة من الملوك.

المالك شاوول:

ترجع حالة اليقظة القومية التي أدت لتأسيس الملكية والتخلص من نير الفلسطينيين إلى نشاط أبناء الأنبياء، الذي يرد ذكره للمرة الأولى في فترة صموئيل [صموئيل ١٥ - ١١.١٠] وكان هؤلاء بمثابة مؤسسة دينية اجتماعية فاعلة ذات أهمية شديدة في الجماعة الإسرائيلية.

وتبدأ فترة حكم شاوول [١٠٢٥ - ١٠٠٤ ق.م] بالصراع مع الفلسطينيين، كما تنتهي به. حيث تبدأ بهزيمة شاوول الفلسطينيين بين منطقتي جبعة ومكميش، وذلك بأسلوب المباغته والحيلة، مثلما حدث في فترة القضاة. ويعتبر ذلك بداية حرب إبادة ضد الفلسطينيين القاطنين في إقليم الجبل، في منطقة بنيامين وأفرايم وقد وصفت تلك الحرب بأسلوب ملحمي باعتبارها حرب «يوم واحد»، وهو أسلوب أدبي يستخدمه المحرر المقرائي عند وصفه للمعارك المصيرية مثل حرب يوشع في جبعون. لقد تم عرض نهاية الحرب الأولى والحرب التالية لها بشكل موجز للغاية: «وأخذ شاوول الملك على إسرائيل وحارب جميع أعدائه حواليه موآب وبنى عمون وأدوم وملوك صوبية والفلسطينيين وحيثما توجه غلب» [صموئيل الأول ١٤: ٤٧]. ولا توجد معلومات عن بقية حروب شاوول باستثناء حرب عماليق [صموئيل الأول ١٥: ١ - ٩] والتي ذكرت لهدف آخر وهو إنكار ملكية شاوول، لأنه لم يطع صموئيل. وفي النهاية وحد شاوول معظم الأسباط، وأصبحت مدينة جبعة شاوول مسقط رأسه هي مركز الحكم [وهي المعروفة باسم تل الفول، وتقع على بعدكم شمال القدس].

وكانت فترة حكم شاوول مرحلة انتقالية من الناحية الاجتماعية والسياسية، فلقد انتهت فترة حكم الأسباط البطارقة وخلت محلها ظواهر جديدة وصلت لذورة تطورها في عهد داود وسليمان. وقد تميزت شخصية شاوول بعدة مميزات، فهو محارب شجاع، قريب من حركة النبوة، بعيد عن

أطماع الحكم، يتميز بلاط حكمه بالبساطة، بعكس بلاط حكام كنعان، كما أنه كانت لديه الجاذبية الشخصية (الكاريزما) وكأن روح الرب تملؤه، وكانت كل المميزات تنطوي على ما يشير إلى أنه حتى تنصيب هذا الملك الأول كان مازال المجتمع الإسرائيلي يعيش في عصر القضاة بطابع حياته ومفاهيمه، مما يعد سبباً لاعتباره آخر القضاة وأول الملوك.

وقد كان المجال الذي أدخل فيه شاوؤل تجديدات عدة، هو التنظيم العسكري، حيث لم تكن المهام التي أخذها على عاتقه تكفيها فرق المحاربين الذين يتم تجنيدهم استجابة لنداء الزعيم المُخْلِص وقت الطوارئ، والذين يعودون لأسباطهم وأماكن أنصبتهم بعد انتهاء الحرب، بل كانت الضرورة تستلزم جيشاً ثابتاً، لذا جمع شاوؤل «شباب إسرائيل» ونظمهم مئات وألاف. وعلى الرغم من ذلك، كان هذا التنظيم الجديد يعتمد على البنية التقليدية السبئية الإقليمية.

أما أهم التغييرات التي حدثت في فترة شاوؤل فكانت في المجال الاجتماعي، وهي ظهور طبقة جديدة في المجتمع الإسرائيلي، وهي طبقة المقربين للملك، وبطبيعة الحال كانت تلك الطبقة من أسرة الملك، أي من سبط بنيامين. ولقد منحهم شاوؤل ملكيات من الأراضي التي تم احتلالها من الفلسطينيين أو من تلك التي سلبت من مدن الجبعونيين، الذين ظلوا في حالة من الاستقلال الذاتي حتى عصره، إلا أنه أبادهم بقسوة [صموئيل الثاني ٢١: ٥ - ٥].

وعلى الرغم من أن منح الأراضي للمقربين كانت عادة جديدة في إسرائيل، إلا أنها كانت معروفة نسبياً في المدينة الكنعانية. وتشهد على ذلك الوثائق الأكديّة التي وصلتنا من ملوك أوجاريت، والتي ترجع إلى القرنين ١٤، ١٣ ق.م. وتظهر في تلك الوثائق بعض فقرات مشابهة «لقانون الملك» المدون

فى الإصحاح الثامن فى سفر صموئيل الأول الإصحاح الثامن، مثل حق الملك فى تجنيد رجال للجيش، وفرض العشير على الحقول. وكان من حقه أيضا إعفاء الوزراء من هذه الالتزامات، ومن التزامات أخرى ويشار لذلك فى تلك الوثائق بمصطلح فنى وهو "زكو" بمعنى "جعل الإنسان نقياً"، أى "معفى ومتحرراً". وكانت هناك معارضات شديدة لتلك التجديدات فى إسرائيل، وتجلت فى الهجوم العنيف ضد حكم الفرد، والذي وضعه المدون على لسان النبى [صموئيل الأول ٨: ١١] على صورة تحذير: «ويكون هذا هو قضاء الملك الذى يحكمكم». ويؤكد العرض المفصل لأعمال الملوك، وهو الأساس الذى استند إليه هذا الحكم مراراً، أن التعامل بالعنف والاستبداد واستغلال الفرد ومصادرة أملاكه على يد الحاكم، هو أجد العلامات المميزة لفترة الملكية. وينتهى العرض بإنذار خطير للغاية: «فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب فى ذلك اليوم». [صموئيل الأول ٨: ١٨]. وبمعنى آخر: بعد إعادة تشكيل التنظيم لن يجد منقذاً من الطغيان. وفى مقابل الظلم الملكى يعرض المدون المقرائى تواضع وتقوى الزعيم ذى الكاريزما كما يتضح من كلمات صموئيل: «وأنا قد سرت أمامكم منذ صباى إلى هذا اليوم. هاأنذا فاشهدوا على قدام الرب وقدام مسيحه ثور من أخذت وحمار من أخذت .. ومن يد من أخذت فدية لأغض عينى عنه فأرد لكم» [صموئيل الأول ١٢: ٢-٣]. ومن خلال مقارنة ماورد هنا مع الوثائق الأكديّة السابق ذكرها يتضح الوصف الفعلى والخطورة الأيديولوجية «لقضاء الملك».

ولقد أدى ظهور طبقة أقارب الملك، أصحاب الضياع الجديدة، والتي كانت غريبة عن روح القضاة وعن زعامتهم التقليديّة (الشيخ ورؤساء العائلات ذات الحسب والنسب)، إلى ازدياد المعارضة فى فترة حكم شاوؤل. كما

تميزت نهاية فترة حكمه بتفاقم الصراع بين الملك الذي ازداد طغيانه، وبين رؤساء العائلات الذين ترعرعوا في ظل الزعامة التقليدية. ويظهر هذا الصراع في القصة المقرأية في صورة نفور شخصي بين شاوؤل وصموئيل. و يبدو أن قتل شاوؤل لكهنة نوب [صموئيل الأول ٢٢: ١٦-٢٠] كان ثمرة التناقضات بين هذين الاساسين الاجتماعيين. أما داود بن يس الشاب عدو شاوؤل فقد استطاع استغلال تلك التناقضات جيداً.

إن جزءاً كبيراً من قصص سفر صموئيل مخصص لوصف صعود داود في بلاط شاوؤل. وعلى الرغم من أن هذه القصص قد تم تدوينها من خلال وجهة نظر معادية لشاوؤل، وتعلو من شأن داود من منطلق استعادة الماضي أو من خلال منطلق تبريري، فإن شخصية شاوؤل تظهر في نهاية أيامه كشخصية تراجية ممزقة. ويمكن الافتراض أن هذه القصص تعكس الصراع الداخلي على السلطة في المملكة الإسرائيلية الشابة، ويحتمل أن هذا الصراع وما نتج عن من ضعف قد غرس داخل الفلسطينيين الإحساس بأن الوقت مناسب لتوجيه ضربة قاصمة لمملكة شاوؤل. وتصف المصادر حرب شاوؤل الأخيرة في جلبوع بشكل غير مباشر، إذ يبدو أن الفلسطينيين قد استخدموا مناورة جديدة، حيث وجهوا جيشهم لنقطة الضعف في مملكة شاوؤل، وهي الأراضي الكنعانية التي ظلت في حالة استقلال جزئي في وادي يزرعئيل ووادي بيت شان. وربما هدفوا من ذلك إلى شطر المملكة إلى نصفين أو إجبار الملك على ترك الجبال والنزول للوادي وهناك يمكنهم الاستعانة بميزتهم العسكرية التي تعتمد على جنود المركبات. وبالفعل إضطر شاوؤل لقبول المعركة في سفوح جبال جلبوع وانتهت المعركة بهزيمة جيش شاوؤل وموته هو وأبنائه. واحتل الفلسطينيون بيت شان، وعلى الرغم من عدم وجود معلومات عن دخولهم لمنطقة الجبل، إلا أنهم فرضوا سيطرتهم بالقوة العسكرية المنتصرة على جميع تخوم مملكة شاوؤل سابقا، وكانت نتيجة

الهزيمة أن إنشطرت المملكة إلى نصفين، فظل الجزء الخاص بشرق الأردن والجبل تحت سيطرة إيشبعل بن شاوؤل (إيشبوشث)، أما الجنوب فقد نصب عليه داود ملكاً في يهوداً.

تاريخ داوود (١٠٠٤ - ٩٦٥ ق.م)

حظى تاريخ داوود بوصف مفصل للغاية في العهد القديم، مما يميزه عن باقى تواريخ شعب إسرائيل القديمة. وكانت أهم أسباب الاهتمام بتاريخ داوود أنه تميز بعدة سمات جعلت معاصرة يشعرون بأهميته، ومنها: تشكيل المملكة الموحدة، وحدودها الإقليمية، ووجود مؤسسات حكم شخصية. ويتضح من خلال ذلك سمو مكانه الأدباء الذين يدونون تاريخ الملك فى سجلات تاريخية، كما جرت العادة فى ممالك الشرق القديم الكبرى - ومن أبرز الأمثلة من هذا النوع، سفر صموئيل الثانى - الإصحاح الثامن. أما شئون المملكة التى كانت تحتاج لتدوين دقيق مثل إحصاء السكان [صموئيل الثانى: ٢٤] فقد أثارت مشكلات بخصوص تفسير أنساب العائلات وأماكن أنصبه الأسباط، وأدى ذلك إلى تسجيل وثائق أنساب مفصلة وأوصاف موسعة لأنصبه. وقد تم حفظ هذه المادة التاريخية القيمة فى سفر أخبار الأيام الأول [١- ٩] وفى سفر يشوع. ولكن المصدر الرئيسى لوصف عصر داوود هو القصة البيوجرافية غير المباشرة التى تتناول تاريخ الملك منذ وصوله لبلاط شاوؤل، والصراع الذى دار بينهما، وتركز بشكل خاص على قصة بتشبع، وموت أبنائه وتمرد أبشالوم [صموئيل الثانى ١٠- ٢٠].

وتشير تلك القصة البيوجرافية إلى كثير من المعلومات عن العلاقة بين الشخصيات المؤثرة، وعن طموحاتهم وسمات شخصياتهم، وكذلك عن الخلفية الاجتماعية للأحداث. ولا مثيل لهذا العمل التاريخى البيوجرافى فى أدب العالم القديم، فهو مكتوب بحس واقعى وموهبة أدبية تتيح للقارئ إمكانية

الشعور بالحياة الاجتماعية فى البلاط الملكى. ويتميز كاتب مجموعة القصص الخاصة بـداوود بكونه تناول شخصية بطله وفقا لمعيار أخلاقى ثابت: وهو أن الملك وقع فى إلاثم فى قصة بتشيع، وأن كل المأسى الشخصية فى عائلة مثل مقتل أمنون وتمرد أبشالوم، ماهى إلا عقاب له: «والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد» [صموئيل الثانى ١٢: ١٠]. ويعتبر استخدام هذا المعيار الأخلاقى فى قصة ملك مؤسس لأسرة ملكية ومسيح للرب، أسلوبا شاذاً عن أسلوب الكتابة المعتاد فى تلك الفترة، سواء فى اسرائيل القديمة أو لدى باقى الشعوب، كما أن كتابة تاريخ داوود. تتسم بتجديد واضح يتناسب مع الطابع الثورى المتجدد لفترة حكمه.

فترة داوود:

تشهد المادة التاريخية على وجود أربع مراحل مميزة فى تاريخ داوود. تمثل المرحلة الأولى فترة الواقعة بين يس فى بلاط الملك شاوؤل وحتى زواجه من ميخال ابنة شاوؤل وهناك صيفتان تصفان تلك المرحلة: الأولى فى سفر صموئيل الأول: ١٦ والتي تحكى عن «صبي يجيد العزف» ترك الرعى وجيئ به إلى بلاط شاوؤل وكان يعزف أمامه عندما تغمره الكآبة. ولقد أحبه شاوؤل وجعله حامل أدواته. أما الصيغة الثانية فى الإصحاح ١٧. فيتعرف شاوؤل على داوود بعد أن قتل الأخير الرجل الفلسطينى فى وادى سوكو. وتشترك الصيفتان فى أن داوود كان، فى نهاية الأمر، قائدا عسكريا محبوبا من الشعب وناجحا.

أما المرحلة الثانية فهى التى يختبئ فيها داوود بسبب حقد شاوؤل عليه ومحاولة قتله، فأخذ ينتقل من مكان لآخر فى القرى الحدودية لمنطقة يهودا. ثم تحول إلى قائد كتيبة تجمع حوله الأتباع الذين لفظهم المجتمع، «كل من وقع فى ضائقة، وكل من أحس بالمرارة، أصبح داوود قائداً لهم» وكان عدد أفراد

كتيبته فى البداية أربعمائة فرد وصل إلى ستمائة بعد ذلك. وكانت نواة الكتيبة هم «الثلاثين»، وهم مجموعة الأبطال الذين دونت أسماعهم فى قوائم تفسر أصولهم [صموئيل الأول ٢٢ - أخبار الأيام ١١]. وكان معظم هؤلاء الرجال من سبطى يهودا وبنيامين، أما الأقلية فكانت من الشعوب المجاورة. وتتشابه تلك الكتيبة مع فرق الأشقياء الذين لا يملكون أرضاً ويستطيعون التحرك بخفة، ويمثل هؤلاء أركاناً هامشية فى المجتمع، يأتى ذكرهم عند يفتاح وأبيمالك.

ويسبب الطابع الاجتماعى لتلك الكتيبة، والتى تضم عناصر تشكل خطراً على نظام الحكم البطيريركى، ويسبب كون داوود هو العدو الشخصى لشاؤول الملك، لم يستطع داوود وكتيبته أن يجدوا أية إمدادات حتى بين بنى يهودا، الذين كانوا مخلصين لشاؤول بعد أن أنقذهم من العماليق. لذا اضطر داوود للخروج إلى الصحراء حيث لم يجد راحته أيضاً. وبعد فترة، لم يتوان عن التعاون مع الفلسطينيين، العدو التقليدى، وأصبح تحت حماية أخيش ملك جت وتسلم مدينة صقلاج التى تقع بالقرب من لاختيش، فى مداخل يهودا الجنوبية الغربية. وفى هذه المرحلة، التى تعتبر الثالثة، أصبح داوود بين المطرقة والسندان. فهو من ناحية مضطرب لإثبات إخلاصه للفلسطينيين كعدو لإسرائيل، ومن ناحية أخرى كان يوثق علاقاته بشيوخ القبائل فى جنوب يهودا: الكلبى، واليرحمثلى، والقينى، كما كان يغير على العماليق مثل شاؤول، باعتبارهم العدو التقليدى للرعاة فى جنوب البلاد، وذلك كى يكسب ود شيوخ القبائل.

وفى أثناء الأزمة السياسية الشديدة بعد هزيمة جلبوع، وبعد فقدان الشخصية المحورية، وهى الملك، ضعفت العلاقات بين يهودا وسائر أسباط الشمال، وأصبحت الفرصة سانحة لداوود كى يمتلك جزءاً من منطقة يهودا. وطبقاً لما ورد فى صموئيل الثانى (١:٢) ذهب داوود مع زوجاته إلى حبرون

[الخليل]، «واستقروا فى مدن الخليل. وأصبح شيوخ يهودا، الذين أقام معهم داود علاقات وثيقة أثناء إقامته فى صقلاج، على ثقة بأنه يستطيع الدفاع عن جنوب يهودا بفضل قوة جيشه الخاص، لذا نصبوه ملكاً على يهودا، وبهذا عاد الوضع كما كان عليه فى عصر القضاة، حينما انفصلت يهودا عن باقى الأسباط.

ويعتبر تنصيب داود ملكاً فى الخليل هو بداية المرحلة الرابعة والأخيرة من تاريخ داود. وطبقاً لما ورد فى صموئيل الثانى ١١:٢، ٥:٥ أصبح داود ملكاً على منطقة يهودا من الخليل لمدة سبع سنوات ونصف. إلا أن تسلسل الأحداث فى هذه المرحلة لا يبدو واضحاً كما ينبغى. وتميزت فترة حكم داود فى الخليل باشتعال حرب طاحنة بين جنود أفنير قائد جيش شاول، وبين جند داود بقيادة يواب. ؟ أما إيشبعل بن شاول فيبدو أنه قتل بعد أن حكم منطقة إسرائيل لمدة سنتين [صموئيل ١٠:٢]، ومع ذلك فقد مر بعض الوقت حتى أدركت قبائل الشمال مقتل حاكمهم، واعترفت بـداود ملكاً على إسرائيل (صموئيل الثانى: ١٠:٢). ومع هذا، فقد انقضت فترة، حتى اعترفت قبائل الشمال، الذين قتل ملكهم أن داود هو القائد الوحيد القادر على محاربة الفلسطينيين، وقد أتاه شيوخ إسرائيل فى الخليل واقترحوا عليه أن يحكم إسرائيل كلها، واتخذ هذا الإختيار صورة عهد بينه وبينهم. وقد عقدوا هذا العهد أمام الرب، أى فى الهيكل المحلى فى الخليل، مما كان له أثر واضح على مجرى الأحداث فى اللحظات الحرجة من فترة حكم داود. وقد ظل داود حتى نهاية حياته ملكاً على يهودا وإسرائيل، أى أنهما ظلا كيانان منفصلان داخل مملكة داود، لكل منها ذاتيته المستقلة.

داود ملكاً على إسرائيل:

منذ أن ملك داود على إسرائيل كلها (١٠:٤ ق.م)، حتى واجهته ذات المهام التى واجهت شاول وهى تخليص البلاد من الفلسطينيين وتوحيدها.

ومن الصعب تحديد ترتيب حروب داوود مع الفلسطينيين ومراحل توحيد البلاد اعتماداً على المصادر. فقد احتفظت وثائق الأحداث التاريخية فقط بوصف حروبه مع الشعوب المجاورة. أما بداية حروبه مع الفلسطينيين فليست واضحة، ولكن يبدو أنها بدأت أثناء وجوده في الخليل، وازداد اشتعالها مع احتلال ييوس، وهي القدس. ومن خلال الأجزاء المتقطعة الموجودة في صموئيل الثاني ١٧:٥ - ٢٤ يتضح أن معظم المصادمات قد حدثت في منطقتي بيت لحم والقدس. واستطاع داوود، خلال معارك طاحنة خاطر فيها بنفسه أكثر من مرة، أن يطارد الفلسطينيين إلى ما وراء الجبل، وأن يدفع بهم حتى مشارف سهل يهودا. ويبدو أنه في نهاية تلك الحروب أبرمت المدن الفلسطينية الخمس عهداً مع داوود، ويفترض أنهم اعترفوا أيضاً بسيادته عليهم. وبالفعل، لم يهاجم الفلسطينيون يهودا ولا اقتحموا حدودها منذ عهد داوود وحتى وفاة عوزياهو. وعلى الرغم من العداء الطويل للفلسطينيين كانت هناك كتائب من الفلسطينيين، الكرتي والبلتي وقائد جند يدعى إيتي الجيتي يخدمون داوود ويدينون له بالولاء أثناء تمرد أبشالوم.

وبعد أن ضرب داوود الفلسطينيين اتجه لتصفية الجيوب الكنعانية الكبرى الباقية في البلاد مثل: مجدو، تعك، بيت شان، أو دوار في سهل الشارون، كما وحد الأسباط الإسرائيلية تحت سيادة إدارية واحدة، واختار أورشليم (القدس) مركزاً لحكمه. وليس من الواضح ما إذا كان داوود قد سيطر عليها بعد أن مكث سبع سنوات في الخليل، أم أنه فعل ذلك في بداية حكمه في الخليل. وعلى أية حال، فإن احتلال هذه الجيوب مهد الطريق لازدياد الصلة بين يهودا وبين بنيامين وأسباط الشمال. قد كانت منطقة القدس، باعتبارها منطقة محاذية لا تنتمي لأي سبط من الأسباط، ولكونها أصبحت ملكية خاصة للملك بحق احتلاله لها منطقة ملائمة كي تكون عاصمة لمملكة داوود. وبهذا أظهر داوود موقفاً يتجاوز الانتماء السبطي (القبلي)

باعتباره ملكاً على يهودا واسرائيل معاً. وقد ساعد الوضع الطبوغرافى للقدس، والذي جعل منها قلعة تمثل حصناً طبيعياً، على ازدياد أمن الملك واستقرار موقفه. ولم يكتف داوود بجعل القدس مركزاً لقواده، بل نقل إليها تابوت العهد وأسرة الكهنة بنى أبيتار [أحفاد الكاهن عالى من شيلوه: صموئيل الأول ١٤: ٢، ٢٢: ٩ - ٢٠]، وبهذا جعل منها أيضاً مركزاً روحانياً للعبادة.

وقد ساعد الوضع الدولى على حماية مملكة إسرائيل وتوسعها. حيث دخلت القوى العظمى فى فترة تدهور بعد أن كانت تتحكم فى مصائر دول شرق آسيا عشيية احتلال البلاد. لقد فقدت مصر مكانتها، وزالت مملكة الحيثيين، ولم تكن آشور قد ظهرت بعد على مسرح التاريخ كقوة عظمى. وصارت معارك بنى اسرائيل الأساسية، بعد قهر الفلسطينيين، مع ممالك الأراميين فى سوريا وخاصة أرام صوبيا. وقد كان صراع داوود مع تلك الممالك ذا أثرها حاسم فى تحديد مكانة مملكة داوود فى منظومة القوى الدولية فى عصره.

لم يكن داوود هو صاحب زمام المبادرة فى الحرب مع أرام، بل كانت تلك الحرب نتاج الخلاف بين اسرائيل وجيرانها عبر شرق الأردن. فقد طلب بنوعمون أثناء نزاعهم مع بنى اسرائيل المساعدة من أرام بيت رحوب وأرام صوبية ومن ملك معكة. واشتملت الحرب الطاحنة بين اسرائيل والأراميين على ثلاث معارك حاسمة، كانت الأولى فى سهل ميديا، ودارت المعركة من الأمام والخلف، حيث التحم الجند مع عمون، بينما اشتبك «كل شباب إسرائيل» مع أرام. أما المعركة الثانية فكانت فى حalam التى فى باشان، بينما هاجم داوود فى المعركة الثالثة هدد عزز «أثناء انشغاله فى الحرب مع الأشوريين، وهزمه، واحتل أرام دمشق ووصل حتى نهر الفرات، ثم احتلت مؤاب بعد ذلك بفترة قصيرة، ومن بعدها أبوم. ولقد تجاوز ملك اسرائيل بتلك الفتوحات الحدود

الجيوستراتيجية لكنعان فلسطين، ووصل تأثيره إلى طرق التجارة الدولية، والطرق الموصلة بين القوى العظمى في ذلك الوقت. حيث تحكم الملك في طريق تجاري هام، وهو «الطريق الرئيسي» الذي يمر من أدوم حتى دمشق وفي الشمال وصل نفوذه حتى مملكة حماة الحيثية الجديدة والتي كانت تخضع لأرام صوبية. وقد اعترف توعى ملك حماة بزعامة داوود وأرسل له الهدايا. وقد أتاحت تلك الانجازات العسكرية والسياسية إمكانية وجود علاقات دبلوماسية واقتصادية كما مهدت سبلاً جديدة للعلاقات الثقافية. وقد وصل تأثير داوود حتى مدن الساحل الفينيقي صور وصيدون (صيدا)، وعقد معهما حلفاً وثيقاً ازدادت قوته في عهد سليمان. وساهم هذا الحلف في خدمة مصالح الدولتين معاً، حيث اتسعت الأفاق الاقتصادية أمام مملكة إسرائيل، وأستطاعت إمداد صور بالزيوت والحبوب في مقابل أخشاب الأرز والنحاس ووسائل الرفاهية للبلاط الملكي.

لقد حدثت تغيرات اجتماعية وإدارية واضحة في المملكة الموحدة المزدهرة، حيث أصبح البلاط الملكي بمثابة مركز إداري، وظهرت فيه طبقة جديدة وهم: موظفو الملك، الذين اكتسبوا لقباً جديداً هو: «عبيد الملك». واستعان داوود في إقامة تلك الإدارة الجديدة بنماذج الحكم المتعارف عليها في مدن كنعان القديمة، والبلاد المجاورة وذلك ما أثبتته أبحاث كل من أ. إلت، ب. مازار، ويمكن أن نفترض أن بعض كبار الموظفين الكبار مثل الكاتب شوشا، وكذلك هودام «الجابي» كانوا من الأجانب، مثلما يتضح من اسميهما.

وقد احتفظت سجلات التاريخ الملكية بقوائم لأسماء قواد داوود المهمين في تلك الفترة، وورد ذلك في سفر صموئيل الثاني ٨: ١٦ - ١٨، ٢٠: ٢٣ - ٢٦، وكان على رأسهم قائد الجند يواب بن صروية الملقب في إحدى القوائم بلقب «قائد الجيش»، وفي الثانية بلقب «على جميع جيش إسرائيل»، وإلى جواره بنيامو بن ياهو يادع قائداً للجلادين والسعاة.

وتظهر فى تلك القوائم بعض الوظائف التى كانت جديدة فى ذلك الوقت بالنسبة لشئون إدارة أمور الجماعة فى إسرائيل، وتشهد أسماء الأشخاص ووظائفهم على أن تلك الوظائف كانت معروفة فى الممالك المجاورة. ويظهر من بينها السكرتير، وهو فيما يبدو المنادى الملكى، الذى يبدو أنه هو الذى يعلن أوامر الملك على الملأ [وهو ناجيرو فى أشور]، والكاتب، الذى تتركز وظيفته الأساسية فى تبادل الرسائل مع البلدان المجاورة [وهو طوبشار فى الأكديّة أو طفسار فى سفر ناحوم ٢: ١٧]، الذى يجب عليه معرفة الأساليب الدبلوماسية المتعارف عليها فى تلك الفترة. واستمرت تلك الوظائف فى بلاط ملوك إسرائيل، حيث منحتهم علانية، وتدوينا مكتوبا لتاريخهم، وإمكانية وجود صلات خارجية، ويشهد الواقع على بأنه يمكن اعتبار داود هو مؤسس الإدارة الحكومية فى يهودا. ولقد ظلت وظيفة كل من المنادى والكاتب موجودة طوال فترة مملكة يهودا. وقد أصبح هؤلاء فى عصر حزقيا هو، عند هجوم سنحارب على يهودا، بمثابة قواد كبار فى المملكة، وظهرت معهم مجموعة جديدة أطلق عليها «القائم بأعمال الهيكل» [وفى ما يبدو أنها وظيفة استحدثت بعد عصور داود، وهى تقابل «القائم بأعمال المعبد» فى بلاط ملوك أشور].

وهناك وظيفة أخرى هامة ظهرت فى المملكة، ولم يرد ذكرها فى العهد القديم إلا بعد تمرد إيشالوم، وهى «الجابى»، والذى يعمل على تجنيد الرجال لخدمة الملك [ويسمى ذلك «مَسْ» ضريبة أو «سبيل»، عبء] وقد ظهرت أهمية تلك الوظيفة فى عصر سليمان. وهناك قائدان آخران لم تذكر أسماءهما فى القائمتين الواردتين فى سفر الملوك الثانى، بل ورد ذكرهما فى سياق القصص، وهما «مستشار الملك» «أحيثوفل»، و«صديق الملك» «حوشى هأركى». ويوجد وصف لطبيعة وظيفتها فى قصة تمرد أبشالوم، حينما احتاج التمرد لنصيحتهما فى شئون سياسية عامة ومناورات حربية.

وتشير قائمة قواد الأملاك الخاصة بالملك فى سفر أخبار الأيام الأول

[٢٧: ٢٥-٣٠] إلى التاريخ الاقتصادي ووضع المملكة فهي تتحدث بالتفصيل عن المسؤولين عن أفرع الاقتصاد المختلفة ومنها: خزائن الملك، محاصيل الحقول، وخزائن المدن والقرى والأبراج، الفلاحون، الكروم، النبيذ، أشجار الزيتون والتين في سهول يهودا، الزيوت، قطعان الأبقار في سهل الشارون، وفي الوادي، والجمال [التي يقوم برعايتها أوبيل هايشمعئلى] ، الحمير والأغنام.

وتعتبر تلك القائمة فريدة من نوعها في فترة العهد القديم، حيث تعكس أفرع العمل في المجال الاقتصادي الزراعي الضخم، كما تشير إلى أنواع الماشية سواء الدواجن أو المسخرة للنقل، والتي انتشرت في مملكة إسرائيل، كما تشهد أيضاً على ضخامة أملاك البيت الملكي، والتي ازدادت للغاية ومنحت الملك قدراً هائلاً من الاكتفاء الذاتي الاقتصادي، وقد تزامن نجاح الملك في المجالين السياسى والاقتصادى مع نجاحه المتزايد في مكانته الدينية وحقه في ممارسة الأعمال المقدسة. وقد ورد أصدق تعبير عن ذلك في المزمور ١١٠ من سفر المزامير، والذي كتبه شاعر البلاط موجهاً إياه للملك: «أقسم الرب وإن يندم. أنت كاهن للأبد. على رتبة «ملكى صادق». [مزامير ١١٠: ٤]. وهكذا تم تحديد العلاقة بيم ملك إسرائيل الذى يوجد فى القدس وبين «ملكى صادق» الذى يرمز فى هذا المزمور إلى الملك الكاهن فى اورشليم فى التقاليد السابقة لإسرائيل [تكوين ١٤: ١٨].

وتشير قوائم القواد التى تشمل الكهنة أيضاً إلى تلك الصلات والعادات: فتشير إلى أبيتار الذى ينتسب لأسرة الكاهن عالى، وإلى صادق الذى ورد ذكره فى أنبار الأيام الأول [٣٩: ١٦] باعتباره كان يخدم فى مذبح جبعون. وقد ميزت تلك الظواهر فترتى داوود وسليمان، ثم أخذت فى الاضمحلال بعد ذلك. وتشهد سلسلة الأحداث التى حدثت فى فترة الملكية، والعلاقات داخل بيت داوود على حالة الغليان الاجتماعى والسياسى الشديد

التي كانت أخذة في الارتفاع وسط الطبقات الشعبية.

تمرد أبشالوم:

بالرغم من الانتصارات السياسية والعسكرية التي حققها داود، التي أدخلها على نظام الحكم، لم يستطع هذا النظام الجديد أن يضرب بجذوره بسهولة في حياة الشعب، بل أدى التجديد الذي أدخله داود على المجال الإداري في المملكة، والتغييرات السياسية والاجتماعية التي أحدثها خلال فترة زمنية قصيرة إلى الإضرار بالمؤسسات الاجتماعية التقليدية داخل طبقات الشعب، حيث قلل ظهور قواد وعبيد الملك من شأن "شيوخ القبائل"، وإن لم يبطل تأثيرهم، لأن هؤلاء كانوا يشكلون المؤسسات البطركية القبلية في الفترة السابقة للملكية. وقد أثار نظام الحكم سخط طبقات مختلفة من الشعب، وظهر ذلك بشكل بارز ومثير للدهشة في تمرد أبشالوم.

وتتضح من خلال قصة التمرد، تلك الهوة بين المؤسسات السابقة، بقايا عصر القضاة، وبين المؤسسات الملكية. حيث كانت هناك هيئتان تقفان في صف أبشالوم وهما: «شيوخ القبائل» (زقفي همشباحوت)، و«رجل إسرائيل» (إيش إسرائيل) وتدقق المصادر في التمييز بين الهيئتين، وبينهما وبين «عبيد الملك» (عفدي هميلخ).

ويطلق اسم «رجل إسرائيل» على الجماعة التي تخرج من الجيش وتعود إليه وقت الحرب. وكانت تلك هي الوسيلة التي يعبر بها عن رغبة الشعب في العصور القديمة. ويشهد على ذلك ما حدث عندما عرف الجميع بأمر التمرد، فأنفصل مؤيدو داود عنه ولم يبق معه سوى قلة من المقربين، ومجموعة القادة والمرتزة الكرتي والبلتي الذين كانوا بمثابة جيش أجنبي، حسب وصفه لهم. وليس من الواضح إلى أي جانب انضم الأبطال الثلاثين المعروفين أثناء التمرد.

وقد اتضح أنه كان هناك عاملان أساسيان أديا لنجاح تمرد أبشالوم

فى مرحلته الأولى، ولقدرة أبشالوم على استمالة الشيوخ وجند الشعب (العامة)، وهما: تأكيد أبشالوم على إعادة مؤسسات الحكم القديمة، والتي غيرها داود بأخرى جديدة اعتبرها الشعب حائلاً بينه وبين الملك، الذى توقعوا منه حكماً عادلاً. ويفترض أن أبشالوم الذى ينحدر من سلالة ملوك من ناحية الأب، وكذلك الأم وهى ابنة ملك جشور (صموئيل الثانى: ١٣-٣٧) اعتبر هذا التنازل وسيلة لاستمالة الشعب والاستيلاء على الحكم.

أما العامل الثانى الذى أدى لتعضيد التمرد فهو وجود الوحدة البسطية القبلية المحاربة، والتي تسمى «الآلف»، والتي كانت تعتبر حجر الأساس فى تجنيد العامة فيما قبل عصر الملكية، وأبقى عليها داود على الرغم من كل تجديداته. وبهذا ظل فى استطاعة الشيوخ التأثير على الجند من عامة الشعب. وعندما رغب رؤساء القبائل فى تأييد أبشالوم، جذبوا إليه بسهولة «رجل إسرائيل» ولم تستمر هذه الصلاحية التى كان يتمتع بها الشيوخ باعتبارهم مجلساً استشارياً دائماً بجوار الملك يشير عليه فى شئون الحرب البسطية العامة كثيراً. وما أن تم انتصار داود وقمعه لتمرد أبشالوم حتى تم إلغائه. ولكن استمرت قوة الفئة المحاربة «رجل إسرائيل» كهيئة تملك صلاحيات تنصيب الملوك فى فترات الطوارئ.

التغيرات فى نهاية عصر داود:

استنتج داود من تمرد أبشالوم، أنه من الآن فصاعداً يجب عليه أن يتخذ القوى القبلية الاجتماعية القديمة كركيزة اجتماعية، وكان لتلك الاستنتاجات تأثيراً شديداً على مصير المملكة الموحدة. فقد قرر ترك أهدافه للمساواة بين الأسباط، والتي كان يعمل من أجلها حتى ذلك الحين، وشكل لنفسه دعامة مخلصية فى الإطار العسكرى القبلى من جماعة «رجل يهودا» وهى القوة العسكرية الاجتماعية التابعة لسيطه. ولهذا منح لبنى يهودا أفضلية لم تكن متاحة لهم حتى ذلك الوقت. وقد تجلّى ذلك فى أن «رجل يهودا» وليس

«رجل إسرائيل» هم الذين نقلوا داوود وبيته عبر الأردن لإعادته إلى كرسي الحكم [صموئيل الثاني ١٩: ٤١-٤٢]. ولهذا السبب اشتعل تمرد جديد داخل «رجل إسرائيل» الذي أعلن مجدداً انفصاله عن داوود وعزمهم «إعادة الملك إلى بيته»، وحدث ذلك عندما أعلن موت أبشالوم. وتزعم شبع بن بكرى من سبط بنيامين هذا التمرد، وأعلن قيام وحدة منفصلة من «رجل إسرائيل» اعتراضاً على انحياز داوود إلى يهودا. وهذا ما يفهم من الشعار المنسوب إليه: «ليس لنا نصيب في داوود ولا قسمة في ابن يس. كل رجل إلى خيمته يا إسرائيل» [صموئيل الثاني ٢٠-١].

ويتضح من هذا أنه في أعقاب تمرد أبشالوم اشتعل الخلاف للمرة الأولى بين القسمين المزمع قيامهما على أنقاض المملكة الموحدة وهما: «رجل يهودا» و«رجل إسرائيل». ولهذا السبب يمكن أن ندرك قلق داوود من جراء هذا التمرد مثلما عبر عن ذلك في حديثه مع أبيشاي: «الآن يسئ إلينا شبع بن بكرى أكثر من أبشالوم» [صموئيل الثاني ٢٠: ٦]. لقد قضى على تمرد شبع بن بكرى في مهده، ولكن ذلك لم يكن بفضل «رجل يهودا» وقد حاول رعماسا استدعائهم، بعد أن عينة داوود قائداً للجند بدلاً من يوأب، بغرض استرضائه. ولكن رعماسا فشل في المهمة التي كلفه بها داوود، وبعد أن قتله يوأب، أرسل داوود الكتيبة - وهي جند المملكة الدائم - في إثر شبع بن بكرى وتم قتل المتمرد الذي كان قد فر إلى أبل بيت معكة في الجليل الأعلى، واستتب الأمن الداخلي كما كان. وعاد داوود إلى القدس، وأعاد مؤسسات المملكة، ولكن لم يطل به الأجل، فمات بعد فترة وجيزة من أحداث التمرد.

وكان يمكن لشرارة التمرد أن تتدلع من جديد، مثلما يتضح لنا من سرد أحداث أيام داوود الأخيرة، ومحاولة أبونيا هو أستماله الشعب وخلق حزب لنفسه. إلا أن داوود كان قد نصب ابنه سليمان من زوجته الأثيرة بت شمع، كي تستتب الأمور بعد وفاته ويضمن استمرار توارث الملكية. ولكنه بذلك تخطى أبناءه الأكبر سناً. وعلى الرغم من تأييد قادة الملك المخضرمين

لأدونيا هو - ابن داوود البكر بعد موت أبشالوم - وخاصة يوأب وأبيتار، إلا أن سليمان نجح في التمسك بالحكم بمساعدة بنياهو بن يهوئاداع، قائد مرتزقة، فقتل معارضيه وأصبح ملكاً على إسرائيل ويهوذا.

تاريخ سليمان [٩٦٥ - ٩٢٨ ق.م]

حظى تاريخ سليمان، مثل أبيه داوود، بإحاطة شاملة في "المقرا" (العهد القديم)، إلا أن أسلوب الوصف كان مختلفاً، حيث انتقل مركز ثقل الموضوع، وفرض العصر الجديد رؤى جديدة، فاختلف الوصف البيوجرافى الذى يركز على الشخصية ومصيرها، مثلما كان أسلوب كتابة التاريخ فى عصر داوود، فحلت محله الكرونوجرافيا «التدوين حسب التسلسل الزمنى للأحداث»، والتي تنظر إلى الدوافع التاريخية برؤية مختلفة.

لقد حاول من دونوا التاريخ المرتبط بعصر سليمان، تفسير سر الاستقرار السياسى والرخاء الاقتصادى فى عصره، فوجدوا أن ذلك كان ثمرة حكمته. وحسب رأيهم أحسن الملك تصرفاته، لأن اتبع القواعد المتفق عليها بين الحكماء. وكان أبرز تعبير عن فكر الحكماء ماورد فى سفر الأمثال الذى تنسبه الروايات إلى الملك الذى كان «أحكم من أى إنسان». ويرجع الفضل فى ثراء سليمان وعظمته السياسية، والأبنية التى شيدها، وخاصة الهيكل، إلى «حكمة الرب التى غرسها فى قلبه»، والتى وهبتها له السماء عند توليه الحكم. وبالإضافة إلى ذلك، لم يوصف سليمان باعتباره ملكاً حكيماً فقط، بل وصف بأنه "أبو الحكمة فى إسرائيل": «وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بنى المشرق وكل حكمة مصر. وكان أحكم من جميع الناس من إيثان الأزرأحى وهيمان وكلكول ودررع أبناء ماحول. وكان صيته فى جميع الأمم حوالیه. وتكلم بثلاثة آلاف مثل. وكانت نشأته ألفاً وخمسة... وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان...» [الملوك الأول ٢٩: ٤-٣٤].

وليس هناك، فى الواقع، مايشين تصوير شخصية سليمان بهذا الشكل،

لأن مملكة إسرائيل الموحدة فى فترة حكمه الطويلة التى عنها السلام، أصبحت مملكة ضخمة ثرية انتشر تأثيرها بعيداً، وحظيت بمكانة هامة كقوة وسيطة بين مصر وأسيا الصغرى. وأبلغ دليل على علو شأن مملكة سليمان زواجه من «ابنة فرعون»، وهو الحدث الذى يعتبره أ. ملمات شاذاً عن عادة المصريين القدماء فى عدم تزويج بنات القراعنة خارج حدود بلادهم.

مملكة سليمان فى الشرق القديم:

اشتملت مملكة سليمان على كل الأراضى التى احتلها داوود: أدوم، موآب وعمون، أرام دمشق، ووصلت حدودها إلى حماة وهى دولة حيثية هامة فى سوريا، ويحتمل أيضاً أنها كانت تدخل فى نطاق مملكة سليمان من الناحية السياسية. ولقد أتاح له سيطرته الكاملة على طرق التجارة الرئيسية التى تربط أرام النهرين وسوريا مع مصر [سواء عبر الأردن أو عبر البحر الذى يخترق أرض الفلسطينيين]. امتيازت سياسية وتجارية كثيرة، وكانت سيطرته على طرق القوافل العربية ذات أهمية قصوى، وخاصة قوافل البخور والعطارة. فقد ازدهرت تلك التجارة فى القرن العاشر ق.م ووصلت لأفاق عالمية. وكانت العطور ووسائل الرفاهية تجلب من جنوب الجزيرة العربية عن طريق الصحراء إلى ممالك سوريا وسواحل البحر المتوسط. ونظراً لأن أهل سبأ كانوا هم المصدر الرئيسى لهذه التجارة، حيث أنهم يتحركون فى الجنوب ولكن قوافلهم تذهب شمالاً، فإن ذلك يفسر قصة زيارة ملكة سبأ للقدس، تلك الزيارة التى ساهمت فى إيجاد علاقات تجارية.

وكان لازدياد أهمية مملكة إسرائيل فى مجال التجارة الدولية، والأزدهار الاقتصادى الذى نجم عنها، أثراً فى توطيد العلاقات بينها وبين الممالك المجاورة، ومن أكثر تلك العلاقات توطيداً ما كان بين مملكة إسرائيل وبين حيرام ملك صور. وكانت صور فى تلك الأونة فى طريقها نحو التقدم كمركز تجارى كبير فى الساحل الفينيقي، وكذلك باعتبارها مؤسسة

المستوطنات على ساحل البحر المتوسط. وكان هناك نوع من التكامل الاقتصادي بين الدولتين، فأمد سليمان حيرام بفائض الإنتاج الزراعي، وأخذ منه المواد الخام المطلوبة في عمليات البناء، وخاصة أخشاب الأرز. كما أدت العلاقات الاقتصادية الوثيقة إلى تنفيذ مشروع بحري مشترك، وهو إقامة خط من السفن من عصيون جابر وحتى أوفير [تقع على ما يبدو على الشواطئ الشرقية لأفريقيا]. وكان هدف سليمان وحيرام من ذلك هو الوصول، دون وسطاء، إلى المنابع التي توجد بها وسائل الرفاهية الأساسية في ذلك الوقت، وخاصة العاج الخام، والذهب والأخشاب الثمينة (الموجانا، وربما باللغة الأكديّة إلكو)، والحيوانات والطيور النادرة. [كانت عادة جمع حيوانات نادرة من أجل حديقة حيوان ملكية هي عادة متعارف عليها لدى الملوك في آشور في القرنين الحادي عشر وحتى التاسع قبل الميلاد].

ووصل سليمان عن طريق الصوريين والدول الحيثية الجديدة في شمال سوريا إلى مصادر المعادن للمعادن: فأخذ النحاس من قبرص، والحديد من أسيا الصغرى. وكان النحاس مخصصاً لصنع آنية الهيكل، بينما خصص الحديد لألات العمل والأسلحة. كما جلب الجياد التي تباع لمصر من أسيا الصغرى، أما مصر فجلب منها عربات المراكب التي تستخدم في الاحتفالات، والتي تباع لشمال سوريا. وكان تجار الملك هم الذين يديرون شئون التجارة، وكانوا بمثابة موظفين أو وكلاء نوى مكانة مستقلة، وهو الأمر الذي يعد من بين التجديدات الاقتصادية في مملكة سليمان.

ويعتبر ازدهار التجارة جانباً واحداً من جوانب الازدهار الاقتصادي في مملكة سليمان، حيث ساهمت فترة السلم الطويلة في تحسين وسائل الإنتاج أيضاً. وظهرت المحاريث ذات النصال الحديدية فزادت المساحات المستصلحة، مما أوجد فائضاً في الإنتاج الزراعي يمكن تصديره للدول

وكانت حركة العمران النشطة في أرجاء البلاد من أبرز علامات الازدهار في عصر سليمان. وقد كشفت معاول علماء الآثار عن هذا العمران في العصر الحديث، وقد تميز بطراز جديد، وهو استخدام الأحجار المنحوتة والتيجان لتزيين المباني. أما تحصين المدن فتم بأسلوب معماري فريد، باستخدام الأسوار وبوابة ذات طراز مميز، يتشابه مع ما تم الكشف عن في مجيدو، جازر، وحاصور.

وانصب جل الاهتمام على عمران القدس باعتبارها المدينة الرئيسية. فتم توسيعها شمالاً، وتحسينها وإحاطتها بسور يتعدى «مدينة داود» كما شيد بها قصر الملك والهيكل. واستعان سليمان عند بناء الهيكل بخبراء من صور، وتم تشييده على غرار المعابد الموجودة في شمال سوريا ويعتبر بناء الهيكل على هذا الشكل واختيار أوانيه وحليه، بمثابة تجديد شامل في إسرائيل من خلال شكله ورموزه.

أما قصر الملك فكان يقع بجوار الهيكل، واستمر بناؤه ١٣ عاماً. وهكذا جعل سليمان من القدس هيكل الملك والمدينة الرئيسية حتى بالنسبة لمبانيها، أي أنه استكمل ما بدأه داود بتحويل مدينته إلى مركز ديني روحاني لمملكته. إلا أنه يحتمل أن تحويل تلك المدينة، التي كانت أجنبية وغير مقدسة بالنسبة للأسباط - إلى مركز لهيكل الرب أثار اعتراض مؤيدي المراكز المقدسة القديمة، التي ظلت تحتفظ بقدسية في حياة الجماعة. ويمكن افتراض أن هذا الاعتراض ساعد على اندلاع التمرد الذي تلى موت سليمان.

ويرجع الفضل في تحصين المملكة والإعلاء من شأن القدس والهيكل في الجانب الأكبر منه، إلى ما قام به سليمان من تنظيم لطبقات اللاويين الذين يقومون بخدمة الهيكل. وعلى الرغم من أن المادة الأساسية التي تصف تلك الموضوعات ترجع لفترة الهيكل الثاني [أخبار الأيام الأول ٢٣-٢٦] إلا أن

البعض يرى أن تلك المادة تحمل انعكاساً من عصر سليمان، وربما أيضاً من نهاية عصر داود. ويفترض أن التنظيم الإداري لللاويين يرجع في الأصل إلى نهاية عصر داود. وكان الغرض من ذلك منح أبناء لاوى مكانة مميزة كموظفين للملك في بعض المدن المخصصة لذلك، وهى مدن الإدارة المركزية [وبخاصة مدن اللاجئيين: هوشع ٢١، وأخبار الأيام الأول ٦] التى خصص لللاويين ملكيات فيها. وقد إنتزع يربعام بن ناباط من اللاويين المخلصين لبيت داود وظيفتهم ونصب آخرين بدلاً منهم.

فرض الأعباء على الجماعة:

يرجع الفضل فى أعمال البناء الضخمة التى قام بها سليمان، وخاصة بناء الهيكل، إلى نظام السخرة، أى التجنيد الموسمى لأعمال الملك، وتم فرض ذلك على أبناء الجماعة كلهم [ويسمى أيضاً «سيل» من «سبول» ، ويعنى فى الأصل جر السلال فى أعمال البناء]. ويشهد التاريخ على أن عدد العاملين بالسخرة فى عصر سليمان كان سبعة آلاف عامل «حاملى السبل»، وثمانية آلاف لقطع الحجارة من الجبل، كما كان هناك ثلاثون ألفاً يعملون بالتبادل بمعدل عشرة آلاف كل شهر. ويقوم بالإشراف على كل هؤلاء حتى لبنان ثلاثة آلاف وثلاثمائة مستعبد. وتعتبر ظاهرة السخرة الموسمية التى فرضت على بنى اسرائيل بشكل جزئى، وعلى بقايا الكنعانيين فى البلاد بصورة غالبية، ظاهرة جديدة على الجماعة الإسرائيلىة. وكانت سبباً لإثارة السخط ولكنها وجدت متنفساً فى التمرد.

وقد فرض سليمان أيضاً على الجماعة الإمدادات الخاصة ببلاط الملك وجيشة الذى يعسكر فى القدس والمدن المحصنة الخاصة بذلك، وكان معظم الجيش، والذى أسسه داود، يعتمد على المركبات، ولكنه أصبح فى عصر سليمان العمود الفقرى لجيش المملكة. وكان جيش المركبات يعتمد على طبقة النبلاء راكبي المركبات وخدمهم، ويعد الراكبون من المقربين للملك و«ياكلون

على مائدته». وقد بنى لهم مدناً محصنة مثل: جازر، حاصور، ومجيدو [ملوك أول ١٥: ١٨]. وبالفعل، كشفت الحفائر الأثرية في تلك المدن أطلال منازل وحصون رائعة تدل على أنها كانت بمثابة مراكز عسكرية وإدارية هامة وتبرز قوة العمران الملكي في عصر سليمان بشكل خاص، كما يؤكد يجال، يادين، على التوافق الفريد في تصميم بوابة مدينة جازر ومجيدو وحاصور.

وقد تم فرض الضرائب لإعالة الجيش ومجموعة الموظفين، وكانت هذه الضرائب تجمع في صورة محاصيل من جميع أنحاء البلاد التي يسكنها بنو إسرائيل، وقسمت الأرض إلى اثنتى عشرة جزءاً [ولاية]، وترد القائمة المفصلة لهذا التقسيم في سفر الملوك الثاني - الإصحاح الخامس، ويعتقد البعض أن هذا التقسيم يرجع لعصر داود، وأنه كان يعكس أسلوب توسيع رقعة مملكته، إلا أن التجديد الذي أدخله سليمان يكمن في الحرص الزائد على ارتباط كل إقليم بالملك والبلاط، ويمكن أن نفترض أن سبط يهودا لم يدخل نفس تقسيم الأقاليم الملزمة بإمدادات الملك، بل حظى بامتيازات وحریات بفضل تحكمه في إقليم الملك.

وقد أدى تفضيل يهودا ، والذي بدأ بعد تمرد أبشالوم، إلى تدعيمها وساهم في عمل علاقات مميزة بينها وبين بيت الملك، وأدى كل ذلك إلى نتائج حاسمة في فترة الانقسام.

وقد أدى ازدياد ثراء البلاط الملكي، وصعود طبقة القواد وفرض ضرائب على الإنتاج، إلى ازدياد الهوة بين طبقات الشعب وبين الحكم الجديد والطبقات التي أفرزها. واتسعت تلك الهوة في نهاية عصر سليمان، وهي الفترة التي اجتاحت الملكية فيها أزمة سياسية واقتصادية. وتحكى المقرأ عن الضائقة التي مرت بها المملكة، حيث منح سليمان لحيرام عشرين مدينة في أرض الجليل، ويشمل ذلك منطقة الشاطئ الواقعة من صور وحتى جنوب عكا، وهي منطقة خصبة وهامة، وظلت هذه المنطقة تحت سيطرة الصيدونيين،

ويطلق على تلك المنطقة اسم «أرض كبول» نسبة إلى مستوطنة كبول التي تقع على بعد ١٥ كم جنوب شرق عكا. إذن فهناك أصل للافتراض القائل بأن سليمان كان مضطراً لتسديد ديون لصور في مقابل المواد الخام بمنحها تلك المدن المأهولة.

الأزمة:

تغيرت الأوضاع الدولية تغيراً حاسماً في النصف الثاني من عصر سليمان، ففي عام ٩٤٥ ق.م تغيرت الأسرة الحاكمة في مصر، وكان شيشنق مؤسس الأسرة الجديدة [الأسرة ٢٦] يناصب سليمان العداء، لأن سليمان ارتبط بعلاقة مصاهرة مع الأسرة السابقة. وبعد فترة وجيزة من هذا الحدث، نشبت ثورات في شمال وجنوب مملكة سليمان، في أرام وفي أدوم، وعندما قمع سليمان تمرد أدوم لجأ المتمردون إلى شيشنق ولكنه لم يفلح في القضاء على تمرد أرام، حيث أسس رازون بين الياداع الأرامي أسرة ملكية مستقلة في دمشق واستقل بأرام عن مملكة سليمان. وقلل هذا الاستقلال من دخل الملك من التجارة، كما أدى إلى ازدياد المصروفات اللازمة لزيادة قوة الجيش في الشمال، وتحصين المدن الواقعة على حدود مصر، وتم خلال ذلك أيضاً تحصين القدس وبناء «القلعة» [الملوك الأول: ١١-٢٧] - وهكذا اندلع التمرد الأول ضد سليمان، عندما كان يربعام بن ناباط مسئولاً عن عمال السخرة من سبط أفرايم، والذين جندوا لتحصين القدس، وقام «برفع يده على الملك» [الملوك الأول: ١١-٢٧]. ولم ترد تفاصيل التمرد في سفر الملوك، ولكن تذكر إحدى الإضافات في إحدى نسخ الترجمة السبعينية أن يربعام ضم إليه قرصة وتحصن بها. وربما يكون يربعام اسماً رمزياً يعنى «مثير عداة الشعب» (الفعل «راب» في العبرية يعنى عادى - خاصم، وكلمة «عم» تعنى الشعب)، وهو اسم أطلقه عليه بنو إسرائيل باعتباره زعيم التمرد ضد الملك في يهوذا، واضطر يربعام للفرار إلى مصر حيث منحه شيشنق الحماية، وانتظر يربعام

هناك اللحظة المناسبة التي حانت بموت سليمان وتسلم رحبعام ابنه مقاليد الحكم.

ووفقا لما جاء فى سفر الملوك الأول. الإصحاح الحادى عشر، فقد قام النبى أحياء الشيلونى بمهمة حاسمة أثناء تمرد يربعام، حيث تنبأ بانقسام المملكة وساند يربعام فى بداية مشواره.

ويفترض أن أحياء كان يعبر عن وجهات نظر جماعة الأنبياء، التى كانت مرتبطة بالطائفة ومؤسساتها، حيث يشهد اسم أحياء «على أنه ينتمى إلى شيلوه»، وهى مركز مقدس لدى أسباط إسرائيل من قبل عصر المملكة وربما ينتمى أحياء لنسل بيت "عالى"، وهى أسرة كهنة هامة كانت تخدم فى شيلوه وأبعدها سليمان عن خدمة الهيكل فى القدس.

لم تتعرض قصة سليمان فى «المقرا» (العهد القديم) لإبراز الأزمة التى حدثت فى أواخر عصره وهدمت أسس المملكة الموحدة. وظل سليمان فى وعى الشعب رمزا لأيام السلام والازدهار، كما حافظ على ذكره كمؤسس للهيكل، وكحاكم ازداد فى عصره عدد السكان فى يهودا وإسرائيل «كثير كالرمل الذى على البحر فى الكثيرة يأكلون ويشربون ويرقصون» [ملوك الأول: ٤-٢].

وقد فسرت ضوابط الأيام الأخيرة فى عصر سليمان بأنها عقاب على التأثيرات الأجنبية والثقافات الوثنية التى تسربت إلى بلاطه بعد أن أمالت زوجاته الأجنبية قلبه [ملوك الثانى: ١-١٥].

إنقسام المملكة:

عندما اعتلى رحبعام العرش عام ٩٢٨ ق.م، ثارت حركة العصيان التى تتطلع لحياة جديدة بمعايير أكبر بكثير. وكان النذير الأول بها فى حفل التتويج. وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك مكان أو نظام متعارف عليه فى إسرائيل لتتويج الملك، إلا أن جهود داود وسليمان كانت موجهة فى عصرهم لتحديد القدس كمركز للجماعة الموحدة، وساهم سليمان بشكل مدهش فى

ذلك. فكان طبيعياً إذن أن يأتى الجميع إلى القدس العاصمة لتنصيب ولده وريث عرشه.

اجتمع رؤساء اسرائيل فى شكيم وطالبوا بأن يكون التنصيب هناك. ويشير ذلك إلى اتحاد أسباط إسرائيل الشمالية كوحدة واحدة إزاء الملك فى يهوذا. وتبدو خطورة الوضع حين أضطر رحبعام للخضوع والذهاب إليهم. وكان هذا تعبير عن رغبته فى استمالةهم واستعداداته لتقديم تنازلات. وقد وصلت هذه الاستعدادات إلى ذروتها عندما أصبح المتحدث باسم رؤساء الجماعة هو يربعام المتمرّد الذى عاد من مصر بعد موت سليمان [وفق ما جاء فى الملوك الأول ١٢: ١-١٢] بينما يرد فى الملوك الأول ١٢: ٢٠ أنه تم استدعاء يربعام بعد الانقسام].

ويحتفظ سفر الملوك الأول: ١٢، بقصة المفاوضات بين رؤساء الشعب وبين رحبعام. ويشير أسلوب القصة وهدفها إلى أن من كتبها هو نفس المصدر الذى كان يمجّد عصر سليمان وأعماله [أقوال سليمان ملوك ١١: ١-١٤] وكان هذا المصدر هو دائرة الحكماء التى اعتبرت الفهم التعليمى العقلانى هو أساس السلوك الإنسانى والزعامة السياسية. ونفس تلك المعايير التى طبقت على سليمان وأصبح ملكاً حكيماً، طبقت على رحبعام وأدين تجمعه الذى جعله لا يتعلم من الشيوخ وينساق وراء الشباب معدومى التجربة. وفى هذه القصة تم اختصار طلب الجماعة (تسمى فى القصة "عيداً" أى طائفة) بتخفيض الضرائب الأساسية التى فرضتها المملكة، وهى ضريبة العمل. وصيغت بلغة مختصرة: «قلل من سخرة أهلك القاسية ونيره الثقيل علينا...». وتذكر القصة أن رحبعام لم يكثر لنصيحة مستشاريه من الشيوخ نوى الخبرة الذين كانوا "يقفون أمام سليمان". وكانت نصيحة الشيوخ هى الخضوع المؤقت للشعب واستمالة، وذلك حتى ينصب ملكاً فيستعيد كامل صلاحياته. ولم تكن تلك النصيحة سديدة فى نظر رحبعام، واستمع لنصيحة

«الشباب الذين تربوا معه وخدموه». وهم القادة الشباب من الجيل الجديد المعاصرين له، الذين يتبعون طريق السلطة التي تعترف بقوى الشعب وأقرانه الذى يحلون تركيبة الشعب وتطلعاته. وتصف القصة موقف الملك من شعبه بفقرة متغطرة غليظة: «لقد عذبكم أبى بالسوط وسوف أعذبكم بالعقارب». وهنا ألقى الشعب فى وجهه المقولة الشهيرة التى قيلت أثناء تمرد شمع بن بكرى: «ليس لنا نصيب فى داود ولا آل يس، لخيامك يا إسرائيل، والآن انظر بيتك يا داود».

ويشهد الواقع أن المطالب كانت اجتماعية واقتصادية فقط، ولكن التمرد والانقسام حدثا وفقاً لوجهات نظر، ترجع لجذور أكثر عمقاً. ومن هنا تبقت خطوة واحدة لانقسام المملكة، وهى انقسام يهودا واسرائيل أى بين الجنوب والشمال. وتقف طبيعة العلاقة الضعيفة بين إسرائيل ويهودا فى مقدمة الظروف التاريخية التى أدت للانقسام. وعلى الرغم من المحاولات المستميتة التى قام بها داود لتوثيق تلك العلاقة والتى عضدت بفضل جهود داود وشخصيته، التى حاول أن يوثق بها طرفى الشعب، لم يتمكن، سواء هو أو سليمان، من محو الاختلافات التاريخية العميقة بين الطرفين. ولقد ساهم الوضع المتميز ليهودا، والذى استقر وضعه بعد تمرد أبشالوم فى حدوث الانقسام، وجنى ربيعام مازرعه أباؤه.

ومن الغريب أن ربيعام استسلم بسهولة لهذا الواقع، ولم يحاول حتى أن يخرج مع جيشه، مثلما فعل داود، لقمع التمرد. وفيما يبدو أن الظروف قد تغيرت. إذ يحتمل أنه قد خشى من شيشنق ملك مصر الذى يحمى ربيعام، والذى كان يتحين الفرصة للإضرار بالمملكة. وقد فضل ربيعام المسألة وأرسل أدورام المسئول عن الضرائب كى يتفاوض حول التنازلات، ولكنه تأخر فى ذلك، إذ كان التمرد يلوح فى الأفق، ورجم أدورام بالحجارة أما ربيعام فاستطاع الهرب للقدس يصعوبة.

لقد انقسمت مملكة إسرائيل إذن بعد قرن من قيامها، وكانت المؤسسات الملكية قد أرسيت خلال تلك الفترة، لذا لم يحاول زعمائها أثناء الانقسام أن يعيدوا الأمور إلى ما كانت عليه قبل ذلك بنظام حكم بدون ملك.

ولم تضم الدولتان المنفصلتان يهودا وإسرائيل [عرفت "إسرائيل" قبل دمارها باسم إفرايم أيضاً] حدود مملكة داود وسليمان، حيث استقلت عمون وموآب وأدوم. ودعمت المدن الفلسطينية قوتها واجتاحت وادي إيلون. ومن البديهي أن التأثير السياسي للملكتين أصبح أقل كثيراً من تأثير المملكة الموحدة. كما أصيب الاقتصاد بالضرر، بسبب انقطاع الطريق التجارى فى عبر الأردن الشرقى. وكان أثر الأزمة أقل ضرراً على يهودا حيث لم تكن تملك أرضاً خصبة واعتمد اقتصادها على تربية الماشية. ولم تخل خزانة المملكة بعد وظلت الطبقة الحاكمة تملك احتياطات اقتصادية. ويفترض أيضاً أن استخدام الفلاحين للآلات الحديدية، والذي بدأ فى عصر سليمان، قد زاد من معدلات الإنتاج ومن الأراضى المستصلحة. وأمكن حفر أبار مياه عميقة باستخدام الآلات الحديثة، كما مكنت القنوات المائية المحفورة فى الجبل من زرع المناطق الجبلية، وخاصة البعيدة عن الينابيع. ويفترض أن هذه التقنية كانت عاملاً أساسياً فى ازدياد السكان وتعمير مناطق جبال يهودا وبنيامين، التى أصبحت بمثابة العمود الفقرى للمملكة الجديدة. وكانت مملكة إسرائيل الأكثر اتساعاً، والتى ضمت جميع مناطق الأرض شمال بنيامين، هى الوريث الأساس لقوى المملكة الموحدة وتوابعها. وكانت ثرواتها الطبيعية وسكانها أكثر من يهودا بمراحل. ولكن التمرد كان يرفع شعار إحياء مقولات العصر البطريقى السابق للملكية، وكان موظفو الملك سليمان منبوذين بالنسبة لحكام البلاط الجديد. لذا مر وقت طويل حتى نجح الملوك الجدد فى بلورة نظم الحكم والإدارة المطلوبة لتسيير شئون المملكة.

(ب) فترة المملكتين

جذور العلاقة بين المملكتين:

يمكن تقسيم فترة قيام المملكتين المنفصلتين، إسرائيل ويهوذا، منذ الانقسام عام ٩٢٨ ق.م وحتى دمار السامرة عام ٧٢٠ ق.م، إلى خمس فترات:

(أ) فترة التأسيس المنفصل. (ب) فترة الحلف الوثيق

(ج) فترة تدهور المملكتين (د) مرحلة الازدهار الجديد

(هـ) نهاية مملكة أفرايم

وعلى الرغم من وجود منافسة دائمة بين إسرائيل ويهوذا من الناحية السياسية والدينية، ووجود حرب متبادلة بينهما، إلا أن ما يجمع بينهما كان أكثر مما يفصلهما. فكان الوعي الجمعي، على النحو الذي يتبدى في الانتاج الأدبي لعصر المملكتين، ينتمى لجماعة واحدة تنقسم إلى دولتين. ولم تستطع الحدود السياسية أن تفصم العرى الاقتصادية الوثيقة بين شطري الجماعة في تلك البلاد الصغيرة. فإذا حلت أزمة اقتصادية بإحدى المملكتين كان يؤدي ذلك بالتالى لأزمة لدى مثيلتها، أما فترات الازدهار فكانت تحل على كليهما فى آن واحد. ورغم اختلاف أماكن وأشكال العبادة، فقد ظل العامل المشترك بينهما هو الثقافة والذكريات التاريخية الأولية، مثل قصة الخروج من مصر، وقصص آباء الأمة.

ومع ذلك فهناك خطوط فاصلة بين إسرائيل ويهوذا. ومن أبرز الأمور فى مملكة يهوذا ثبات السلالة الملكية من بيت داوود. وكانت تختلف فى ذلك ليس عن إسرائيل فقط، بل عن بقية الدول المجاورة. وضمن هذا الثبات استقرار الحكم ووفر على يهوذا الحروب الطاحنة التى انغمس فيها الطامعون

فى مملكة إسرائيل. ومن بين أسباب هذا الثبات مايلى: قداسة الملك داوود والتى انسحبت على نسله. والعلاقة الوثيقة بين نسل الملك وبين الهيكل، والحقيقة هى أن تلك المملكة كانت تقوم على سبط يهودا وتابعيه، وهى كتلة متضامنة منذ ازم من قديم. أما إسرائيل فلم تكن كذلك. حيث تناوبت عليها عدة أسر ملكية كانت تصاحبها حروب طاحنة انتهت بدمار البيت الملكى. وكان كل تغيير لأسرة ملكية، لا يؤدى فقط لوجود ضحايا من المقربين للأسرة السابقة، بل أيضا إلى حدوث تغييرات حادة فى الإدارة وأساليب الحكم. وقد استمر حكم ياهو أكثر من باقى الأسر الملكية، إلا أن حكمه لم يستمر أكثر من أربعة أجيال.

ولكن لا يمكن تفسير تلك التقلبات فى حكم إسرائيل بأسباب متصلة بموقف مبدئى من الملكية، وأنها تكمن أساساً فى اختلاف الفكر السياسى بين إسرائيل ويهود، حيث لم يكن أهل الشمال يتقبلون مبدأ توارث الملكية. ومن الصعب موائمة تلك النظرية، التى يعبر عنها أ. ألت، مع الحقائق. أما الأسباب الأكثر وضوحاً فهى أن العوامل الرئيسية لعدم الاستقرار هى اختلاف الوضع السياسى والأهداف الإجتماعية. وكانت مملكة إسرائيل الشمالية أكثر اتساعاً من يهودا، كما أنها كانت محاطة بمنظومة متنوعة من تقاليد وأهداف النظام القبلى. كما تضاربت مصالح المناطق المختلفة، وكان تنوعها من حيث العناصر الإجتماعية أكثر تشعباً من يهودا وكانت الخلافات الطبقية أيضاً أكثر حدة. وقد اجتمعت كل تلك العوامل لوضع المملكة فى حالة من عدم الاستقرار. وكان تأرجح تلك القوى هو ذاته السبب فى عدم قدرة أى من الأسر الملكية على فرض سيادتها واكتساب صلاحية أمام الشعب كى تصبح بالنسبة إليه رمزاً للملكية، مثلما كان الوضع بالنسبة لنسل داوود فى يهودا.

وبالاضافة إلى هذا، ازداد تأثير الجيش فى إسرائيل، وتطلع قواد الجيشالذين حققوا نجاحا لما أكثر من مرة للحكم، وكانت معظم الانقلابات فى أسر الحكم تتم فى معسكرات الجيش أو فى أثناء الحروب. وقد شكل الانبياء قوة سياسية فائقة التأثير فى هذه الفترة. ومنح تأييدهم للانقلابات صفة رسمية لإرادة الرب وإرادة الشعب.

المصادر التاريخية:

يرد تاريخ المملكتين منذ الانقسام وحتى دمار يهودا فى أسفار الملوك الأول والثانى، وأخبار الأيام. وعلى الرغم من أن تلك الأسفار دونت بعد دمار الهيكل [سفر الملوك فى نهاية السبى البابلى، وسفر أخبار الأيام فى القرن الرابع ق.م.]، إلا أنها تعتمد على مصادر أقدم بكثير، استقر بعضها بداخلها.

وقد غير مدونو سفر الملوك بعض الشئ، فى المصادر التى وجدوها والتى استخدموها فى مؤلفهم التاريخى، فى وصف كل من مملكتى يهودا وإسرائيل معاً. أما صاحب سفر أخبار الأيام فقد أعد مصادره بشكل حاسم، وقص الأحداث بتوسع وبلغة عصره. وقد استخدم مدونو السفرين التاريخيين الشاملين مصادر مختلفة ومتنوعة وكانت بحوزتهم وثائق تاريخية لملوك إسرائيل ويهودا والتى تتناول تاريخ الملوك وأهم أعمالهم.

ويذكر مدونو سفر الملوك «سفر أخبار الأيام لملوك إسرائيل» و«سفر أخبار الأيام لملوك يهودا»، وهى المؤلفات التى كانت تضم، فيما يبدو مادة بيوجرافية حقيقية، وصفا لأعمال الملك، وحروبه، والأبنية التى شيدها وهى مادة مرتبة زمنياً وذات أهمية كبرى، قام مدونو السفر بتنظيمها.

وقد اتضح أن أسفار أخبار الأيام لملوك يهودا وإسرائيل كانت بمثابة تأريخ رسمى، يتشابه مع التاريخ الأشورى الذى يرجع للقرنين ١٢ - ١١ ق.م، والتأريخ البابلى فى القرنين ٨ - ٦ ق.م. وكان بحوزتهم أيضاً أجزاء من

مذكرات هيكل القدس، والتي سجل بها أهم الأحداث في تاريخ الهيكل. وكان هذا المصدر هو أساس المعلومات الواردة عن ترميم الهيكل، والإصلاحات التي أدخلت على نظام العبادة ومصير كنوز الهيكل، فجاء، على سبيل المثال، نبأ رحلة الفرعون شيشنق في العام الخامس لحكم رحبعام، عندما دفع كنوز الهيكل والبيت الملكي كجزية لملك مصر، وكذلك وردت تفاصيل الجزية التي دفعها حزقيا هو لسنحاريب ملك آشور عام ٧٠١ ق.م [الملوك الثاني ١٨: ١٤ - ١٦]. واعتمد كثيرون على أقوال الأنبياء وقصصهم، وبخاصة أبناء الأنبياء، وينتمي لهذا النوع مجموعة قصص إيلياهو واليشع، وتوجد معلومات تاريخية هامة تتضمنها قصص الأنبياء، مثل تاريخ الملك آحاب الذي نجده كاملاً في مجموعة قصص إيلياهو، وكذلك وصف تمرد ياهو وفترة الاستعباد الآرامي في عصر يهو آحاز الواردة في قصص اليشع. كما تبقت قصص لأنبياء يهودا من عصر النبوة الكلاسيكية مثل قصص إشعياء وأعماله، وخاصة القصة المفصلة التي تتناول دخول سنحاريب ليهودا (الملوك الثاني ١٨: ١٧-١٩) [إشعياء ٣٦ - ٣٧].

وقد تم إعداد هذه المادة المتنوعة وتنظيمها في القرن السادس ق.م في نهاية فترة السبى البابلي. غير أن ذلك لا يجعلنا نستبعد من ذلك أن بعض الأجزاء قد دونت قبل دمار الهيكل، وقد وأسبغ المدونون وجهة نظرهم على وصف مجرى الأحداث؛ وتشكل الشخصية الفاعلة في التاريخ أمام الرب الحاكم إطاراً لعملية الوصف والتنظيم. ويشير المدونون صراحة إلى تقديرهم الإيجابي أو السلبي للشخصيات التاريخية، مستخدمين المعيار العقائدي، وتخضع الاعتبارات الأخلاقية الاجتماعية هنا إلى مسألة عبادة الرب. ويؤكد صاحب سفر الملوك وفقاً لهذا المعيار على أفضلية وأهمية الملوك الذين أدخلوا إصلاحات على العبادة، وأعلوا من شأن هيكل القدس وهدموا المذابح. وقد أدت تلك الرؤية المؤيدة للهيكل، بالتالي، إلى إدانة ملوك إسرائيل الذين ابتعدوا

عن العبادة فى الهيكل، ووصفهم بأنهم «صنعوا الشر أمام الرب» لمجرد أنهم ابتعدوا.

ولم تمنع تلك الرؤية المشنوية التوراتية التى ترجع للقرن السابع والسادس، مدونى سفر الملوك من إدراج الأعمال الإجتماعية والسياسية، مصحوبة فى بعض الأحيان بتقديرهم الإيجابى لما تحقق فى تلك المجالات، حتى بالنسبة للملك إسرائيل الذين يعتبرهم المدون أشراراً. ويعتبر أهم مثال على ذلك وصف يربعام بن يوأش فى سفر الملوك، والذي «صنع الشرفى عين الرب» وسار على خطى يربعام بن ناباط، وفقاً لما قاله المدون. إلا أنه مع ذلك «أعاد حدود إسرائيل من مدخل حماة إلى بحر العرب حسب كلام الرب...» [ملوك ١٤: ٢٥ - ٢٨].

وتضم أسفار الأنبياء الكلاسيكية عاموس، هوشع، أشعيا، إرميا، مادة تاريخية هامة، تعكس شئناً روحانية وإجتماعية واقتصادية لإسرائيل ويهودا. ولم يجرؤ المدونون على إظهار وجهة نظرهم فى أسفار الأنبياء مثلاً فعلوا فى الأسفار التاريخية، لذا تبقى فى مجموعات النبوءات معلومات تاريخية أصلية ورد ذكرها فى مصادر أخرى، وتتضح دقتها المدهشة بمقارنتها بالوثائق الآشورية المعاصرة لها. فمثلاً لا يمكن فهم ماورد فى أشعيا ١٤ دون أن يقارن بما جاء فى القوائم السنوية لسرجون ملك آشور. وتشير المقارنة إلى أن قصة سرجون فى القوائم السنوية تتناقض مع ماورد فى التسلسل الزمنى، حيث أن سرجون لم يغادر آشور فى سنة ٧١٢ ق.م. ومن هنا فإن أشدود لم تحتل بواسطة سرجون نفسه بل قام قائد الجيش بذلك. وتلك هى الحقيقة التى يصفها سفر إشعيا.

ويوجد إلى جانب المصادر المقرائية بعض المصادر المعاصرة لذلك الوقت والخارجة عن المقرأ. فهناك بين أيدينا وثائق أبيضرافية غبرية وأرامية وفينيقية تم الكشف عنها فى فلسطين والأراضى المجاورة لها، ومن أشهرها

نقش ميشع ملك موآب الذين يستكمل ماورد فى سفر الملوك. كما تعد القطع الفخارية [أوستراكا] التى اكتشفت فى الحفائر الأثرية بفلسطين مادة هامة تلقى الضوء على البنية الإدارية لإسرائيل ويهودا والوضع الإجتماعى القائم بهما. ومن أشهرها: أوستراكا السامرة التى ترجع لمنتصف القرن الثامن ق.م، والقطع التى ترجع لعصر يوشيا ملك يهودا، والأختام الموجودة على الأوانى والتى تعكس نظم الإدارة فى يهودا فى نهاية فترة الهيكل الأول. وتعد الكتابات المدونة على الفخار ذات أهمية خاصة، مثل خطابات لآخيش التى ترجع لنهاية فترة يهودا. وفى مقابل ذلك تقل المصادر المصرية التى ترجع لهذا العصر نسبياً، ومن أشهرها قائمة مدن فلسطين التى احتلها الفرعون شيشنق ملك مصر، والمدونة على جدران معبد الكرنك. ولكن أغزر المصادر هى تلك المكتوبة بالخط المسمارى على يد الآشوريين ثم البابليين.

وقد قام ملوك آشور أحياناً بتدوين أخبار الحملات العسكرية التى قاموا بها فى فلسطين، أو كانوا على الأقل يذكرون اسم ملك إسرائيل الذى حاربهم أو دفع لهم الجزية. وأهم تلك المصادر القوائم السنوية لملوك آشور، مثل شلمنصر الثالث، تجلات بلاسر الثالث، سرجون، سنحاريب، الذين قاموا بحملات أو حروب فى البلاد حتى دمروا إسرائيل فى النهاية، وتعتبر تلك القوائم أكثر دقة من أسفار العهد القديم إذ أنها كانت تدون على الفور فى إثر مرور الحدث الذى تصفه، لذا فهى مصادر معاصرة لكل الشئون. ولكنها من ناحية أخرى يمكن أن تكون بعيدة عن الدقة، إذ أنها تعد بمثابة شكر لآلهة آشور على الانتصارات التى أحرزها ملوك آشور فى الحرب، فهى إنها إذن موجهة لتعظيم الملوك أمام الآلهة وتمجيد الإله بانتصار ملوكه. وعلى ذلك لاينتظر أن تحكى بهم أخبار الهزائم، لذا يعتبر ذلك عيباً فى القوائم التى تعد أحادية الرؤية، وأحياناً ماتخلى انتصارات ليس لها وجود.

وتعد التواريخ البابلية الحديثة أكثر موضوعية، وهي تشمل الفترة بين ٧٤٥ وحتى ٥٣٨ ق.م. ولم تكن تلك المؤلفات رسمية أو حكومية تهدف لتمجيد الإله أو الملك، لذا احتفظت بأخبار هزائم ملوك آشور وبابل، ويهمنا بشكل خاص التواريخ التي تقص أخبار نبوخذ نصر، والتي تستكمل ماجاء في سفرى الملوك وإرميا، حول الأيام الأخيرة لمملكة يهوذا.

فترة التأسيس المنفصل:

وجه يربعام بن ناباط، مؤسس مملكة إسرائيل وأول ملوكها، جهوده إلى تحصين ملكه وتوطيد مؤسساته المستقلة. ولم يرد في "المقرا" أى معلومات عن نشاط يربعام فى المجالين الإدارى والعسكرى، أما فى مجال الإصلاحات الدينية فقد كثرت التفاصيل حول ماقام به. ولكن لايمكن أن نستنتج إزاء هذا التجاهل أن يربعام لم يهتم إلا بشئون الدين فقط. بل يفترض الرأى الأرجح، أن كاتب سفر الملوك هو الذى ركز اهتمامه على هذا الجانب وحسب من نشاط يربعام، وأشار لتجديدات يربعام ودوافعها بشكل سلبى للغاية: «فاستشار الملك وعمل عجل ذهب وقال لهم. كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم. هوذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر. ووضع واحداً فى بيت إيل وجعل الآخر فى دان. وكان هذا الأمر خطية. وكان الشعب يذهبون إلى أمام أحدهما حتى إلى دان. وبنى بيت المرتفعات وصير كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بنى لاوى. وعمل يربعام عيداً فى الشهر الثامن فى اليوم الخامس عشر من الشهر كالعيد الذى فى يهوذا وأصعد على المذبح...» [الملوك الأول ١٢: ٢٨ - ٣٣].

ولم يسفر البحث حتى اليوم عن تفسير مسألة عجل يربعام. فبالإضافة إلى الوصف الوارد فى سفر الملوك والأهداف المنسوبة ليربعام، من العدل أن نشير كذلك إلى طبيعة العصر والديانة فى الشرق القديم فى ذلك الوقت،

حسبما تتضح من الاكتشافات الأثرية والوثائق، وإلى أهداف مدون سفر الملوك نفسه. وتشير مقارنة جميع المعطيات، فيما يبدو، إلى أن التجديد في عجل يربعام لم يكن تجديداً كاملاً. فقد عرفت البيئة المحيطة تجسيد الرب، فبينما يستخدم الثور في الركوب، فإنه يتخذ له قاعدة يرتكز عليها، وجيواناً مقدساً خاصاً به. وينتشر تصوير الإله الجالس على حيوان مقدس في العقيدة السورية الفينيقية والميزوبوتامية. وتوجد في الشرق القديم دائماً صورة إنسان يجلس على ظهر ثور مجنح، أو أبو الهول [الكروبيم في لغة المقرأ]. ولكن في وصف عمل يربعام لا يرد ذكر تلك الصورة. ويشهد الواقع على أن يربعام وضع في المعابد التي أنشأها في دان وبيت إيل قاعدة يرتكز عليها الإله، ولكنه لم يجرؤ على وضع صورة للإله ذاته. ويمكن تفسير تلك المسألة على ضوء الحقيقة التي تقول أن يربعام أقام مملكته بالاستعانة بالأهداف القبلية المحافظة التي عرفها الشعب، وكان مضطراً إزاء أي تجديد يقوم به إلى أن يفكر بوحى وقوة تلك الأهداف. ولا يوجد تفسير لمحاولة تبرير صنع العجلين بأنها نقل للثور المصرى - أبيس - لإسرائيل. حيث أن هذا التغيير الحاد، بإدخال عبادات وثنية، يعتبر مخالفاً للسلوك القبلى في إسرائيل.

وقد أدخل يربعام تجديداً آخر وهو الاحتفال بعيد المظال (سكوت) في الخامس عشر من الشهر الثامن، ويعتبر هذا التوقيت متأخراً بالنسبة للعادة في القدس. ولكن يحتمل أن يربعام قد أحيا عادة قديمة، حيث يتضح من وصف الكهنة بأنهم من «أطراف الشعب» أن يربعام لم يستطع الثقة في بنى لاوى، الذين كانوا تابعين لأسلوب العبادة المتبع في هيكل القدس، ولكنهم في عصر سليمان كانوا يعملون في وظائف إدارية ترتبط بالبيت الملكى، لذا كانت طبقة الكهنة في مراكز القداسة عند يربعام من أبناء الطبقات العليا وليسوا من أبناء لاوى [والمقصود بأطراف الشعب صفوة الشعب].

ويفترض أن يربعم أقام النظام الإدارى الذى كان سائداً فى مملكة سليمان، فيما يتصل بتقسيم مناطق الأرض، ولكنه لم يقم مملكة ذات مركز واحد، وكان يبدل قصره باستمرار، أما عواصم المملكة فكانت شكيم، وفنويل، وترصة، ولا نعرف إن كان ذلك بمثابة عودة لعادات قديمة. وبصفة عامة لم يكن يربعم يحاول الفصل بين طبقات الشعب بقدر ما كان يبحث عن سبل ينقاد من خلالها الشعب بأكمله وراءه، ويتضح هذا جيداً بالرجوع إلى ما حدث بعد موت شاؤول.

وقد خاضت مملكة يربعم تجربة قاسية من الناحية السياسية العسكرية فى سنواتها الأولى، حيث أغار شيشنق على المملكة فى السنة الخامسة من حكم رجبعم [ملوك ١٤ - ٢٥]. وتوجد قائمة للمدن التى احتلها على جدران معبد الكرنك، التى حفر عليها اسم حوالى ١٥٠ مستوطنة، ينتمى معظمها لمملكة إسرائيل. وقد تم الكشف عن جزء من النصب التذكارى الذى أقامه شيشنق فى مجدو، التى يرد ذكرها فى تلك القائمة. كما احتل شيشنق أيضاً جازر ووادى سوكون، ووديان بيت شان ويزرعئيل، ثم عاد لبلاده تاركاً وراءه معظم المدن المحصنة فى مملكة يربعم - التى كانت تحت فى حمايته من قبل - دماراً. ولم تصب يهودا من جراء تلك الحملة إلا بخير طفيف. أما القدس فقد دفع رجبعم لتخليصها جزية باهظة، وأرسل لفرعون مصر كنوز الهيكل وبيت الملك.

وعلى الرغم من الدمار الذى لحق بالبلاد إلا أن حملة شيشنق كانت مجرد مرحلة، حيث مات بعد فترة وجيزة من تلك الحملة، ولم تستمر سياسة احتلال فلسطين من بعده. وخصص رجبعم الفترة التالية للحملة لإعادة بلورة وتقوية يهودا. وفيما يبدو أن رجبعم خرج باستنتاجات من حملة شيشنق، فوجه نشاطه الأساسى لبناء مجموعة حصون بطول الحدود الغربية

والجنوبية لملكته. وقد احتفظ سفر أخبار الأيام بقائمة مفصلة لتلك الحصون: «وأقام رحبعام فى أورشليم وبنى مدناً للحصار فى يهوذا فبنى بيت لحم وعيطام وتقوع. وبيت صور وسوكو وعدلام. وجت ومريشة وزيف. وأدورايم ولخيش وعزيقة وصرعة وأيلون وحبرون التى فى يهوذا وبنيامين مدناً حصينة» [أخبار الأيام الثانى ١١: ٥ - ١٠]. ولاشك أن إقامة حصون بهذا الأسلوب احتاجت إلى جهد خارق من الملكة الصغيرة المستقلة وفرضت عليها عبئاً شديداً. ولكن يهوذا صمدت لذلك، بل وفى نهاية عصر رحبعام، وخاصة فى عصر ابنه أبيا، استطاعت يهوذا اجتياح المناطق الشمالية حيث أراضى مملكة يربعام. وكان ضعف مملكة إسرائيل بعد حملة شيشنق هو الذى أثار رحبعام، وابنه أبيا، كى يبدأ حرباً ضد المملكة الشمالية [أخبار الأيام الثانى ١٣: ٣ - ١٩] وحقق أبيا انتصاراً هاماً واحتل جنوب «جبل أفرايم» الذى يضم مركز العبادة «بيت إيل» و«شيشنق» التى تقع على الحدود. وقد تسببت الهزيمة الساحقة التى لحقت بمملكة يربعام وفشلها فى الحرب ضد الفلسطينيين، الذين وصلوا حتى جفتون واحتلوها، فى انهيار الأسرة الملكية، التى سقطت بعد موت يربعام بفترة وجيزة، فى فترة ابنه ناداب. واشتعل التمرد ضد بيت يربعام فى معسكر الجند المسيطر على جفتون فى تلك الفترة. وقضى بعشا بن آحيا قائد الجند، الذى ينتمى لسبط يساكر، على بيت يربعام وحكم بدلاً منه [٩٠٦ - ٨٨٣ ق.م].

وقد نجح بعشا أكثر من سابقه فى بلورة مملكة إسرائيل من الداخل، سواء فى مجال الإدارة وتنظيم المملكة أو فى المجال العسكرى. ولم يكتف باستعادة جنوب جبل أفرايم من يهودا، بل وأخذ الرامة «لكى لا يدع أحداً يخرج أو يدخل إلى أسا ملك يهوذا» [ملوك ١٥: ١٧]. ولكن أسباب الجفاء استمرت بين المملكتين. واتجه أسا إلى «بن هدد بن طبريمون» ملك آرام، وهو

«بن هدد الأول»، فأرسل له هدايا وطلب منه المساعدة [ملوك ١٥ : ١٨ - ١٩] وجاء «بن هدد» ليضم إليه المدن المحصنة في أرض نفتالي في غرب الجليل: «وضرب عيون ودان وأبل بيت معكة وكل كنروت مع كل أرض نفتالي» [ملوك ١٥ : ٢٠]. لقد حلت تلك الهزيمة الساحقة بإسرائيل في السنة الأخيرة من حكم «بعشا» وكانت وبالاً على بيته، الذي انهار في عصر ابنه «أيلة».

وقد تكرر ما حدث في نهاية عصر آل يربعام تلك المرة أيضاً، فاشتعل التمرد ضد الملك بعد الهزيمة العسكرية التي منيت بها المملكة. وكان قائد التمرد هو زمرى رئيس نصف المركبات، وورد في سفر الملوك الثاني ١٦ : ٩ - ١٠ أن زمرى قضى على أيلة بن بعشا، عندما كان جيش إسرائيل يحارب الفلسطينيين ويجدد الحصار على جفتون. وقد سال لعاب القواد بسبب قوة الجيش، واشتعلت حروب أهلية ونصبت عدة معسكرات قوادها ملوكاً لفترة قصيرة، واستمر ذلك لأربع سنوات.

ويفترض أن زمرى اكتسب تأييد جزءاً واحداً من الجيش، وهو المركبات، الذين ينتمون لطبقة أبناء النبلاء، وقاد زمرى النصف فقط. وعندما عرف أمر التمرد بين الجند المرابطين بجوار جفتون، اعتلى «عمرى» قائد الجيش الحكم بدلاً من أيلة الذي قُتل. وسارع عمرى وجيشه بالذهاب إلى ترصة وفرض الحصار على المدينة، ومات زمرى في حريق المدينة المحاصرة. وكان هناك جزء من الجيش، وهو المرابط في الشمال يحارب آرام، لا يعرف عمرى، لذا اختار ثقنى بن جينات ملكاً، وربما كان الأخير قائداً للجيش مثل عمرى. وتصارع كل منها على الحكم لمدة أربع سنوات انتهت بموت ثقنى وأصبح عمرى ملكاً على إسرائيل بكاملها. واستطاع المنتصر أن يجعل الوضع في إسرائيل مستقراً في فترة حكمه القصيرة، إلى الحد الذي جعل من بيته أولى الأسر المستقرة في الحكم.

فترة الحلف الوثيق:

لا توجد معلومات وافية حول فترة حكم آسا الطويلة [٩٠٨ - ٨٦٧ ق.م.]. ولعل أكثر أعماله التي حظيت بالتقدير في العهد القديم هو الإصلاح الدينى الذى قام به. ويعبر سفر الملوك عن هذا الإصلاح [١٥ : ١١ - ١٣] بأنه هو الذى ألقى سلطة معكة والدته، أى أنها لم تعد ذات أهلية فى الحكم. وهناك تبرير عقائدى واضح لهذا التصرف، فقد عوقبت معكة لأنها صنعت صنماً لأشرا وهى إلهة معروفة لدى أهل صور، وربما تنتمى معكة لأسرة ملوك أجنبية. غير أن سفر أخبار الأيام الثانى [١٥ : ١٠ - ١٦] يذكر أن هذا العمل كان جزءاً من حركة إصلاح شاملة قام بها آسا فى السنة الخامسة عشرة لحكمه. حيث جمع آسا الشعب فى القدس وأدخلهم فى عهد كى «يطلبوا الرب إله آبائهم» ومن الصعب التوصل إلى مجال الإصلاح الفعلى من خلال هذه القصة المتأخرة، ولكن يتضح أنه من خلال المصدرين يبدو أن آسا قد حاول محو التأثيرات الكنعانية التى تسعى إلى التوافق الدينى، والإعلاء من شأن عبادة الرب فى القدس.

وحدثت فى عهد يهوشافاط بن آسا ملك يهودا وأحاب بن عمري ملوك إسرائيل بعض التغييرات الحاسمة سواء فى مجال علاقة المملكتين ببعضهما أو بجيرانهما، أو فى مجال الحكم الداخلى العقائدى والإدارى. وقد أبدى هؤلاء الملوك ذكاء فى إدراكهم أنه يجب وضع حد للصراع العسكرى بين المملكتين الشقيقتين. أن وجود حلف وثيق بينهما من شأنه أن يعود بالفائدة على كل منهما فى المجال السياسى والاقتصادى. وازدادت قوة هذا الحلف بزواج يهورام بن يهوشافاط من عتليا ابنة عمري [وفى رأى آخر هى ابنة أحاب وإيزابيل]. ويشير هذا الحدث إلى نهاية فترة النزاعات والحروب بين المملكتين الشقيقتين. وكان ذلك بمثابة تنازل من ملك يهودا عن هدفه

رتجى، ألا وهو استعادة حكمه للملكة الموحدة. إلا أن مجرى الأحداث قد كد هذا الهدف، حيث أدى الحلف بين يهودا وإسرائيل إلى حلول السلام الازدهار فى كلتا المملكتين.

استطاع يهو شافاط بفضل السلام والاستقرار أن يستمر فى إجراء إصلاحات عميقة فى يهودا. ويحتفظ سفر أخبار الأيام الثانى ١٧ بتفاصيل تلك الإصلاحات. وجاء فيها أن يهو شافاط عين قضاة فى مدن يهودا المحصنة أقام مؤسسة قضائية عليا فى القدس، اشترك فيها اللاويون والكهنة وشيوخ لقبائل. وقد أدى هذا الإصلاح إلى إلغاء دور رؤساء الطائفة فى القضاء. فرض سيادة موظفى الملك حتى فى شئون القضاء. وتذكر نفس القصة أيضا أن يهو شافاط قام بإصلاح دينى، فأزال المذابح وعمل على نشر الشريعة. لكن من الصعب معرفة مدى تلك الأعمال حيث يتسم السفر بطابع سفر أخبار الأيام. ولا تتضح الأسس التى كان القضاة يحكمون بها ومن الصعب أن نفترض أنهم استخلصوا الحكم من كتاب مدون. بل الأقرب للصواب أن العادات المحلية والتقاليد الشفهية قامت بدور حاسم فى تشكيل نظم القضاء. وهناك إشارة مرجعية لهذا الأمر فى زمن داود، حيث وضع شريعة فى أمرما: «لأنه كنصيب النازل إلى الحرب نصيب الذى يقيم عند الأمتعة فإنهم يقتسمون بالسوية. وكان من ذلك اليوم فصاعداً أنه جعلها فريضة وقضاء لإسرائيل إلى هذا اليوم» [صموئيل ٢٠: ٢٤]. وإذا كان الأمر كذلك، فإن العصور التى سبقت بلورة الشريعة المكتوبة بشكل نهائى، مثلما كان الحال فى العصور التالية لها، تشهد وجود الشريعة الشفهية مصاحبة للمكتوبة وأحيانا ماتكون سابقة عليها.

وتجدر الإشارة إلى أن النظم القضائية فى بلاد الرافدين، على سبيل المقارنة، وعلى رأسها «قانون حمورابى»، كانت بمثابة إطار فكرى وحسب

أكثر من كونها قاعدة فعلية للأحكام المتعلقة بالحياة اليومية. وقد استخدمت في كافة العصور العادات المحلية المتأصلة هناك، وفقاً لتقاليد الشيوخ التي تنتقل من جيل لآخر.

ويفترض أن يهوشافاط هو الذي قسم يهودا إلى اثني عشر إقليماً، وهناك صدى لهذا التقسيم في الإصحاح الخامس عشر من سفر يشوع [في رأي ب. ميزر]. وتذكر الرواية الواردة في أخبار الأيام الثاني: ١٧ إقامة الجيش وتعضيده في زمن يهوشافاط: «وجعل جيشاً في جميع مدن يهودا الحصينة» كما تذكر أنه بنى «حصوناً ومدن مخازن». وقد ساهمت أعماله في مجال تنظيم الدولة في زيادة قوة الملك ومكانة الشريعة، والهيكل، وعاصمته القدس. وتعطى تلك المصادر انطباعاً بأن هذه الأعمال ساعدت على تقوية يهودا وبلورتها.

أما في مملكة إسرائيل، فإن فترة عمرى [٨٨٢ - ٨٧١ ق.م.]، وبالتحديد فترة حكم ابنه آحاب [٨٧١ - ٨٥٢ ق.م.] تعتبر عصراً جديداً. فمتلماً فعل سليمان في عصره، قام عمرى بعمل معاهدة وثيقة مع إيتبعل ملك صيدون الدن أسس أسرة جديدة في صور، ووصلت صور في عصره إلى قمة الازدهار في مجال التجارة وإنشاء مراكز تجارية في ماوراء البحار. وحسبما جرت العادة في ممالك تلك الفترة في المناطق المجاورة تم تعزيز تلك المعاهدة بعلاقة مصاهرة ملكية، فتزوج آحاب بن عمرى من إيزابيل ابنة إيتبعل. وفي المجال العسكري حقق عمرى نجاحاً في حربه التي خاضها في جنوب عبر الأردن وقضى على موآب في فترة حكم كمشيت بن ميشع. ويحكي نقش ميشع المشهور تلك القصة: «ويضايق موآب فترة طويلة ويثير غضب كموش في أرض، ويعقبه ولده فيقول هو أيضاً: أضايق موآب». ومن هنا يتضح أن هزيمة موآب كانت ساحقة، وأن سيطرة إسرائيل على موآب

استمرت لسنوات قليلة، وتم ذكرها في نهاية حكم ميشع بإعتبارها فترة استعباد طويلة.

ولا يتضح مدى نجاح عمري في شمال عبر الأردن ضد الآراميين، وقد انعكست مسألة العلاقات بين آرام وإسرائيل في زمن عمري من خلال ماورد في الملوك الثاني ٢٠: ٢٤ حول المفاوضات بين آحاب وبين هود الثاني بعد هزيمة الأخير أمام إسرائيل. وتذكر الفقرة: «وقال له إنى أرد المدن التى أخذها أبى من أبيك وتجعل لنفسك أسواقاً فى دمشق كما جعل أبى فى السامرة». [الملوك الثاني ٢٠: ٢٤]. وإذا كان هذا الكلام قد قيل حقاً لآحاب على لسان بن هود [وليس كما يرى البعض أنه على لسان آحاب ابن هود]، فإن معنى ذلك أن الآراميين كانوا قد انتصروا فى الماضى على عمري والد آحاب وجعلوا فى السامرة أسواقاً تجارية حرة. ولكن إذا كان آحاب هو صاحب تلك الكلمات، يصبح المعنى معكوساً، وتشهد حذقنا على انتصار عمري على بن هود وضمه لبعض المدن. أما أبرز الدلائل على قوة عمري فهو تأسيس عاصمة جديدة للملكة، وهى السامرة، والتى بنيت فى منطقة يساخر فى "هراأرايم" (جبل أفرام)، وربما تكون تلك هى مسقط رأس أسرة عمري. وقد أخذ اسم السامرة [أو شومراين مثلما يكتب فى الآرامية والآشورية] من اسم مستوطنة قديمة كانت موجودة فى نفس المكان، وكانت تسمى بنفس الاسم. ويتسم موقع السامرة بعدة سمات، حيث بنيت بجوار طرق التجارة الهامة الموصلة إلى سوريا وصور. ويعتبر إنشاء عاصمة جديدة رمزاً واضحاً لاستقلالية عمري الذى أعلن بذلك عن عدم رغبته فى البقاء بإحدى المدن المقدسة القديمة فى مملكة إسرائيل. ويتشابه هذا الفعل من عدة جهات مع اختيار داود للقدس كعاصمة ملكية. ولا عجب إذن فى أن اسم «بيت عمري» كان هو الاسم الرسمى لمملكة إسرائيل فى المصادر الآشورية، حتى بعد انهيار حكم أسرة عمري.

ويبدو أن أحاب قد شارك في السنوات الأخيرة لحد
وسار على نفس الخطى السياسية التي بدأها أبوه وطورها. وأ
مملكة إسرائيل في عهده إحدى الممالك الهامة في المنطقة، وتش
الاكتشافات الأثرية إلى أن فترة أحاب قد شهدت ازدهاراً اقتصادياً في
إسرائيل بعد تطوير التجارة والصناعة وتوسيع حركة تمدين الريف
والإتساع الإقليمي.

وقد أدت تلك المعاهدة الوثيقة مع يهوشافاط ملك يهودا إلى تقوية موقف
المملكتين، وزيادة نشاطهما في البيئة المحيطة. وبهذا أصبحت إسرائيل
مركزاً اقتصادياً وسياسياً يربط يهودا بطرق التجارة التي تمر بها، مع مملكة
صو. وربما تكون تلك المعاهدة واحتياجاتها الاقتصادية هي ما حفزت
يهوشافاط على معاودة السيطرة على أدوم، مثلما كان في عصر سليمان، لكي
يسيطر على طرق التجارة العربية بكل ماتعود به من منافع عليه، وأصبح
«الطريق الرئيسي» الموصل من عبر الأردن الشرقي إلى شمال بلاد العرب
تحت سيطرة يهودا وإسرائيل. ويحتمل أن الصراع على السيطرة على طرق
التجارة في عبر الأردن هو الذي أدى لاندلاع الحروب بين آرام وإسرائيل.
ويتضح أن زمن تلك الحروب كان في بداية فترة حكم أحاب وليس في
نهايتها. وكانت الغلبة في تلك الحروب لبن هدد في البداية، وبعد هذا
الانتصار قام أحاب بمبادرة دبلوماسية تعكس فهماً للمخاطر الكامنة في
الآفة سواء بالنسبة له ولبن هدد، فأبرم معاهدة مع بن هدد، وأصبح كلاهما
- بمشاركة حماة - عنصراً عسكرياً متقدماً. ولشك لدينا الآن، في أن هذا
التقارب الغريب بين العدوين التاريخيين يرجع إلى ظهور آشور في القرن
التاسع كقوة عظمى عدوانية تشكل خطراً على وجود ممالك سوريا
وإسرائيل معاً.

التحدى الآشوري:

أثار ملوك آشور آشور نصريال الثاني [٨٨٣ - ٨٥٩] وإبنه شلمناصر الثالث [٨٥٩ - ٨٢٤] الرعب في كل ممالك سوريا، عن طريق المعارك الحربية التي كانوا يقومون بها سنوياً غرب الفرات. وقد ظهرت الأهداف الاستعمارية للحملات الآشورية في عصر آشور نصر بال الثاني، الذي وصف أعماله الوحشية تجاه الشعوب التي استعمرها في كتابات مفصلة. ولا يوجد مثيل لهذه الكتابات المفصلة في القوائم السنوية لملوك آشور اللاحقين. وكان هدف ملوك آشور هو إلقاء الرعب في قلوب ملوك البلاد الواقعة غرب الفرات، وهي الدول الحيثية الجديدة، والآرامية في شمال بلاد الرافدين وشمال سوريا.

واعتمدت قوة آشور على الناحية العسكرية، حيث أسس هذه القوة ملوك آشور في القرن التاسع، بعد أن طوروا تقنيته الحصار وجندوا جيش مركبات قوى. وكانت حملات آشور نصريال تهدف لجلب الغنائم من الممالك الثرية في شمال سوريا، وبخاصة الفضة، والذهب، ووسائل الرفاهية، وكذلك المواد الخام المستخدمة في بناء العاصمة كلح [نمرود]، وتم سبي كثير من السبايا في تلك الحملات، اقتيد بعضهم إلى آشور وأعيد البعض الآخر إلى العاصمة.

واستمر شلمناصر الثالث ابن آشور نصريال في تطوير سبل التوسع الآشوري. وعندما تولى شلمناصر الثالث الحكم بدأ في تنظيم حملات عسكرية غرب الفرات، ووجد أمامه وضعاً مختلفاً عن هذا الذي كان موجوداً في عهد والده. وكانت هناك معاهدتان تواجهان آلة القوة العسكرية الآشورية، معاهدة ملوك شمال سوريا وجنوب الأناضول [بلاد الروم]، والمعاهدة المذكورة في كتابات شلمناصر «ملوك حيتي (سوريا) الاثنى عشر وشاطئ البحر» والتي

كان على رأسها دمشق وحماة، ويذكر بعضها مباشرة اسم آحاب الإسرائيل. أما باقى المشاركين فى المعاهدة فهم مدن فينقيا، والعرب [وهو أول ذكر لهم فى الوثائق التاريخية]، وإمدادات عسكرية مصرية رمزية. ويحتفظ نصب تذكارى يرجع للسنة السادسة من حكمه (٨٥٣) بقائمة الحلفاء كاملة، وتعرف تلك القائمة باسم «الحلفاء» والتي تصف أيضا حرب آشور مع أصحاب المعاهدة فى شمال سوريا، وتنص على:

«خرجت من الفرات واقتربت من حلب. خاف أهل حلب من محاربتى. وأخذت منهم ضرائب من فضة وذهب. وقدمت القرابين لأدد إله حلب. خرجت من حلب وتوجهت إلى مدينتى إرحوليني فى حماة. وضممت كل من أدينو، برجا، أرجنا. وأخذت الغنائم، والثروات، وأدوات الهيكل، وأحرقت المعابد.

وخرجت من أرجنا إلى قرقر. ودمرتها، وأحرقتها.

١٢٠٠ مركبة ١٢٠٠ فارس ٢٠ ٠٠٠ مشاة لهدد عزر من أرض دمشق

٧٠٠ مركبة ٧٠٠ فارس ١٠ ٠٠٠ مشاة لإرحوليني من حماة

٢٠٠٠ مركبة ٧٠٠ فارس ١٠ ٠٠٠ مشاة لإرحوليني من حماة

٢٠٠٠ مركبة ٧٠٠ فارس ٥٠٠ مشاة من أهل جقل

٢٠٠٠ مركبة ٧٠٠ فارس ١٠٠٠ مشاة من مصر

١٠ مركبات ٧٠٠ فارس ١٠ ٠٠٠ مشاة من أهل عزق

١٠ مركبات ٧٠٠ فارس ٢٠٠ مشاة من متن بعل الأرودى

١٠ مركبات ٧٠٠ فارس ٢٠٠ مشاة من أهل أوسنو

١٠ مركبات ٧٠٠ فارس ١٠ ٠٠٠ مشاة من أدوني بعل السيانى

١٠ مركبات ٧٠٠ فارس ١٠ ٠٠٠ جمال من جندبو العربى

(٠٠٠) مشاة من بعشا بن راحوب

العمونى

وقد جلب هؤلاء الملوك الإثنى عشر لمساعدته، وانتظموا ضدى فى معركة حاسمة. وبفضل القوة التى منحها لى الإله آشور، وبفضل الأسلحة الفتاكة التى منحها لى الإله نرجل حاربتهم. وهزمتهم من قرقر وحتى جزو. وضربت بالسيف ١٤٠٠٠ من جيوشهم، وملأت السهل بجثثهم المتناثرة.

وتوجد دلائل على أن إسرائيل تفوقت على باقى الحلفاء من حيث جند المركبات، مما يدل على القوة العسكرية والاقتصادية التى كانت عليها إسرائيل قبيل تلك المعركة.

ولم يحقق ملك آشور فى معركة قرقر أى تقدم، لذا عاد لمحاربة «الملوك الإثنى عشر» فى السنوات التالية: ٨٤٩، ٨٤٨، ٨٤٥، ولكن لم ترد إلينا مصادر مفصلة كتلك السابقة، وتحدث الوثائق عن تلك الحروب بشكل موجز للغاية. ولهذا لانعرف ما إذا كانت مملكة إسرائيل قد اشتركت فى تلك الحروب. وعلى أية حال، وفقاً لما ورد فى سفر الملوك الأول: ٢٢ لقي آحاب حتفه فى معركة اشترك فيها مع يهوشافاط فى جلعاد ضد بن هدد الأرامى. وتشهد المعطيات التاريخية المقرائية أن زمن هذه المعركة كان عام ٨٥٢ ق.م أى بعد عام من معركة قرقر، حيث كانت المعاهدة مازالت قائمة بين إسرائيل وأرام. ونقضت تلك المعاهدة بمبادرة من آحاب، حسب ماورد فى المقرأ، ولكن هناك شك فى أن تكون تلك المعاهدة قد أبرمت من جديد فى عهد يهورام بن آحاب عام ٨٤٩ ق.م، أو أن تكون إسرائيل قد اشتركت حقاً فى حلف الملوك

الثورة الدينية الإجتماعية - قمر د ياهو:

أدت العلاقات الاقتصادية الوثيقة بين إسرائيل ومدن فينقيا، واشتراكها في المعاهدات العسكرية مع «ملوك سوريا والساحل»، إلى فتح المجال للتأثيرات الثقافية والدينية لثقافة وديانة كنعان. وازداد هذا الاتجاه، بلاشك، بسبب زواج أحاب من إيزابيل ابنة ملك صور. ولهذا ازدادت أواصر الصداقة مع صور، وتجلت ذلك في إدخال عبادة البعل إلى البلاط الملكي. وأنشئ هيكل للبعل في السامرة، خدم فيه كهنة بعل من صور. ويتضح أن كثير من الطبقات العليا في الشعب، وبخاصة رجال البلاط والقادة قد شاركوا في تلك العبادة. وبطبيعة الحال، ساهمت محاولات التمدين وارتفاع مستوى المعيشة لطبقة التجار وموظفي الملك في اشتعال الصراعات الإجتماعية بين الطبقات الصاعدة والدوائر المحافظة. ويفترض أن اشتعال الصراعات في المجتمع كان موازياً لازدياد الفجوة الثقافية، وكذلك لازدياد الصراعات الدينية. ورغم أننا لا نملك وصفاً صريحاً لذلك في المصادر المقرائية، إلا أنها ليست مصادفة أن يعبر عن الصراع بين الأنبياء والحكام في تلك الفترة في قصة نابوت هايزرعئيلي. ويظهر من خلال وصف هذا الحدث مدى ثبات التقاليد البطركية في إسرائيل، والتي لم تسمح حتى للملك أن يلغى حق إنسان في ملكيته من رغبته [وكان هذا هو الحال في الممالك الكبرى آشور وبابل].

ولم يجرؤ أحاب نفسه على المساس بتلك التقاليد المقدسة الخاصة بحق الفرد في أرضه. وفي مقابل ذلك تستنكر القصة غياب المؤسسات الجماعية، وظهر شيوخ الطائفة بصورة الضعفاء الفاسدين، الذين لا يتورعون عن الحكم

القضائي بالإعدام بأمر الملكة إيزابيل. وتصف القصة شخصية تلك الملكة الصورية وموقفها من حقوق الإنسان الطبيعية، بشكل درامى مختصر وحاد للغاية. فهي تسخر من الملك الضعيف، وتعتبر حقوق الفرد رادعاً لرغباته: «أنت الآن تحكم على إسرائيل؟... أنا أعطيك كرم نابوت اليزريئلى» [الملوك الأول ٢١:٧]. واستغلت إيزابيل بوقاحة مفهوماً قضائياً قديماً متعارف عليه، يفرض عقوبة الإعدام على من يجدف على الرب أو يسب الملك، وأشارت على شيوخ الشعب بمحاكمة نابوت والحكم عليه بالإعدام، وبالتالي مصادرة ممتلكاته، وفقاً لشهادة زور التي تمت بتدبيرها وبمعرفة الملك والقضاة.

وتظهر حيوية وقوة الحركة الدينية من خلال تلك المواجهة الحاسمة، ولتصبح لسان العدل واحترام حقوق الإنسان، وتوجيه الصرخة إلى الحاكم المستبد على لسان إيليا التشبى: «هل قتلت وورثت أيضاً؟» [الملوك الأول ٢١:١٩].

ووصلت المواجهة بين النبوة والحاكم إلى ذروتها فى قضية البعل. وطبقاً لما ورد فى الإصحاحات ١٨، ١٩ فى سفر الملوك الأول، والتي يرجع مصدرها إلى أبناء الأنبياء، حارب إيليا معركته الفردية ضد الملكة وبلاطها، ووضع زمام الشعب فى هذا الصراع خياراً واحداً «حتى متى تعرجون بين الفرقتين. إن كان الرب هو الله فاتبعوه. وإن كان البعل فاتبعوه» [ملوك ١٨:٢١]. ومن خلال هذه القصة نستمتع للمرة الأولى إلى لهجة السخرية من عبادة الأوثان: «سخر بهم إيليا وقال: ادعوا بصوت عال لأنه إله. لعله مستغرق أو فى خلوة أو فى سفر أو لعله نائم فينتبه» [ملوك ١٨:٢٧]. وظهر هذا الموضوع مرة أخرى فى فترة النبوة الكلاسيكية [أشعيا

غير أن قوة الأنبياء لم تصمد في تلك المرحلة وانتهت الحركة بالفشل، ووصلت إلى حد الأزمة التي كانت وقتية فحسب. وعلى الرغم من فشل الحركة، لم ينس الشعب مبادئها، وصار لها مؤيدون حتى في بلاط الملك، مثل القائد عوقويا الذي أخفى أبناء الأنبياء في أثناء المطاردات القاسية التي قامت بها إيزابيل. ولا عجب إذن في أنه لم يمر وقت طويل، حتى استعادت حركة النبوة قوتها في عصر يهورام بن آحاب [٨٥١ - ٨٤٢ ق.م]. وحينئذ صمد أبناء الأنبياء بشكل علني أمام سياسات نظام الحكم. ولم يكن إيليا زعيماً لتلك الحركة في تلك الأيام، بل تلميذه ووريثه الروحاني أليشع النبي.

وكانت الحروب العديدة التي خاضها يهورام أحد البواعث الرئيسية لتمرد الشعب ضد الملكية، حيث لم تثمر تلك الحروب إلا هزائم وانكسارات. وبعد موت آحاب في حربه ضد بن هدد، خرج يهورام حوالي عام ٨٥٠ ق.م في معركة ضد موآب لقمع تمرد ميشع ملك موآب. واشترك في تلك الحرب يهوشافاط ملك يهوذا، إلا أنها لم تحقق أي نجاح. ورغم أن الحلفاء ضيقوا الخناق على موآب إلا أنهم لم يستطيعوا احتلالها. وعندما قدم ميشع بكره قربانا لإلهه في حفل مهيب على أسوار المدينة المحاصرة، ازدادت قوة الموابيين وانسحبت جيوش إسرائيل ويهوذا [الملوك الثاني ٢٧:٣].

وقد حلت هزيمة أخرى في حرب إسرائيل وآرام، ففي عام ٨٤٣ ق.م تغيرت الأسرة الحاكمة في آرام، عندما مات بن هدد الثاني أو قتل، وتولى الحكم قائد جيشه حزائيل. ووجد يهورام الوقت ملائماً في أثناء أزمة الحكم في دمشق، كي يشن حرباً على آرام، ويستعيد الجولان وباشان التي كانت

فى حوزة آرام منذ عهد بن هدد الأول. واشتعلت المعركة فى جلعاد، التى كانت تحد جنوب المناطق الآرامية فى عبر الأردن، وضرب جيش إسرائيل وأصيب يهورام.

وقد أدت تلك الهزائم التى منى بها الملك فى معاركة الخارجية وحملاته العسكرية، إلى تمرد جيشه بزعامة ياهو بن نمشى، وهو أحد قادة جيش يهورام. وطبقا لقصة سفر الملوك الثانى [ملوك: ٩] كان النبنى يشع هو المحرض على هذا التمرد، ووصل مبعوث يشع، وهو أحد أبناء الأنبياء، إلى معسكر الجيش فى رامة جلعاد ومسح ياهو ملكاً وأمره باسم الرب أن يدمر بيت أحاد للانتقام لدمار الأنبياء التى سفكتها إيزابيل. وعندما علم باقى قادة الجيش بالأمر «بادركل واحد وأخذ ثوبه ووضعته تحته على الدرج نفسه وضربوا بالبوق وقالوا قد ملك ياهو». [ملوك: ٩ - ١٣].

وذهب ياهو على رأس جيش إلى يزرعيتل، حيث يوجد الملك، وقتل يهورام، ثم ذهب إلى السامرة وقتل الملكة إيزابيل وكل بيت أحاب، بل وقتل أيضا أحزيا ملك يهودا الشاب ابن عتليا أخت يهورام. ووصل التمرد إلى ذروته بإبادة جميع عابدى البعل وتدمير معبد البعل. واستعان ياهو فى ذلك بأبناء ريكاب المتطرفين، الذين يتمسكون بعبادة الرب وطهارتها، ويعيشون وفقا لأسلوب الحياة فى الصحراء [ويعتقد أن إيليا التشبى كان ينتمى إليهم]. لقد تحقق هدف كل من ضايقهم بيت أحاب، وفى مقدمتهم أبناء الأنبياء. وتم القضاء على عبادة بعل صور نهائياً ولم تعد لإسرائيل ثانية. ويعتبر تمرد ياهو من هذا المنطلق بمثابة مفترق الطرق فى العلاقة بين مملكتي إسرائيل ويهودا.

(ج) فترات الانحطاط والازدهار. ودمار مملكة إسرائيل (٨٤٢ - ٧٢٠ ق.م)

فترة الانحطاط:

نجح تمرد ياهو، كما ذكرنا من قبل، فى إزالة التأثيرات الكنعانية من العبادة والثقافة، ولكن نتائج هذا التمرد حلت مأساة لكل من ويهودا معاً. حيث بدأت فترة الانحدار منذ عهد ياهو، حيث تعتبر من أخطر الفترات فى تاريخ المملكتين، واستمرت حتى عام ٨٨٠ ق.م تقريباً.

وحسبما يحكى سفر الملوك الثانى [٩: ٢٧ - ٣٣]، قتل فى هذا التمرد كل من إيزابيل زوجة الملك وأحزيا ملك يهودا. وقد تسببت هذه الأحداث الدرامية فى نتائج سياسية بعيدة المدى، حيث ألغيت المعاهدة الثلاثية التى أبرمت فى عهد آحاب ويهوشافاط. وأصبحت مملكة إسرائيل منذ الآن فصاعداً وحيدة أمم عدوها التاريخى آرام دمشق، التى اعتلى الحكم فيها مؤسس أسرة جديدة، وهو حزائيل قائد جيش بن هدد، وكان حاكماً واسع الحيلة وطموحاً نجح فى تحويل آرام دمشق إلى مملكة كبرى.

وكان تخفيف المداء بين إسرائيل وأرام وبين آرام وحماة. والذى عبرت عنه معاهدة «الملوك الإثنى عشر وساحل البحر»، هو القوة التى ضمنت استقرار المنطقة فى السنوات الأخيرة من حكم آحاب، ومعظم عهد يهورام. غير أنه وفقاً لعادة تلك الفترة كانت المعاهدة قائمة على مبايعة بين الملوك وذرياتهم، وبطبيعة الحال، ويتعاقب الأسر الملكية، سواء فى آرام أو فى إسرائيل، زال أثر المعاهدة، مما فتح ثغرة لشلمنصر الثالث ملك آشور الذى يقتحم المنطقة ويحتل الدول القائمة بها. وفى عام ٨٤١ ق.م أغارت آشور على آرام ومنى الملك حزائيل بالهزيمة، ووصل جيش آشور إلى «هاحوران»، وانتقل

من هناك إلى منطقة تسمى «هربعل روش» في لغتهم، وربما تكون جبل الكرمل. وأخذ شلمناصر في طريقه جزية من ملك صور ومن ياهو ملك إسرائيل، الذي يسمى في الكتابات الآشورية «ياهو بن عمرى»، أى أنه حاكم مملكة «بيت عمرى». ويفترض أن الهدية التى قدمها ياهو لآشور، والتى ظلت صورتها باقية على «المسلة السوداء» الشهيرة، هى بالفعل الهدية التى قدمت عام ٨٤١ ق.م.

وترك شلمناصر جنوب سوريا وفلسطين بعد بضع سنوات من تلك الحملة، واتجه إلى جنوب الأناضول [بلاد الروم]. ومنذ ذلك الحين ازدادت قوة آرام دمشق، وأصبحت مهيمنة على وسط وجنوب سوريا وكذلك على شمال سوريا بعد موت شلمناصر. وقد أرسى بنهدد الثالث ابن حزائيل قواعد تلك الهيمنة.

احتل حزائيل جلعاد فى عهد ياهو، من باشان وحتى وادى أرنون، وأخضع كل من عمون وموآب وأدوم لآرام، ونظم حملة عسكرية عام ٨١٤ ق.م تقريباً فى جميع تخوم إسرائيل، وأخذ جزية ضخمة من ملك يهودا، ووصل حتى جت الفلسطينيين. ويحتمل أنه فرض سيطرته على أرض الفلسطينيين بكاملها. وحدث ذلك فى السنة الأخيرة من حكم ياهو.

وأما عهد يهو أهاز بن ياهو [٨١٤ - ٨٠٠ ق.م]، فكان من أكثر فترات الانحطاط فى تاريخ مملكة إسرائيل. حيث فرض كل من حزائيل وابنه بن هود سلطانهما فعلياً على معظم تخوم مملكة إسرائيل، وأصبح يهو أهاز تابعاً لآرام. ويعكس سفر الملوك الثانى [١٣ - ٧] تدهور إسرائيل: «لأنه لم يبق ليهو أهاز شعباً إلا خمسين فارساً وعشر مركبات وعشرة آلاف راجل لأن ملك آرام أفناهم ووضعهم كالتراب للدوس».

وتظهر فترة الانحطاط كذلك من خلال مجموعة قصص أليشع الواردة في سفر الملوك الثاني الإصحاحات الخامس والسابع، وإن لم يذكر يهود أهاز بإسمه، فلاشك أنه كان المقصود بقوله «ملك إسرائيل»، الذي أمر بعلاج نعمان رئيس جيش آرام من البرص، ووقف عاجزاً أمام حملات السلب الكثيرة التي قام بها الآراميون على الأرض [الملوك الثاني ٦: ٥، ٦: ٦ - ٢٣]. وتحمل تلك القصص صدى حقيقى لدى خضوع ملك إسرائيل ملك آرام فى تلك الفترة. ويرى حزقيال كونهيمان أن فترة الخضوع لآرام تظهر أيضاً فى النبوءات الخاصة بالأغيار فى بداية نبوءات عاموس [عاموس ١-٣].

ويتضح، حسب رأى كونهيمان، أن تلك النبوءة سابقة لعاموس، وهى تحمل صدى لوحشية الآراميين «لأنهم داسوا جلعاد بنوارج من حديد» [عاموس ١: ٣]. كما يتهم أدوم «لأنه تبع بالسيف أخاه وأفسد مراحمه وغضبه إلى الدهر يفترس وسخطه يحفظه إلى الأبد» [عاموس ١: ١١]، وتتهم هذه النبوءة أبناء عمون «لأنهم شقوا حوامل جلعاد لكى يوسعوا تخومهم» [عاموس ١: ١٣]، وهذه النبوءة تذكر للشعوب المجاورة أفعالها التى حاولت فى تلك الأيام الاستيلاء على الاستيطان الإسرائيلى من عبر الأردن. وقد تم خلاص إسرائيل من الآشوريين هذه المرة بأسلوب مخالف، حيث استأنف أدد نيرارى الثالث [٨١٠ - ٧٨٢ ق.م] الحملات الحربية الآشورية غرباً، وعقد العزم على كسر السيادة الآرامية الكبرى فى أنحاء سوريا وأرض فلسطين. وحارب آرام عدة مرات، ونجح عام ٧٩٦ فى إلحاق هزيمة ساحقة بملك دمشق، وتلقى منه جزية ضخمة داخل عاصمته دمشق. ومنذ ذلك الحين فصاعداً بدأ تدهور آرام دمشق كقوة عظمى. ولاشك فى أن هزيمة دمشق على يد أدد نيرارى هى التى أدت لكسر النير الآرامى عن إسرائيل. وقد أشار العهد القديم لهذه الأحداث كمجرد صدى بعيد فحسب: «وأعطى الرب

إسرائيل مخلصاً فخرجوا من تحت يد الأراميين». [الملوك الثاني ١٣: ٥].

وقد أخذ موقف إسرائيل منذ ذلك الحين يزداد قوة، حتى أنها نجحت في عهد يوأش بن يهو أهاز [٨٠٠ - ٧٨٤ ق.م] في استعادة جزء كبير من أراضيها التي كانت بحوزتها في الماضي:

«وأخذ المدن من يد بنهدد بن حزائيل التي أخذها من يد يهو أهاز أبيه بالحرب. ضربه يوأش ثلاث مرات واسترد مدن إسرائيل». [ملوك ١٣: ٢٥].

وكانت جماعة الأنبياء، وعلى رأسهم أليشع الذي كان شيخاً معجزاً، هي التي شجعت ملك إسرائيل للقيام بحملة تحرير قومية، وحرب إبادة آرام. قال الشيخ [أليشع]: «سهم خلاص للرب وسهم خلاص من آرام فإنك تضرب آرام في أفيق إلى الفناء». [الملوك الثاني ١٣: ١٧]. ويطلب النبي من ملك إسرائيل بأسلوب رمزي أن «يضرب خمس أوست مرات». [الملوك الثاني ١٩: ١٣].

وقد مرت يهودا بتغييرات بعيدة المدى في فترة السيادة الآرامية. فعند موت أخزيا [٨٤٢ ق.م] تولت أمه عثليا مقاليد الحكم، وأبادت كل نزية الملك وفقا لما ورد في سفر الملوك الثاني الإصحاح [١١] كي تدعم حكمها. ومثلما فعلت إيزابيل، أدخلت عثليا عبادة بعل صور إلى القدس حيث كانت منتشرة في أسيرة آحاب، وبنّت معبداً للبعل في القدس، قام بالكهانة فيه رجل من صور، كما يتضح من اسمه «متان». ويرد ذكر تسلسل الأحداث التي وضعت نهاية لحكم عثليا تفصيلياً وباستفاضة في نفس المصدر، وفي مصدر مقابل [أخبار الأيام الثاني: ٢٣]. وطبقاً لما ورد في سفر الملوك الثاني [٢: ١١] أخذت أخت أخزيا يوأش وخبائته، وهو أصغر أبناء الملك، وظل مختبئاً لست سنوات. وفي السنة السابعة تم تدبير مؤامرة ضد عثليا تزعمها الكاهن يهو

ياداع. وتكشف هذه القصة بعض التفاصيل عن القوى الاجتماعية والبنية العسكرية فى مملكة يهودا فى هذه الآونة. وطبقاً لما ورد فى أخبار الأيام الثانى [٢:٢٣]، اتفق يهو ياداع مع رؤساء المئات، وهم الذين اشتركوا بصفة رئيسية فى المؤامرة [وعلى ما يبدو أنهم من كانوا يعملون فى كهانة الهيكل]، وكذلك «السعاة» وهم الجند الذين كانوا يقومون بدور القسم الذى: «يدخلون فى السبت يحرسون حراسة بيت الملك» [الملوك الثانى ١١:٥].

وقد قُتلت عثليا وقام يهو ياداع بتنصيب يوأش فى الهيكل فى احتفال علنى مؤثر. ويحتمل أن قصة وصف تنصيب الطفل يوأش ملكاً، كانت هى الطقوس المعتادة فى تنصيب ملوك يهودا من بعد سليمان. فلقد وضعوا عليه «التاج وأعطاه الشهادة فملكوه ومسحوه وصفقوا وقالوا ليحي الملك». [الملوك الثانى ١١:١٢] وفى نفس الوقت كان «الملك واقفاً على المنبر حسب العادة والرؤساء ونافخو الأبواق بجانب الملك وكل شعب الأرض يفرحون ويضربون بالأبواق» [الملوك الثانى ١٢:١٤]. وقد تأكدت ملكية يوأش بواسطة المعاهدة التى أبرمت بين الرب والملك والشعب. وتم وصف هذه المعاهدة فى القصة باعتبارها معاهدة مزدوجة، فهى من ناحية بين الشعب وإلهه «ليكون شعب الرب»، ومن ناحية أخرى «بين الملك والشعب» [ملوك ١١:١٧] ولقد ظهر «شعب الأرض» أثناء تنصيب يوأش بالقوة الجسدية حيث اشترك فى حدث الانقلاب وفى تدمير البعل. وهذه هى المرة الأولى التى يرد فيها فى المصادر تعبير «شعب الأرض» ككيان فاعلة فى سياسة التنصيب والسياسات الدينية. وبعد ذلك، فى نهاية فترة مملكة يهودا، يظهر «شعب الأرض» ككيان ذى صلاحية مميزة فى اختيار الملوك كلما تغير نظام الثورات المضطربة.

وقد فسرنا نصوص العهد القديم بمحض الصدفة مغزى مصطلح «شعب الأرض» فى ذلك الوقت: ففى إحدى مرات التنصيب بعد مؤامرة

سياسية [وهي المناسبة التي ذكر فيها «شعب الأرض» عامة] وأثناء تنصيب عزريا بعد مقتل أبيه أمصيا، أطلق على الكيان الذي قام بالتنصيب اسم «كل شعب يهودا». ولا يمكن افتراض أن هناك جماعة أكبر ممن اشتركت في حالات تنصيب أخرى في هذه المرة. ويشهد الواقع أن «شعب الأرض» جاء تعبيراً عن مشاركة أكثر اتساعاً للجماعة في النشاط السياسي.

وقد أدت الظروف الخاصة التي صاحبت اعتلاء يوأش عرش الملكية إلى نتائج حاسمة في كل مايتصل بمكانة الهيكل وكهنته في المملكة. ولا يوجد أى ذكر لتدخل الكهنة في الشؤون السياسية طوال فترة مملكة داوود وحتى اعتلاء يوأش للحكم. وهذه المرة، وبسبب الدور الحاسم الذي لعبه الكاهن يهوياذاً في إعادة الأمور لنصابها المشروع، ظهر الكاهن في صور مخلص المملكة أمام الشعب. وكذلك في السنوات التي تلت التمرد، في شباب الملك، عندما عمل يهوياذاً كوصي على العرش [والى]، بابتكاره لمنصب سياسى وهو «الكاهن الرئيسى» أو «الكاهن الاعظم». ومن الممكن، بواسطة هذه الخلفية، تفسير الخلافات الحادة التي اندلعت بين الملك ومستشاريه وبين الكاهن الأعظم في نهاية عهد يوأش. ولكن يحتمل أن يكون أحد مصادر الخلاف هو نزاع الاختصاصات حول الأموال المخصصة للهيكل وكيفية استخدامها. وطبقاً لماود في العهد القديم، أخذ الكهنة قُداس الهيكل [أموال الهيكل والدخل الخاص به] لأنفسهم وأهملوا ترميم الهيكل الذى كان واجباً عليهم.

أما يوأش فقد كرر هذا النظام وأجبر الكهنة «على ألا يأخذوا قسمة من الشعب» [ملوك ١٢: ٨]، وفى مقابل ذلك نظم جباية شعبية واسعة خصصت كلها لصالح عملية الترميم. وهناك سبب آخر للخلاف، على ما يبدو وهو الجزية التي دفعها يوأش لحزائيل الآرامى عام ٨١٤ ق.م، والتي أخذها من كنوز الهيكل. وبالإضافة إلى النزاعات بين الملكية والكهانة، والوضع

الاقتصادي القاسى الذى سببته العزلة الإقليمية والانقطاع عن طرق التجار مع سوريا وفينيقيا، حدث أيضا الخضوع السياسى لحزائيل وينهدد ملكم آرام.

وطبقا لما ورد فى سفر أخبار الأيام الثانى [٢٤]، أعد الآراميون حملة على يهودا فى نهاية عهد يوأش [حملة ثانية] ولكن هذه الأمور ليس لها أى أساس. وقد قتل يوأش خلال أحداث النزاعات الداخلية فى يهودا، وظروف الخضوع لأرام، على يد اثنين من عبيده.

وقد بدأ يتضح فى عهد أمصيا بن يوأش [٧٩٨ - ٧٦٩ ق.م] نوع مز التغير فى الموقف السياسى والإقليمى ليهودا، حيث أدخل أمصيا إصلاحات على الجيش فى يهودا، ونظم حملة على أدوم التى شقت عصا الطاعة علم يهودا فى عهد جده يورام بن يهوشافاط، فحُرب أدوم فى «وادي الملح» [ملوك ١٤: ٧] وأخذ «سالم»، ولكنه لم ينجح فى الوصول إلى ساحل البحر الأحمر واعتماداً على خلفية تصاعد القوة العسكرية ليهودا، يمكن أن نفهم القصد المبهمة الواردة فى [ملوك ١٤: ٨]، والتى تحرش فيها أمصيا بيوأش ملا إسرائيل ودعاه للنزال. ربما تشير تلك القصة، والتى سبقت النزال فيه محاولة أمصيا لبدء مفاوضات بين المملكتين، إلى فشل المحاولة. وكانت نتيجة هذا النزال هزيمة ساحقة ليهودا، حيث ضرب جيش يهودا فى المعركة التى دارت فى بيت شيمش، وتم أسر أمصيا وصعد جيش يوأش الإسرائيلى إلى القدس، فأخذها وهدم أسوارها. وسرق جميع كنوز الهيكل وأخذ كثيراً من الأسرى للسامرة. وقد حدث كل هذا فى السنة الرابعة عشرة من حكم أمصيا [٧٨٥ ق.م]، وبعدها تحرر أمصيا وحكم خمسة عشر عاماً حتى قتل متأمرون فى لخيش. وهنا تدخل «كل شعب يهودا» فى نظام توارث الملكية [الملوك الثانى ١٤: ٢١] ونصب ابنه عزريا ملكاً.

ومن الصعوبة بمكان تحديد التنظيم التاريخي للوك يهودا فى هذه الفترة. ويمكن أن نفترض أن تنصيب عزريا لم يتم بعد مقتل أبيه فى لخيش، بعد حكم ٢٩ عاماً، بل تم بعد معركة بيت شيمش، أى فى السنة الرابعة عشرة من حكم أمصيا. وطبقاً لهذا الافتراض حكم عزريا لمدة ١٥ عام فى حياة أبيه كوريث للعرش، وتم حساب تلك السنوات من فترة حكمه. ولذا تم تحديد فترة حكم عزريا من ٧٨٥ إلى ٧٣٤/٧٣٣ ق.م.

ازدهار مملكة إسرائيل - عهد يربعام:

تعتبر فترة حكم عزريا [عُزيا] ملك يهودا، ويربعام بن يواش ملك إسرائيل، اللذين اعتليا الحكم فى وقت واحد تقريباً [السنة الأولى من حكم يربعام ٧٨٤ ق.م تعتبر هى السنة الثانية من حكم عزريا وريث العرش فى عهد أمصيا] هى فترة ازدهار ورخاء لكلا المملكتين بعد سنوات طويلة من التدهور. ولم يكن سبب هذا الازدهار ضعف آرام دمشق وتوقف سيادتها على سوريا وأرض فلسطين فقط، بل أيضاً بسبب العلاقات الوثيقة بين إسرائيل ويهودا فى مجال الاقتصاد والتجارة فى تلك الفترة.

و المعلومات الباقية حول حروب يربعام وحدود مملكته قليلة ومتناثرة، ومن خلال ماورد فى [ملوك ١٤ : ٢٨]، «استرجع إلى إسرائيل دمشق وحماة التى ليهودا» يمكن أن نستنتج أن سلطانه امتد إلى المملكتين، وأنه بعد هزيمة آرام انتقلت إليه السيادة على سوريا وأرض فلسطين.

ويتضح أنه فى بداية حكمه حارب الآراميين، وربما فرض سيطرته على شمال عبر الأردن. ويفترض أن ماورد فى سفر عاموس: «أنتم القرحون بالباطل القائلون أليس بقوتنا اتخذنا لأنفسنا قرناً» [عاموس ٦ : ١٣]، كان المقصود به المرتين اللتين انتصر فيهما يربعام على الآراميين، الأولى فى

«لودافار» فى جنوب جلعاد والثانية فى «قرنايم» التى تقع فى باشان، وسواء هذا أو ذاك، فالمفترضى هو، أنه بعد أن ضرب أدد نيرارى الثالث أرام دمشق، وضربه مرة أخرى على يد أحد وارثيه عام ٧٧٣ ق.م، وقعت دمشق تحت حكم مملكة إسرائيل. وكانت هذه هى فترة قوة أراراط، التى ازدادت فى الربع الثانى من القرن الثامن للمملكة العظمى فى جنوب بلاد الروم [أناضولياً] وشمال سوريا.

وكانت آشور واقعة تحت ضغط متزايد بسبب اجتياح ملوك أراراط للحدود الشمالية الغربية. ولم فى إستطاعة يعد ملوك آشور الحرب فى الجبهتين معاً، وحاولوا، على أقل تقدير، الدفاع عن آشور نفسها ضد قوة أراراط المتزايدة، وعن مراكز الحكم الآشورية فى شمال سوريا من الشمال وحتى حماة. ومعنى هذا أنه لم يتم احتلال دمشق رغم أنف ملوك آشور، وربما كان ذلك متمشياً مع سياستهم، وقد أتاح تدمير قوة أرام مهلة ليربعام كى يستعيد قواه، ويخطط للاحتلال والاستيلاء والسيطرة على المنطقة الممتدة جنوب حماة. وربما تكون حماة نفسها قد اعترفت بتلك السيطرة كما حدث فى عهد داوود وسليمان حسبما يفترض أ. ملمات. وقد بسطت إسرائيل سلطانها فى الجنوب على عمون ومؤاب ووصلت حتى «بحر العرابة»، وربما يكون هو الطرف الجنوبى من البحر الميت.

ولكن من الناحية الاقتصادية، كانت مملكة يربعام تمر بفترة توسع وازدهار. وعادت إسرائيل للسيطرة على طرق التجارة الرئيسية التى تربط الشمال بمصر، بينما أتاح لها احتلال باشان وحوران - مخزن غلال أرض فلسطين - قاعدة اقتصادية زراعية متينة كان من الواضح افتقارهم لها حتى الآن.

وقد تم فتح منطقة باشان وهوران للاستيطان الاسرائيلي الموسع لى
تزداد قوة السيطرة الإسرائيلية المتجددة فى شمال جلعاد، وتشير قائمة أبناء
رأوبين وجاد ومنسى فى أخبار الأيام الأول [٥]، والتي يتضح فيها هذا
الانتشار، إلى أن أبناء منسى وصلوا حتى حرمون، بينما انتشر أبناء رأوبين
مع قطعانهم حتى نهر الفرات. ومنذ ذلك الحين فصاعداً ازداد الثقل النوعى
لسكان جلعاد فى مملكة إسرائيل. وكان هناك ثلاثة ملوك من جلعاد من بين
آخر أربعة ملوك فى إسرائيل اعتلوا العرش بالقوة.

وقد ترك الازدهار الاقتصادى آثاره فى حركة البناء، والتي تشهد
عليها الاكتشافات الأثرية فى السامرة. حيث تم اكتشاف زخارف
عاجية فى أثاثات قصر الملك الذى يرجع لعهد يربعام الذى اكتشف
هناك. ويشير وجود العاج إلى ثراء الملكة وفخامة قصر السامرة فى
ذلك الوقت. ولاشك أن ثراء الطبقات الحاكمة فى إسرائيل قد أشعل الخلافات
الاجتماعية. ويعتبر سفر «عاموس من تقوع» هو المصدر الرئيسى لمعلوماتنا
حول الوضع الاجتماعى فى عهد يربعام. وقد احتج عاموس على الظلم
وتشويه العدل الذى اعتاده نبلاء السامرة وجلعاد فى مقابل يؤس الشعب،
ويحتمل أن أصحاب الإقطاعيات كانوا يجمعون المحصول فى سنوات الرخاء
ليبيعونه بأسعار باهظة فى سنوات القحط. وربما يكونون هم أنفسهم الذين
قالوا: «متى يمضى رأس الشهر لبيع قمحاً والسبت لنعرض حنطة لتصغر
الأيفة ونكبر الشاقل ونعوج موازين الغش، لنشتري الضعفاء بفضة والبائس
بنعلين». [عاموس ٨: ٥] ويطلق النبى على زوجات نبلاء باشان اسم «بقرات
باشان»، لأنهن حسب قوله «الظالمة المساكين الساحقة البائسين القائلة
لسادتها هات لنشرب». [عاموس ٤: ١].

وتعتبر صورة المجتمع، التى تنعكس من خلال توبيخات عاموس، ظاهرة

جديدة في إسرائيل. وتكشف توبيخاته أن طبقة الحكام قد وصلت لدرجة عالية من السطوة، ولقوة اقتصادية غير عادية، حيث أنها هي المستفيد الوحيد من فترة السلام والاستقرار. ومع ذلك يظهر في أماكن أخرى من سفر عاموس صوت آخر، ومن المحتمل أن الاستقرار قد بدأ يتزعزع في نهاية عهد يربعام، ووصلت الرفاهية لنهايتها.

وتشهد توبيخات عاموس الاجتماعية، وما انطوت عليه من تهديد بأن نهاية الاستغلال الإجتماعي هي تدمير بيت يربعام والمملكة كلها، على حدة الخلافات الاجتماعية إلى درجة الشعور بالخطر الذي يهدد دعائم المجتمع.

والحقيقة هي أن الجماعة استمعت إلى هذه النبوءات القاسية دون أن تثير لديها أى استياء أو رد فعل جماعي ضد النبي. ويمكن أن نستنتج من ذلك أن روح الشعب قد هدأت بسبب تلك النبوءات. وعلى الرغم من أن أمصيا كاهن بيت إيل قد أرسل يحذر يربعام ملك إسرائيل «قائلاً: "قد فتن عليك عاموس في وسط بيت إسرائيل، لا تقدر الأرض أن تطيق كل أقواله» [عاموس ١٠: ٧]. ولكن المتأمر لم يحاكم، حيث أن النبي كان قوة لا يستهان بها في حياة يربعام، وعند موته تفجرت الثورة إلى الخارج.

أنبياء المكتوبات:

تعتبر أقوال الأنبياء الذين يطلق عليهم اليوم «أنبياء المكتوبات» لتمييزهم عن أنبياء مثل إيليا لم تحفظ أقواله ولم تصل إلينا، هي الإنتاج الرئيسي في الحياة الروحية لإسرائيل في عهد يربعام والتي وصلت إلينا. وكان عاموس من تقوى من أوائل الأنبياء الذين بقيت نصائحهم. ويعتبر أكبر تجديد قام به هو اعتماد نبوعته على النصيح الاجتماعي والأخلاقي بصفة رئيسية.

إن حركة بنى الأنبياء التى ظهر نشاطها فى الصراع الذى دار بين عبادة إله إسرائيل والآلهة الأجنبية فى عهد آحاب، والتى كانت العامل الرئيسى فى الصراع ضد المضطهد الأجنبى فى فترة الخضوع للآراميين، قد غيرت من صورتها مع انتصارات يريعام الثانى، وكانت تلك الحركة شريكاً فى تحقيق هذه الانتصارات.

وقد أصبح هناك جزءاً من بنى الأنبياء من المقربين للبيت الملكى. ويأتى قول عاموس: «لست أنا نبياً ولا أنا ابن نبى بل أنا راع وجان جميز» [عاموس ١٤:٧] تأكيداً على أنه ليس من أبناء الأنبياء الذين يرتزقون من بنوآتهم [قارن ملوك ١٤:٣، ملوك ٤:٤٢]، بل كان مستقلاً اقتصادياً، ويرتزق من عمله كمربى أغنام نوقيدن [وهى فيما يبدو الصيغة الصحيحة] وجانى جميز. وسوف نجد فى شخصية عاموس صورة لنبي لاعلاقة لنبوته بالمعجزات الظاهرة ولا بمواقف التجلى، كما أنه لا ينتمى لأى جماعة من جماعات أبناء الأنبياء التى كانت منتشرة فى تلك الفترة، لأنه كان يتحدث بما يجيش فى نفسه. وتعتبر نبوته شاذة عن رؤى العالم المعتادة فى الشرق القديم. وطبقاً لهذه النبوة يعتبر العدل الاجتماعى هو الشرط الوحيد الذى لاغنى عنه لقيام شعب ومصير دولة، وأن دمار الأرض كان بسبب ظلم البائسين وأساليب القمع واستغلال الحكام للجماهير ومن هنا تدفقت خطب عاموس الملهبة. كما تعتبر نظرة عاموس للقرايين وهى أساس كل العبادات فى أنحاء بلاد المشرق، نظرة خاصة. فكانت له معارضة حادة تجاه القرايين التى يقدمها الأثرياء والحكام الظالمين ببذخ: «بغضت كرهت أعيادكم ولست ألتذ باعتكافاتكم إني إذا قدمت لى محرقاتكم وتقدماتكم. لا أرتضى وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت إليها» [عاموس ٥:٢١]. وقد حارب طقوس وأنغام العبادة: «أبعد عنى ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع.

وليجر الحق كالمياه والبر كالنهر الدائم» [عاموس ٥ : ٢٣/٢٤]. وقد تطور هذا الموضوع وتكرر الهجوم عليه في نبوءات أشعيا بن أموص وأرميا، وأصبح سمة أساسية للفكر النبوي المتأخر.

وتتركز مطالب عاموس من الجماعة الإسرائيلية في وجهة نظر الشريعة التي تركز أساساً على فكرة اختيار شعب إسرائيل والعهد بينه وبين الرب. ويعتبر عاموس أن هذا الاختيار يلزم الشعب المختار بالالتزام الأخلاقي والديني أكثر من كل الشعوب: «إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم» [عاموس ٢: ٣]. ويمكن اعتبار حركة عاموس هي بداية لحركات الأنبياء الذين حاربوا لإعادة بناء إسرائيل، والذين انتشرت نبوءاتهم وتم تدوينها، وأثرت أعمالهم الرمزية وصراغهم من أجل العدل الاجتماعي تأثيراً حاسماً، إن لم يكن على جيلهم ففي الأجيال التالية وحتى الآن.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن تبدأ هذه الحركة في مملكة إسرائيل، لأنه ظهرت فيها في عهد يربعام صراعات اجتماعية أشد قوة مما كان في مملكة يهوذا التي كانت مملكة زراعية في الأساس وتميزت بالاستقرار الأخلاقي.

مرت يهودا في عهد عزيا الطويل [يسمى في ملوك ١٥: ١ باسم عزيا. وكذلك في الوثائق الآشورية وربما تكون كل منهما صيغتان لنفس الاسم] بفترة من أهم فترات الازدهار في عصر ما بعد الانقسام. واستمر عزيا في محاربة أدوم بمجرد أن اعتلى الحكم بعد موت أمصيا. وضم إيلوت وبهذا استكمل احتلال أدوم كلها، وأصبحت معظم طرق التجارة الهامة التي تمر بها في حوزة يهودا. كما سيطر عزيا على قادش برنيع، وهي واحة رئيسية في شمال سيناء كي يستكمل سيطرته على طرق التجارة الغربية حيث كانت تعبر في هذا الطريق قوافل تجارية، وشيد هناك حصناً دائماً، تم الكشف عن بقاياها في الحفائر الأثرية.

وخلال ذلك ضرب المعويين، وهم قبائل عربية استقرت في شمال سيناء، حسبما اتضح مؤخراً من خلال وثيقة آشورية، وكانت ترتحل حتى حد ود مصر. وقد أدى تأييد عزيا للتطور التجاري ورغبته في التحكم في طرق القوافل إلى محاربته للفلسطينيين، وذلك للمرة الأولى في تاريخ يهودا منذ الانقسام. وضم عزيا كل من أشدود ويفنه وبنى مدناً في «أرض أشدود والفلسطينيين» [أخبار الأيام الثاني: ٢٦] أي أنه بنى مستوطنات وحصونا بطول القسم الشمالي من «طريق البحر». وبهذا عادت يهودا، مثلما كانت في فترة المملكة الموحدة، تتحكم في طريق التجارة الكبيرين اللذين يمران بجانبها، وبذلك زاد دخلها من التجارة الدولية.

ولم تظهر القوة الاقتصادية لمملكة يهودا في مجال التجارة فقط، بل شجع عزيا الزراعة تشجيعاً كبيراً. وخاصة في مناطق النقب، وهو الوحيد من بين ملوك يهودا الذي قيل عنه «لأنه كان يحب الفلاحة»

وقد كشفت الاكتشافات الأثرية وحفائر النقب في الفترة الأخيرة عن

بقايا هامة من عصر عزيا مثل: حصون تم تشييدها بعيداً عن مناطق الاستيطان، أسوار مغلقة وأبراج. كان بعضها بمثابة نقاط حراسة على طرق التجارة والمراعى.

وقد اعتمد عزيا فى حروبه على القوة العسكرية التى أنشأها وزودها بالأسلحة: «أقواساً ورمحاً وخوذاً ودروعاً وقسيّاً وحجارة مقاليع» [أخبار الأيام الثانى ١٤:٢٦]. وظهر تقدم التكتيك العسكرى أيضاً فى مناطق التحصين، حسبما يشير يجال . يادين، فقد استخدمت أساليب جديدة فى تحصين مدن يهودا والقدس العاصمة: «وعمل فى أورشليم منجىنقات اختراع مخترعين لتكون على الأبراج وعلى الزوايا لترمى بها السهام والحجارة الضخمة» [أخبار الأيام الثانى ١٥:٢٦].

ولاعجب إذن فى أن مكانة الملك قد ازدادت قوة، وعقد العزم على أن ينال حقاً فى العبادة والهيكل، لأنه كما هو معروف، كانت لهذه الحقوق جذور تاريخية بعيدة، حيث خدم سليمان فى الهيكل ومن قبله أبناء داود [صموئيل ٨:١٧]. غير أنه منذ أجيال عدة، وخاصة فى عهد الملك يواش فصاعداً، كانت هناك حدود واضحة وفاصلة بين صلاحيات الحكم وصلاحيات العبادة. وعلى ذلك حاول عزيا أن يبخر على المذبح، وطبقاً للقصة الواردة فى أخبار الأيام الثانى [٢٦] واجه معارضة شديدة من الكهنة. وقد فسرت مرويّات الكهنة المتأخرة مرض عزيا [البرص] باعتباره عقاباً له على تدنيس المقدسات: «فحنق عزيا وكان فى يده مجمرة للإيقاد وعند حنقه على الكهنة خرج برص إلى جبهة» [أخبار الأيام الثانى ٢٦: ١٩]. وتضيف مرويّات كهنوتية أخرى وردت عند يوسف ابن متياهو موضوع الزلزال الذى حدث أثناء عمل الملك فى الهيكل: «فسد قلبه من فرط الكبرياء... وفى يوم عيد هام... لبس الملك ثوب الكهانة ودخل للمساعدة»، أما الكهنة الذين حاولوا منعه: «هددهم بالموت... غير أنه أثناء حديثه، ضرب الأرض زلزال قوى،

وتصدع الهيكل [انظر زكريا ١٤: ٤]، وسطع شعاع شمس قوى وسقط على وجه الملك فأصيب بالبرص على الفور» [قدمونيوت ٩ - ١٠ - ٤] وثاليط ص [٣٣٤] وفي السنوات الأخيرة من عهد عزيا تسلم ابنه يوثام مقاليد الحكم عندما عجز الملك رسمياً عن القيام بشئون الحكم بسبب مرضه [وفقاً لما ورد في ملوك ١٥: ٥ كان هذا المرض هو البرص].

واستمر يوثام في سياسة الانتشار والتوسع التي بدأها أبيه. ويحكى عنه أنه حارب ملك بني عمون وانتصر عليه وأخذ منه جزية ضخمة: «مئة وزنة من الفضة وعشرة آلاف كر قمح وعشرة آلاف من الشعير، [أخبار الأيام ٢٧: ٥]. وغير واضح ما إذا كان هذا التوسع في عبر الأردن قد تم بتأييد من يربعام ملك إسرائيل، غير أنه هناك أساس للفرض القائل بأن هذا هو ما حدث. والدليل على ذلك يمكن أن نجده في ذكر اسم يوثام ويربعام معاً فيما ورد عن تعداد السكان في عبر الأردن: «جميعهم انتسبوا في أيام يوثام ملك يهوذا وفي أيام يربعام ملك إسرائيل» [أخبار الأيام الأول ١٧: ٥]. وكانت هذه العلاقات والتعدادات عادة ما تصاحب التوسع الإقليمي والتوطن الجديد.

وقد سبقت إسرائيل يهوذا في الارتقاء السياسي، إلا أن تميز المملكة الجنوبية ظهر بالتدريج وازداد ثقلها النوعي. وقد بدأت علامات هذا المسار في أواخر عهد يربعام، ويحتمل أنه بعد موت يربعام حظيت يهوذا بالسيطرة على أرض فلسطين بكاملها وربما أيضاً على أنحاء سوريا. وقد ظهرت تلك المكانة المسيطرة وأثبتت وجودها بعد حوالي عشر سنوات من موت يربعام، عندما تزعم عزيا [عزيا] ملك يهوذا معاهدة سورية ضد آشور.

وتعرضت مملكة إسرائيل لزعزعة استقرارها بعد موت يربعام [٧٤٨ ق.م.]. فبعد أن اعتلى ابنه زكريا العرش بسنة أشهر قتل، وانتهى

معه بيت يربعام تماماً. أما الملك الجديد وهو شلوم بن يابيش الجلعادي - وفقاً لأصله، فقد اعتلى العرش شهراً واحداً فقط ثم قتله منحيم بن جادي، وهناك من يعتقد أن اسمه يشير إلى انتمائه لسبط جاد. ونجح منحيم إلى حد ما في إعادة الاستقرار الداخلي لإسرائيل، ولكن لم ينجح في إعادة سلطانها وتأثيرها على أنحاء سوريا وأرض فلسطين.

وبدأ نشاط النبي هوشع بن بنيري في سنوات الأزمة التي تلت موت يربعام الثاني، وكان هوشع من رجال يهودا وفقاً لأصله.

ولم تعتبر آرام عنصراً سياسياً مستقلاً في نبوءات هوشع، ولم تشكل آشور خطراً على إسرائيل باعتبارها سبط الرب، بل كانت حليفاً ممكناً لإسرائيل، كما لم تحمل أقوال هوشع أي صدى لتدمير القسم الأكبر من مملكة إسرائيل عام ٧٢٣/٢، وانفصال الجليل وعبر الأردن عن إسرائيل وانضمامهما لآشور ونفى المسيبيين لآشور. لذا يتضح أن هوشع لم يتنبأ بعد الفترة التي ظهر فيها تجلات بيلاسر باعتباره عدو مملكة إسرائيل ومخربها.

وتتميز موضوعات هوشع بطابع خاص مميز، لم تتميز به حتى نبوءات عاموس الذي كان شبه معاصر له. فقد كانت نبوءة عاموس موجهة بشكل رئيس ضد الظلم الاجتماعي، بينما وجه هوشع جهوده لموضوعين وهما: انتقاد العبادة في إسرائيل وخاصة هياكل بيت إيل ودان التي تمارس فيها العبادات الوثنية حسب وصفه، وكشف الوضع الداخلي المنهار للمملكة: «السامرة ملكها يبيد كغثاء على وجه الماء» [هوشع ١٠-٧]، «إنهم الآن يقولون لأمك لنا لأننا لانخاف الرب فالملك ماذا يصنع بنا» [هوشع ١٠-٣].

وحذر هوشع من اندفاع قادة السامرة وراء نزعات سياسية متعارضة، أي البحث عن تأييد مصر من ناحية، وطلب معاهدة مع آشور من ناحية أخرى: «وصار أفرايم كحمامة رغباء بلا قلب. يدعون مصر. يمشون إلى

أشور» [هوشع ١١:٧]، «يقطعون مع أشور عهدا والزيت إلى مصر يجلب»
[هوشع ٢:١٢].

دمار مملكة إسرائيل على يد آشور:

لقد تغيرت الصورة السياسية في أنحاء الشرق القديم من النقيض إلى النقيض في مرحلة بداية الانهيار الداخلي في إسرائيل. فمع اعتلاء تجلات بلاسر العرش [٧٤٥ - ٧٢٧] أصبحت آشور قوة عظمى وأرسيت قواعد الإمبراطورية الآشورية. ونجح تجلات بلاسر الثالث في تحقيق مالم يحقق جميع من سبقه من ملوك آشور. فقد وسع حدود آشور جهة الجنوب بعد سلسلة من الحملات حتى وصل لحدود مصر.

وخلال بضع سنوات ضرب أعداء آشور في الشمال والغرب: «مملكة أرات وحليفاتها أريد» وهما من كبرى ممالك الآراميين في شمال سوريا. واحتلت أريد وألحقت بأشور، ووصلت حدود آشور حتى حماة في وسط سوريا، ومن الواضح أنه كان ينوى التوجه جنوباً.

ومن أهم تجديدات تجلات بلاسر الثالث في مجال بناء الإمبراطورية الآشورية، تلك التي استمرت في العهود التالية وغيرت من أحداث المنطقة وهي: ضم الدول المحتلة لأشور واعتبارها ولايات آشورية مما أدى إلى اتساع مستمر لحدودها. وانقسمت الولايات نفسها إلى وحدات أصغر، كي يمنع حكامها - الولاة - من ميزة الحكم المتسع التي كانت متاحة لهم في الفترة السابقة لتجلات بلاسر.

وأهم تجديدات تجلات بلاسر من حيث جذرية الحل وتأثيره على تاريخ إسرائيل، هي تطوير وتعديل أسلوب الإجماع [السبي] الذي أصبح سمة مميزة للاستعمار الآشوري. فقد أصبح الإجماع [السبي] يتم بشكل ثنائي الاتجاه، أي إجماع صفوة السكان من الحرفيين الممتازين والجنود إلى آشور وتوطينهم في الضياع التي دمرت في القرن التاسع ق.م، وخاصة منطقة

جوزن، وإجلاء القبائل الأرامية والكلدانية من بابل إلى الولايات الجديدة
لترسيخ الأساس المخلص [الموالي] لأشور. وبهذا الأسلوب انكسرت شوكة
الشعوب المحتلة، حيث أخذت منهم أفضلية الحكم وأدخلت بينهم سكان
الشعوب المحتلة التي أجليت من أماكن أخرى.

وقد أصبحت ممالك سوريا معدومة الحيلة أمام قوة آشور الكاسحة،
والتي ازدادت قوة بعد ضرب أريد ٧٤٠ ق.م، وبعد أن انسحب جيش أارات
لما وراء الفرات الأعلى. وفي هذه المرحلة لعبت يهودا دوراً حاسماً، غير أن
تاريخ الأحداث في تلك السنوات غير واضح على الإطلاق. فلا يشير أسفار
العهد القديم إليها مطلقاً، بينما وصلتنا كتابات تجلات بلا سر بشكل متناثر،
ويزيد ماضع منها على ما هو موجود.

وتتحدث كلتا القطعتين الباقيتين عن إزرياو(*) من أرض يودو، الذي
تزعّم حلفاً ضد آشور وحاربها في شمال سوريا. وفي نهاية القرن التاسع
عشر شاع الافتراض بأن يودو ليست هي يهودا بل مملكة في جنوب
أرناضوليا [بلاد الروم] تدعى سمأل، ويطلق ملوكها على أنفسهم اسم «ملوك
يادي» وطبقاً لهذا الافتراض يكون إزرياو هو ملك سمأل/ يادي، وهو الذي
حارب آشور.

ولكن في نفس الوقت تتضح الخلفية التاريخية لتلك السنوات، فتتغير
وجهات نظر الباحثين واليوم يتضح أن «سمأل»، التي تسمى بهذا الاسم
فقط في وثائق آشور، كانت مملكة صغيرة من الدرجة الثالثة بينما يهودا
التي سميت في كتابات ملوك آشور باسم «ياودي» كانت مملكة رئيسية
في المنطقة. ولا يوجد من بين ملوك سمأل المعروفة في المصادر ملكاً باسم
«إزرياو». ويشهد الواقع أن «إزرياو ملك يادو» المذكور في كتابات تجلات

(*) إزرياو في نقل الحرف الآشوري بسبب عدم وجود حرف العين والهاء في اللغة الآشورية.

بلاسر ليس إلا عزييا/ عزييا ملك يهودا، وهو الذى تزعم الحلف السورى وحارب آشور.

ويتضح إذن أنه فى هذه المرحلة الخطرة الحاسمة فى تاريخ سوريا، كانت يهودا هى زعيمة الممالك السورية وصاحبة السيادة، وتكون حلف تزعمه عزييا وانضمت إليه مناطق من مملكة حماة وكذلك مدن شمال فينيقيا. ومن يالمفترض أن كلاً من إسرائيل وأرام قد قبلتا سيادة عزييا سواء برغبتهم أو رغماً عنهما. وقد حكم إسرائيل فى ذلك الوقت، كما قلنا، منحيم بن حادى، بينما كان رحين هو حاكم أرام ومؤسساً لأسرة جديدة. ويتضح من خلال الأجزاء القليلة التى بقيت عن هذه الحرب فى القوائم السنوية لتجلات بلاسر، أن عزييا من أرض يهودا حارب آشور فى مكان ما فى شمال سوريا، وعلى ما يبدو أنه هزم وانسحب. وربما اكتفى تجلات بلاسر بذلك ولم يطارده. ويمكن تحديد زمن الحلف والحرب حوالى عام ٧٣٨ ق.م. ومنذ هذا العام، وبعد هزيمة جند عزييا وحلفائه، بقيت لدينا معلومة، وهى أن ملوك سوريا وجنوب أناضوليا وأرض فلسطين قد عبروا عن ولائهم لآشور ودفَعوا لها جزية عالية. ومن بين دافعى الجزية يذكر اسم منحيم ملك السامرة، ورصين الأرامى، وكذلك ملكة العرب. وعلى الرغم من أن قسماً كبيراً من الدول المذكورة فى القائمة لم يكن يخشى خطر احتلال آشورى قريب، إلا أنه على أية حال كان خضوعهم لآشور بغرض توطيد أمنهم وأمن طرق التجارة التى كان يسيطر عليها الآشوريون فى تلك الفترة.

وتعتبر قائمة الأغراض والمواد التى قدمها حاملو الجزية على جانب من الأهمية، ومن بين هؤلاء ملوك دمشق والسامرة: ذهب وفضة وقصدير وحديد وجلود أفيال وعاج وثياب ملونه وأنسجة كتان، صوف (ملون) وأبنوس وشجر البقس وكل نفائس الكنوز الملكية وكباش ذات صوف ملون أرجوانى

وطيور برية ذات ريش ملون وجياد ويغال وأبقار وأغنام وجمال ونياق مع أبكارهن، وتعتبر «قصة أزياء»، وظهور يهودا كزعيمة لحلف ضد آشور وهزيمتها هي نقطة الذروة والتحول السلبي في صعود يهودا السياسي، وتعتبر أيضاً علامة على سقوطها الحريع، حيث نجح رصين في تلك الأيام تقريباً في إستعادة مناطق النزاع في عبر الأردن لآرام، وهي: باشان، الجولان، شمال جلعاد، وامتدت حدود آرام، التي سميت في وثائق آشور باسم «بيت حزائيل» على اسم حزائيل أكبر ملوكها، ولفترة محدودة فقط، من جبل لبنان وحتى باشان وراموت جلعاد، وهي الحدود التاريخية بينها وبين إسرائيل.

وقد أدى ازدياد قوة آرام في الشمال، مثلما حدث في أحوال مشابهة في الماضي، إلى ازدياد قوة أدوم المستقلة. وبعد فترة وجيزة من عام ٧٣٨ ق.م تمردت أدوم على يهودا وشقت عصا الطاعة. وخسرت يهودا جميع ملكياتها في عبر الأردن. وفي ذات الوقت انتهت سيطرتها على فلسطين ومنطقة أشدود، حتى أن الفلسطينيين اقتحموا حدود يهودا، واجتاحوا وادي إيلون بشكل خاص: «واقتم الفلسطينيون مدن السواحل وجنوبي يهودا وأخذوا بيت شمس وإيلون وجديروت وسوكو وقراها وتمنة وقراها وجمزو وقراها وسكنوا هناك». [أخبار الأيام الثاني ٢٨: ١٨]. ولم يبق شيء من سيادة يهودا. وأصبح هذا الصراع الفاشل على جميع الجبهات من نصيب أحاز بن يوثام الذي ورثه عام ٧٤٣ ق.م. أما أخطر الضربات فكانت في عام ٧٣٤ ق.م، وهو العام الذي خرج فيه تجلات بلاسر على رأس جيشه من شمال سوريا واتخذ طريق مدن فينقيا إلى فلسطين بطول الساحل، وخضعت له المدن الفلسطينية الكبرى، وضم الآشوريون غزة ووصلوا حتى وادي مصر، وأقام ملك آشور هـ اك نصيباً للنصر، كي يحدد به حدود توسعات آشور القصوى.

وعلى الرغم من عدم وجود نية فى هذه المرحلة لضم تلك الأراضى لولايات آشور، إلا أن ظهور الجيش الآشورى الضخم فى قلب أرض فلسطين كان كافياً لزعزعة البنية السياسية فى المنطقة كلها، ودفع جميع ملوك الدويلات الصغرى فى أرض فلسطين جزية لآشور واحتفظت كتابات تجلات بلاسر بقوائم لها. وكان من بينهم أهاز ملك يهودا الذى تذكره الوثيقة باسمه الكامل يهو أهاز، ومعه بعض الملوك الذين كانوا خاضعين ليهودا كما كان معروفاً عنهم.

وقد افترض كلا من رصين الأرامى وفقح بن رمليا ملك إسرائيل، الذى تولى الحكم بتأييد رصين وفى زمن متقارب (٧٣٥/٤ ق.م) وكان بمثابة تابع له، أن الوقت قد حان لضرب يهودا وإزاحة سلالة بيت داوود وتنصيب الملك الذى يرغبانه. واتضح أن المرشح لذلك كان أميراً من عبر الأردن يسمى بن طقال. ويورد سفر الملوك الثانى [٥: ١٦] تفاصيل هذه القصة، وكذلك الاصحاب السابع من سفر أشعيا، ويتضح منهما أن الحلفاء صعدوا للقدس وفرضوا عليها حصاراً، وكل ذلك بهدف ضم يهودا إليهم [أشعيا، ٦: ٧]. ولايتضح إذا كان هدفهم فى ذلك الوقت هو إقامة حلف واسع ضد آشور وضم يهودا بفضل هذا الحلف. وفى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ يهودا اتجه أهاز يائساً إلى تجلات بلاسر وطلب منه المساعدة، ويتخذ هذا الطلب صيغة مخاطبة تابع لسيده: «أنا عبدك وابنك. اصعد وخلصنى من يد ملك آرام ومن يد ملك إسرائيل القائمين على» [ملوك ١٦: ٧]. وقوى هذا الطلب بإرساله هدايا أو «رشوة» بأسلوب العصر [ملوك ١٦: ٨]. وفى أعقاب هذا جاء ملك آشور البلاد وحارب حرب إبادة فى آرام على مدى عامين ٧٣٣ - ٧٣٢ ق.م، واحتل مدنها المحصنة الواحدة تلو الأخرى، وحاصر العاصمة دمشق، وأخيراً ضمها عام ٧٣٢ ق.م. وقتل رصين ولم تعد آرام دمشق مملكة مستقلة، بل أصبحت ولاية آشورية مركزها الإدارى هو دمشق. ولم تفلت إسرائيل من مصير مشابه، فاجتاح جيش آشور الجليل واحتل عيون،

دان، أبل بيت معكة، وحاصور، التي تقع على طول الطريق المؤدى لطبرية. كما أجلى سكان قادش نفتالى فى الجبل ومدن كثيرة فى أعالي جبل نفتالى إلى أشور [ملوك ١٥: ٢٩] ويصف مصدر أشورى متقطع هذه الحملة التى قادها تجلات بلاسر إلى الجليل، ويذكر بعض المدن الأخرى وخاصة فى سهل بيت نطوفا التى احتلت، وبعض المدن المحصنة فى جبل نفتالى.

وقد احتفظ المصدر الأشورى بعدد الذين أجلوا من إسرائيل وهم ١٣١٥٠ نسمة أجليت لأشور وقد انفصلت الجليل عن إسرائيل فى هذه الحملة وانضمت إلى الامبراطورية الأشعورية باعتبارها ولاية باسم «مجدو» على اسم مدينة مجدو وهى المركز الإدارى لها.

ولايتضح مطلقاً إن كان تجلات بلاسر قد أجلى أبناء شعوب أخرى ووطنهم فى الجليل بدءاً من سكان إسرائيل الذين أجلوا إلى أشور. ويبدو أن جزءاً من السكان فقط هم الذين أجلوا من هذه المنطقة، وذلت هناك جماعة كبيرة من السكان. وعلى أية حال، لم تتشكل فى الجليل هيئة ثابتة جديدة، كخليط من أهل إسرائيل والشعوب الأجنبية، كتلك التى سوف تتشكل بعد ذلك فى السامرة. أما أبناء عبر الأردن، سواء من كانوا تحت سيادة إسرائيل أو سيادة حصين، فقد تم إجلاهم إلى أشور فى عامى ٧٣٣ - ٧٣٢ ق.م، وأنشئت فى تلك المنطقة ولايات أشورية، ومنها: عشتاروت وقرنايم وجلعاد، وانتقلت حدود مملكة أشور حينئذ من عبر الأردن مروراً بطريق وادى يزرعئيل حتى وادى نكا، الذى كان تابعاً وقتها لأبناء صور.

وقد أدى توسع الامبراطورية الأشورية الضخمة إلى داخل الحدود الجغرافية لأرض فلسطين إلى حدوث قلاقل كثيرة وغيان وتمرد. وقتل فقح بن رمليا الذى كان يعتمد على أرام دمشق أثناء التمرد، وتولى الحكم هوشع بن أيلة وأيد حكمه تجلات بلاسر. ويرد فى سفر الملوك الثانى، اعتباراً من الإصحاح العاشر ومابعده، أن آحاز ذهب إلى دمشق حيث معسكر تجلات

بلاسر فى ذلك الوقت. ويتضح أن أحاز قرر أثناء مكوثه فى دمشق أن يتصرف كتابع آشورى ليس فقط من الناحية السياسية، بل فى كل الشئون، لكى يحظى برضا ملك آشور باقتفاء أثره ثقافيا ودينياً. ومن بين رموز هذا التقرب نقل نموذج المذبح الذى رآه أحاز فى دمشق. فقد أمر الكاهن أوريا بإنشاء مثيل له فى القدس، وعندما عاد من دمشق قدم قرابيناً على هذا المذبح. ونقل أنماط العبادة الآرامية للقدس، بما يتناقض تماماً مع تقاليد آبائه من ملوك يهودا.

ولم يتبق من مملكة إسرائيل بعد أن فقدت الجليل وعبر الأردن، سوى مملكة السامرة، أو بمعنى أدق هرافرايم فقط. ولم تستسلم إسرائيل لتلك الهزيمة فى هذه المرحلة أيضاً، بل ذهب هوشع بن أيلة يطلب العون ضد آشور لدى عدوها التقليدى ملك مصر. فأرسل وفداً إلى الفرعون الذى يسكن «سوا» [ملوك ١٧: ٤] وهى عاصمة الدلتا فى تلك الفترة(*).

ولا نعرف اسم هذا الملك المصرى، ولكن يفترض أنه «تفنحت» ويعتبر من أقوى حكام الدلتا والوجه البحرى فى تلك الفترة. ويتضح أن مصر أمدت هوشع بالمساعدة، وتوقف عن دفع الجزية لأشور. ويحتمل أن هناك سبب آخر لتمرد هوشع وهو تغير الملوك فى آشور.

بعد موت تجلات بلاسر الثالث [شتاء ٧٢٧/٦ ق.م] اعتلى ابنه العرش وهو شلمناصر الخامس (٧٢٧ - ٧٢٢). وقد أيقظ موت المحتل الأكبر الآمال فى قلوب التابعين وزادت تطلعاتهم لسقوط آشور. وانضم الفلسطينيون أيضاً للتمرد بهدف كسر شوكة آشور. وبناء على ذلك كانت نبوءة وتحذير أشعيا لأحد هؤلاء التابعين: «لاتفرحى يا جميع فلسطين لأن القضيبي الضاربك

(*) هناك رأى يقول أن «سوا» ليس اسم أو كنية ملك مصر، بل هو اسم العاصمة فى تلك الفترة، والنذى ينطق «سا» أو «سوا» حسب نقل الحروف الأكدي وهى سايسى فى التقليد اليونانى. ويقترح أولبرايت أن هذا هو ماورد فى سفر الملوك فرضاً: «وأرسل رسلاً إلى سوا إلى ملك مصر».

انكسر فإنه من أصل الحية يخرج أفعوان وثمرته تكون ثعباناً مسمماً طياراً». [إشعيا ١٤: ٢٩]. وبسبب عدم وجود أى وثائق آشورية ترجع لعهد شلمناصر الخامس، لانعرف أى تفاصيل محربه مع هوشع بن أيله. ويتضح أنه منذ ظهر جنود آشور فى البلاد ندم هوشع وخضع لهم. ووقف أمام ملك آشور مستسلماً، إلا أنه سبى وأجلى. واستمر جيش آشور فى حملته، فذهب إلى السامرة وفرض عليها حصاراً [حوالى عام ٧٢٣/٧٢٤ ق.م]. وتم ضم السامرة عام ٧٢٢ ق.م. ويحكى التأريخ البابلى الذى تم تنظيمه فى القرن السادس من مصادر قديمة، عن شلمناصر الذى احتل «سوامراين» - وهو الاسم الآرامى المنتشر للسامرة - ولكنه لا يقدم أية تفاصيل أخرى عن هذا الاحتلال. وفيما يبدو أن شلمناصر الخامس قد مات بعد الاحتلال على الفور. وربما يكون قد قتل أثناء التمرد. ويحتمل أنه بسبب مشكلات آشور الداخلية انسحب جيش آشور وعاد لبلاده.

واعتلى حاكم جديد العرش فى آشور، ألقى لقب شلمناصر وأطلق على نفسه اسماً مختلفاً وهو «سرجون» - على اسم مؤسس مملكة أكد قبل ١٧٠٠ سنة - وسرجون سرويئو تعنى بالآشورية الملك .

وبانسحاب الجيش الآشورى فى شتاء ٧٢٢/١ ق.م، بدأت إسرائيل تتنفس الصعداء لفترة وجيزة. وبالفعل لم يكن الأمل فى التحرر فى هذا الوقت عبثاً، إذ أنه بموت شلمناصر اشتعل التمرد الذى أحاط بأرجاء الإمبراطورية الآشورية غرب الفرات. ولم يقتصر التمرد على التابعين الذين نالوا شيئاً من الاستقلال، بل أمتد أيضاً إلى سكان الولايات الذين استقروا منذ زمن قصير: حورخ ودمشق. وتبلور حلف جديد من جميع بقايا الدول المستقلة سابقاً، والذين وجدوا الفرصة سانحة لكسر شوكة آشور للأبد. وكانت حماة على رأس هذا الحلف

الجديد. واشتركت معها مدن فلسطين ومنها غزة. وقدمت مصر للحلف دعماً عسكرياً مؤثراً. ولايتضح ما إذا كان حاكم مصر فى ذلك الوقت هو نفسه تفنحت صاحب سوا/ سايس، أم أنه الملك الأول من الأسرة الحبشية التى ضمت - احتلت - مصر فى زمن مقارب لذلك وأسست بها الأسرة الخامسة والعشرين.

وقد انتظر سرجون سنتين حتى جمع قواته لاجتياح غرب الفرات. وفى عام ٧٢٠ ق.م هجم بجيوشه من غرب الفرات وضرب ملك حماة، متجهاً إلى فلسطين. ودارت فى رفح على حدود مصر، المعركة الحاسمة بين سرجون وبين الجيش المصرى الذى خرج لمواجهة. وتحكى القوائم السنوية الملكية الخاصة بسرجون، أن المصريين انهزموا وهرب قائد الجيش المصرى مثل الراعى الذى سرقت أغنامه. وعاد جيش آشور من معركته مع مصر فضم غزة وصعد إلى السامرة التى كانت فى حالة تمرد، وكان يحكمها طوال ذلك الوقت [منذ ٧٢٢ ق.م] قائد الجيش بدون ملك. واتجه سرجون من هناك شمالاً فضم دمشق المتمردة، وحماة أيضاً وحولها إلى ولاية.

وقد وضع احتلال سرجون للسامرة عام ٧٢٠ ق.م نهاية لوجود مملكة إسرائيل. وأجلى سرجون من السامرة ٢٧٢٨٠ نسمة، ووضع فيها مندوباً له (والى) وجعل منها مركزاً للولاية الآشورية الجديدة «سمرنيا»، حسب قوله: «جددت مدينة السامرة وجعلتها أكبر مما كانت، وأسكنت بها أناساً من البلاد التى ضممتها... ووضعت عليها موظفين بمثابة ولاية... وفرضت عليها جزية وتقدمة مثل أهل آشور». وظلت يهودا وحدها تحمل استقلالية الشعب وتحافظ على الوجود التاريخى له. وبدأ سرجون ينقل إلى السامرة سكاناً من مناطق أخرى فى مملكته. وفى عام ٧١٦ ق.م قام بتوطين قبائل عربية كان قد ضمها فى نفس العام، وهم من أبناء عيفة وثمود إبدد ومرسيمان. ولم

تحتفظ كتابات ملوك آشور بمعلومات أخرى حول الإجلاء إلى أرض السامرة، ولكن في سفر الملوك [١٧] تم تفصيل مسقط رأس المجليين وعقائدهم. وطبقاً لهذا المصدر وصل المجليون للسامرة «من بابل وكوث وعوا وحماة وسفروايم» [ملوك ١٧: ٢٤]. ولكن هذه المعلومات لا توضح مسقط رأس ساكني السامرة، حيث لانعرف حتى اليوم أين كان يعيش أهل عوا وسفروايم، وما إذا كانت حماة هي المقصود بها حماة التي في سوريا أم أنها مدينة في «مادى» سميت باسم مشابه. وبسبب تأييد سرجون لثقافة بابل، لا يفترض أنه أجلى مواطني مدينة بابل أو كوث، حيث أن كلا منهما من المدن المقدسة البابلية، وهو نفسه الذي أكد على الأفضلية المقدسة القديمة لهذه المدن، بعد أن احتل بابل من مريوخ بلادن الكلداني عام ٧١٠ ق.م. ويتضح إذن أن سرجون ماهو إلا سنحاريب، الذي ناقض نزعة أبيه وميله إلى بابل، وحارب بابل وأجلى آلاف من سكانها، وكان هو نفسه الذي أجلى أهل بابل وكوث إلى السامرة. ويضيف كاتب سفر عزرا [٤: ٢ - ١٠]، أن كلا من أسرحدون ملك آشور واسنفر العظيم الشريف - وعلى ما يبدو أنه ابنه آشوربنيبال - قد أجلا سكانا إلى أرض السامرة. ويفترض أنهم نقلوا من عيلام وجبال إيران.

وكانت الشعوب الجديدة تعبد آلهتها في المرحلة الأولى، فكل شعب يعبد إلهه، ولكن بمرور الزمن تداخلوا معاً ومع البقية من أهل السامرة. وتضيف القصة المقرائية [ملوك ١٧] تفاصيل ممتعة حول مراحل ترسيخ جذور المجليين الأجانب في الأرض. وطبقاً للقصة هاجم الأسود المجليين، فاتجهوا إلى ملك آشور «قائلين إن الأمم الذين سبيتهم وأسكنتهم في مدن السامرة لا يعرفون قضاء إله الأرض فأرسل عليهم السباع فهي تقتلهم لأنهم لا يعرفون قضاء إله الأرض» [ملوك ١٧: ٢٦]. وفي المقابل تجسد موضوع تعليم المجليين من قبل الحكام «مخافة الرب»، ونجد وصف بناء دور شروكين العاصمة

الجديدة التى شيدها سرجون ملك آشور. وتحكى هناك أن سرجون أجلى للمدينة الجديدة «أناساً من كافة أرجاء الأرض، يتحدثون لغة غريبة مبيلة، يسكنون الجبال والسهول...» وهؤلاء المجليون، كما يقول سرجون: «جمعتهم وأسكنتهم فيها. وأرسلت لهم خبراء آشوريون فى كل شئ كموظفين، كي يعلمونهم معنى «مخافة الرب والملك». أى أن اعتبروا بلورة أسس ثابتة متعددة الأجناس فى مدن المملكة الأولى وولاياتها وجعلها وحدة محلية واحدة ذات وحدة دينية جديدة، وهو دين موطنهم الجديد، بمثابة وظيفة حكومية من الدرجة الأولى. وذلك لى تصبح الجماعة فذعنة للمملكة والمؤتمرين بأمرها.

وبهذا تبلورت، قبل العصر الفارسى فى تخوم مملكة إسرائيل السابقة، كينونة عرقية دينية جديدة وهى السامريون. وهناك دلائل على أن سكان السامرة المحليين، أهل إسرائيل، حافظوا على علاقتهم بمملكة يهودا التى ظلت مستقلة بعد دمار مملكة إسرائيل.

وساهم فى تقوية هذه العلاقة حقيقة أنهم كانوا خاضعين للحكم الآشورى الأجنبى. وكذلك وربما أكثر منه، ظلت العلاقة بين بقية سكان الجليل وبين القدس [انظر فترة حكم حزقيا]. وزادت قوة تلك العلاقات بعد احتلال يوشيا للسامرة ووصوله إلى الجليل، وقد احتفظ العهد القديم (المقرا) ببعض المعلومات القليلة حول أبناء «الأسباط العشرة» الذين أجلوا إلى آشور، وظل غموض مصيرهم التاريخى موضوعاً أسطورياً قومياً فى الشتات فى الأجيال التالية. وقد أجلى معظمهم إلى أنحاء جوزن على نهر حابور. وقد دمرت منطقة جوزن، وهى من أهم الأقاليم الآشورية، فى نهاية القرن العاشر وخاصة فى القرن التاسع، فى فترة الحملات الحربية لآشور نصريال الثانى، وأعيد بناؤها بالتدريج منذ عهد تجلات بلاسر الثالث، وصاعداً. وقد تم توطين

قليل من المجليين من إسرائيل في مدن مادي [أو جبال مادي]، وعلى ما يبدو أنهم خدموا كجنود حامية في وحدات منظمة تابعة للجيش الآشوري. وقد انتشر أسلوب ضم وحدات كاملة من جيش الشعوب المحتلة إلى الجيش الآشوري في الامبراطورية.

وبهذا الأسلوب أخذ سرجون، مثلاً، من السامرة خمسين راكباً [وفي نسخة أخرى ٢٠٠ راكب] وضمهم إلى حرسه الملكي الخاص، كما أخذ سنحاريب من حزقيال الكتاب الضاربة [الصاعقة]. وطبقاً لذلك يمكن تفسير وجود اسم قائد جيش يدعى حلقياهو، وهو ضابط في جيش آشور، في وثائق ترجع لعصر سرجون تم اكتشافها في كلح. كما ذكرت بعض الأسماء في الوثائق التي اكتشفت في جوزيه نفسها، وتشهد على أنه كان هناك استقرار إسرائيلي في القرن السابع ق.م. وفي أحد خطابات آشور ذكر اسم اثنين من موظفي جوزن وهما فلطياهو ونرياهو حاملي وظيفة في الإدارة الآشورية، غير أنها تعتبر معلومات عرضية. أما مصير الأسباط العشرة فيغلفه الضباب، ويفترض أن قسماً كبيراً منها، والذي كان موجوداً في زمن الأنبياء إرميا وحزقيال [قارن إرميا ٣١ - ٨، حزقيال ٣٧: ١٩ - ٢٢]، قد انضم بعد ذلك لمن أجلوا من يهودا وعادوا للبلاد.

مملكة يهودا منذ تخريب السامرة وحتى تخريب القدس

عهد حزقيا هو:

لقد رأى ملوك يهودا بعد تخريب السامرة أنهم ورثة مملكة إسرائيل التي تم تخريبها واستغلوا كل الوسائل الممكنة لفرض وصايتهم على المواطنين الذين لم يتم إجلاهم، وبضم بقايا إسرائيل التي تقع تحت الاحتلال الآشوري إلى يهودا، واجتهدوا في نفس الوقت للتوسع شمالاً في عمق المناطق التي كانت تحت سيطرة إسرائيل.

وتبين هذه الأهداف سياسة حزقيا هو بن آحاز الذي حكم في المدة من ٧٢٧ وحتى ٦٩٩ ق.. ويتضح لنا أنه لم ينضم لمحاولات التمرد المختلفة ضد آشور مثل آبائه حيث أنه لم يلعب دوراً في تمرد إسرائيل في عهد هوشع ابن آله والذي أدى إلى خراب مملكة السامرة.

وبسبب ذلك ساد السلام أيام آحاز الأخير ومعظم أيام حزقيا هو مما مكن مملكة يهودا من أن تستتب سياسياً واقتصادياً، كما كان من ثمار استقرار هذه الفترة زيادة الإستيطان والتوسع العمراني، كما نجح حزقيا هو في التوسع جنوباً، وعلى الرغم من أن يهودا كانت تؤدي الضرائب لآشور، إلا أنها كان لها في عهد حزقيا هو مكانة هامة في المنطقة التي تقع بين آشور ومصر.

ولقد ترتب على ابتعاد حزقيا هو عن التأثير الثقافي الديني للامبراطورية الآشورية الكبرى، حدوث ذلك الإصلاح الديني (الوارد بالتفصيل في أسفار أخبار الأيام الثاني ٢٩ - ٣١) والذي كان أساسه إلغاء مراكز العبادة خارج القدس وإلغاء التماثيل والنصب التذكارية، مما أدى إلى زيادة أهمية الهيكل في القدس، وكذلك إبراز هذه الأهمية وأهمية الكهانة أيضاً. وتحدد "المقرا" وقت هذا الإصلاح بأنه في السنة الأولى من ملك حزقيا هو، ولكن يعتقد أن هذا التاريخ ليس دقيقاً، لأن هناك ما يدعو للاعتقاد بأن الإصلاح قد تم في

فترة متأخرة جدا من حكم حزقيا هو حيث ورد في أخبار الأيام الثانى ٣٠، أن حزقيا هو قد أرسل مبعوثيه إلى أفرائيم ومنسى من بئر سبع وحتى دان وذلك لدعوتهم للاحتفال بعيد الفصح فى القدس، ويتضح من ذلك أن هذه الدعوة كانت بعد خراب مملكة السامرة كما أن «أخبار الأيام» تنص على أن الإحتفال بعيد الفصح كان من ثمار الإصلاح الدينى.

وفى النصف الثانى من حكمه غير حزقيا هو توجهاته السياسية. ويبدو أنه توقع أن ملوك مصر سيساعدونه فى تخفيف وطأه الحكم الآشورى عليه. ولقد دفعه تخريب السامرة لمحاولة معالجة آثار الضربة، بالإضافة إلى ان الوضع فى مصر تغير تغييراً جذرياً.

إن ملوك كوش (النوبة/ إثيوبيا) الذين تميزوا بجيشهم المقدم وبكفائتهم العسكرية تمكنوا من السيطرة فى ذلك الوقت على معظم مصر وفرضوا سيطرتهم على أمراء الدلتا. وفى عام ٧١٠ ق.م أقال الملك النوبى آخر أمراء الدلتا ونصب نفسه ملكا على مصر وأسس بذلك الاسرة الكوشية الخامسة والعشرون، وكما ذكر فى سفر اشعيا ١٠: ٨ قامت علاقات دبلوماسية بين يهود. وملوك كوش وربما كان ذلك قبل أن يحتل ملوك كوش مصر السفلى (الدلتا).

وقد عمل تمرد أشدود على آشور عام ٧١٢ بمثابة دافع آخر انساق وراءه حزقيا هو، وكان على رأس هذا التمرد يمنى ملك أشدود، الذى تولى الملك بعد الذى كان ساليا لآشور عن الحكم ولقد حاول «يمنى» إقامة حلف موسع ضد آشور. وطبقا للخطة التى وضعها فقد كان من المقرر أن يشاركه سائر ملوك فلسطين وأدوم ومؤاب ويهودا، كما أن ملوك كوش وعدوا يمنى بمد يد المساعدة العسكرية له. ومن الجدير بالذكر، أن حزقيا هو قد انساق وراء المتمردين وتعاون معهم، وذلك على الرغم من نصيحة النبى إشعيا له بعدم الإنغماس فى أية مغامرة سياسية من شأنها أن تجلب الفناء على يهودا.

وما أن علم سرجون بالتمرد حتى أسرع (٧١٢ ق.م) بإرسال جيشه بقيادة الترتان - قائد الجيش لإخماد هذا التمرد. ولقد احتل الجيش الآشوري عددا من المدن التي تقع على حدود فلسطين، ومن بينها عزة وضم أشدود المحصنة جيدا إليه، أما «يمنى» فقد هرب إلى النوبة وبعد فترة قصيرة قبض عليه ونقل إلى آشور.

وأثناء هذه التقلبات، نجح حزقيا هو في الانسحاب في الوقت المناسب وإلغاء تأييده للمتمردين، ولذلك لم تصب يهودا أية أضرار من الحملة الآشورية على أشدود وبد ذلك بفترة قصيرة عادت العلاقات وتوطدت بين ملك يهودا وبين «بلاط» الملك المصري. ومرة أخرى بدأت المؤامرات تحاك ضد آشور وخرجت لحيز التنفيذ أول فرصة مناسبة بعد سقوط ملك آشور في ساحة القتال (٧٠٥ ق.م).

النبي إشعيا:

كانت فترة الهدوء النسبي التي سبقت الصراع مع آشور وعهد الإصلاح الديني أيضا فترة نشاط سياسي للنبي إشعيا بن أموص. وقد بدأ هذا النشاط عندما توفي الملك «عوزياهو» عام ٧٣٤، حيث ذكر أن روح النبوة قد حلت به عندما تعرضت يهودا للأزمة السياسية الخطيرة. وخلال سنوات معدودة كانت يهودا قد هوت من المكانة الرموقة التي احتلتها منذ عهد «عوزياهو» وأصبحت هدفا للمؤامرات والاعتداءات العسكرية من جانب جيرانها، وبالذات من إسرائيل، وأرام، وأدوم وفلسطين.

وفي نفس الوقت كانت هناك نهضة نبوية في يهودا بزعامة إشعيا الذي يبدو أنه كان ابن أحد النبلاء الأرستقراطيين، ولكنه كان بالنسبة لأفكاره النبوية إستمراراً لعاموس، حيث كان هناك اتفاق كامل في وجهات النظر بينه وبين طبقات الشعب المطحونة (التي كان يسميها في نبوءاته «شعبي»)، كما أنه كان يطالب بحقوق الضعفاء والفقراء وحث الأقوياء على إنصاف

المظلومين وعمل على أن يكون مصير الجماعة قائماً على العدل الإجتماعى، وأشار إلى أنه ليست هناك أية قيمة للقرايين.

وجنباً إلى جنب مع صراع إشعيا الإجتماعى والتعليمى بين الشعب، كان يشارك فى صياغة السياسة الخارجية فى بلاط ملك يهودا، وكانت نصيحته الدائمة والمتكررة أن تعتمد يهودا على القوة العسكرية، على الحصان والعربة، وأن تعتمد ايضا على القوى الخارجية، مثل ضمان إنقاذ مصر لها فى وقت محنتها. وكان تفسيره للحوادث الكبيره التى ألت بيهودا، هو أن معالجة هذه الأحداث لا يكون بالتمرد على آشور ولكن يكون بتطهير روح الامة عن طريق تحطيم الأصنام والمحافظة على التقاليد الدينية ونشر العدل. ويقول إشعيا، أن آشور التى تقوم بدحر الشعوب الاخرى ليست إلا أداة لتنفيذ غضب الرب الذى أرسلها لمعاقبة المخطئين، وأنها سوف تتحطم بعد تأدية مهمتها (إشعيا الاصحاح العاشر). وبالإضافة إلى ذلك فإن إشعيا نظر إلى الأحداث الكبيرة التى حدثت فى عهده من خلال نظريته الشاملة للعالم.

لقد كانت نبوعته تقوم على أساس الإصلاح الجذرى للخليقة وتغيير نظام العالم الإجتماعى والعمل على إنهاء الحروب، وأن يذهب العالم كله إلى جبل صهيون لأنه من هناك تخرج الشريعة ومن اورشلم تخرج كلمة الرب (إشعيا الاصحاح الثانى). وفى هذا التطاق جُدتَ المهمة الحاسمة للملك الذى يأتى من بيت داود وليحكم فى هذا الزمان فيكون حكمه بالعدل فيزول النزاع من على الأرض ويحل السلام على العالم. وكما ذكر فى الاصحاح الحادى عشر من سفر إشعيا، فإن «الذئب يسكن مع الخروف ويربض النمر مع الجدى... والأسد كالبقرة يأكل تبناً» ويفهم من ذلك أن وجهة نظر إشعيا ترى أنه ليس هناك أى مغزى أو أهمية للعمليات السياسية التافهة الخاصة بعقد المعاهدات، وبمعنى آخر فإن النبى أعلن عدم فاعلية

وسلبية العمليات السياسية، وكما ذكر في سفر إشعيا الإصحاح ٣٠: ١٥، فإن الهدوء والأمان يؤديان إلى العظمة: «بالرجوع والسكون تخلصون بالهدوء والطمأنينة تكون قوتكم».

وأثناء حملة سنحاريب، وفي الوقت الذي تعرضت فيه القدس للتخريب وتعرض ملك داود للخطر، نجد أن إشعيا قد شجع وساند ملك يهوذا وأكد له أن الرب قال أنه: «لا يدخل هذه المدينة ولا يرمى هناك سهماً ولن يكون ولا يتقدم عليها بترس ولا يقيم عليها مترسة. في الطريق الذي جاء فيه يرجع وإلى هذه المدينة لا يدخل يقول الرب وأحاصي عن هذه المدينة وأنقذها من أجلي ومن أجل داود عبدي» (إشعيا ٣٧: ٣٣ - ٣٥). ولقد رد النبي إشعيا على الخطاب العدواني الذي ألقاه «ريشقا» المبعوث الرسمي لملك آشور قائلاً: «إحتقرتك إستهزأت بك العذراء إبنة صهيون. نحوك أنغضت إبنة اورشليم رأسها» (إشعيا ٣٧: ٢٣ - فصاعداً).

ومما لا شك فيه أن بشرى إشعيا النبوية قد وجدت مؤيدين مخلصين ولقد ذكرت هذه النبوة مرة أخرى على لسان «ميخا المورشاتي» (من مورشيت - جت، وهي مدينة صغيرة في جنوب يهوذا) معاصره، حيث لم يكرر ميخا الأفكار الواردة في نبوءة إشعيا فحسب، بل كررها بنفس الأسلوب مصحوباً بتغييرات طفيفة. وذلك بالنسبة لوجهة النظر الخاصة بنهاية الأيام، كما أن ميخا تفوق عليه في النقد الإجتماعي اللاذع، حيث توجه إلى زعماء الشعب قائلاً: «إسمعوا هنا يارؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت إسرائيل الذين يكرهون الحق ويعوجون كل مستقيم. الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم. رؤساؤها يقضون بالرشوة وكهنتها يعلمون بالاجرة وأنبيأوها يعرفون بالفضه وهم يتوكلون على الرب قائلين أليس الرب في وسطنا. لا يأتى علينا شر، لذلك بسببكم تفلح صهيون كحقل وتصير أورشليم خراباً وجبل البيت شوامخ وعراً» (ميخا ٣: ١ - ١٢).

إن التهديد بتخريب المعبد بسبب خطأ المجتمع الأخلاقي، كانت وجهة نظر ميخا التى لم يعمل بها إشعيا من قبل. وظلت أحاديث ميخا المسجلة تُعاد وتكرر طوال مائة سنة، حيث أن إرميا النبى عرض نبوءة البلية الخاصة بميخا عندما قال: «أقامت هذا البيت على أنه للرب». وكان ميخا يبدو فى نظر الشعب على أنه نبي البلية.

حملة سنحاريب:

على الرغم من مواعظ الأنبياء الذين كان لهم تأثير كبير على حزقيا هو فإن يهودا لم تقف بعيدة عن الثورة الكبرى التى حدثت ضد آشور بعد موت سرجون فى ميدان القتال سنة ٧٠٥ وانضمت إلى المتمردين. ولكونها أقوى دول المنطقة فإنها قد تولت الزعامة ولم تجد أيضا الخطابات الشديدة اللهجة ضد تمرد إشعيا النبى (إشعيا ٣٠: ١ - ٥، ٣١: ١) الذى كان مقرباً جداً من الملك. ولقد بدى فى بداية الأمر أن الوقت فى صالح الثورة، حيث استولى مرادخ بلادن الكلدانى على الملك فى بابل وطرد الجيش الآشورى من بابل وتعاونت «صور وأشقلون» أما ملك يهودا فقد إتصل بملك عقرون الموالى لآشور وقام بإجلائه إلى القدس وعقد معه حلفاً، وكان الهدف من كل ذلك هو التحرر من نير الآشوريين، وأكد ملك مصر الكوشى أنه سيأتى بسلاحه وعتاده لمساعدة المتمردين.

أما «حزقيا هو» فقد رأى منذ البداية أن الجيش الآشورى سوف يضرب حصاراً على القدس، ولذلك أعد العدة وحصنها وخزن الطعام وقويت الأسوار وتم إصلاح منابع المياه للاستفادة بها وقت الحصار، كما تم شق نفق أو جسر للإمداد. وكان هذا النفق هو نفق الإمداد الوحيد الموجود فى ذلك الوقت، وعن طريقة ثم إرسال الإمدادات إلى داخل المنطقة التى تقع بين الأسوار وكان طول هذا النفق ٤٠٠ متر وتم تحصينه من الجانبين ويعتبر أول عمل معمارى من نوعه. وقد وجدت كتابات تصف هذا النفق على حائطه

واكتشفت هذه الكتابات عام ١٨٨٠، وهى من الشواهد الأثرية التى تعود إلى عصر «المقرا».

ويبدو أن سنحاريب لم يستطع التوجه لإخماد هذه الثورة، كما أنه لم يستطع السيطرة على بابل وكان ذلك سنة ٧٠٢. ولكن بعد سنة واحدة من ذلك، وبالتحديد فى ربيع ٧٠١ خرج سنحاريب على رأس جيش جرار وتوجه إلى مدن فينيقيا. وبمجرد وصوله إلى هناك ترك ملك صيدا (صيدون) المدينة وهرب وتمكن سنحاريب من السيطرة عليها. وبعد ذلك تلقى الهدايا والقرايين من الملوك الذين لم يثوروا أو الذين قرروا الخضوع، وهم ملوك أرو، وجبل وأشود وعمون ومواب وآدوم، ومن هناك توجه على طول الساحل إلى فلسطين. وبعد أن أخضع يافا التى كانت تابعة لملك أشقلون تمكن من إخضاع أشقلون نفسها وعين عليها ملكاً جديداً. وبعد ذلك ضرب حصاراً على مدينة عقرون التى وصلها جيش مصرى لمساعدتها، وهناك دارت الحرب بين الجيش المصرى والأشورى فى سهل التكة. ولقد وصف سنحاريب هذه الحرب فى نقوشه قائلاً: «أنه حقق فيها إنتصارات باهرة»، ولكن اتضح أن الأمر لم يكن كذلك، وأن هذا الوصف كان مبالغاً فيه، لأن سنحاريب لم يطارده الجيش الكوشى بعد الحرب. ويبدو أن هذه المعركة لم تكن حاسمة، وبانسحاب الجيش المصرى تم إخضاع عقرون كما تمت محاكمة سكانها، ومن عقرون توجه سنحاريب لمواجهة حزقياهو ملك يهودا.

ولقد وُصفت شدة وعنفوان الحرب التى قامت بين سنحاريب وحزقياهو فى نقوش سنحاريب على النحو التالى: «ولما لم يخضع لى حزقياهو اليهودى، وأقام التحصينات حول مدنه التى بلغ عددها ٤٦ مدينة بخلاف المدن الصغيرة التى لاحصر لها، فقد ضربت حصاراً على هذه المدن واستوليت عليها، وأقامت السواتر الترابية والأسوار ثم انقضضت بسلاح المشاة واخترقت التحصينات وأسرت مايتراوح بين ١٥٠، ٢٠٠ شخص بين صغير وكبير ورجل وامراه وأخذت الأحصنة والبقر والحمير والجمال والأغنام غنائم

لى وقد حبسته داخل القدس عاصمة ملكه كالعصفور فى القفص. وصببت عليه السواتر، وجعلت الخروج من بوابة مدينته أمر عصبياً، ومدينته التى اقتنصتها اجتزأتها من بلاده ومنحتها هبة لملك أشدود، يفدى ملك عقرون ولصابعل ملك غزة. وهكذا تقلص حجم بلاده، وأضيفت إلى الجزية السابقة التى كان يدفعها كل عام، منحا إضافية وهدايا سيادية وفرضتها عليه». ويتضح من هذا الوصف أنه احتل معظم قلاع يهودا والمدن المحصنة والتى كان من أشهرها مدينة لخيش التى وجدت فيها بعد احتلالها نقوش بارزة فى قصر سنحاريب فى نينوى. وكما هو مكتوب فى سفر الملوك الثانى فإن ملك آشور أرسل بعثة إلى القدس وكان هو موجوداً فى لخيش وكان على رأس هذه البعثة قادة كبار جداً، مثل: «ترتان» (القائد الأعلى للجيش ومساعد الملك)، «راف ساريس» (قائد الجيش)، «راف شاقه» قائد حرس البلاد الملكى الذى كان يعرف اللغة العبرية وكلم أهل القدس المحاصرة بلغتهم. ان القصة «المقرائية» التى هى من نوع «قصص الأنبياء» والتى كتبت بعد وقوع الحوادث بعدة سنوات، تصف حملة سنحاريب من خلال وجهة نظر خاصة بإستعادة الأحداث بسفة عامة، وتؤكد على تفاصيل هامه من وجهة النظر التاريخية الخاصة بالكاتب. فهى تقص عن الطلب الصارم الذى وجهه «راف شاقه» بخصوص الاستسلام فى خطاب شديد اللهجة ومميز بأسلوب التبجيل الذى كان يسود خطابات ملوك آشور كما أنها تبرز إدعاءات «شاقه» لملك يهودا ولآلهته الذى جاء كما تقص قصة المقررا بعد أن دفع حزقيا هو الجزية.

وتقص المقررا أن جيش سنحاريب قد حلت به هزيمة إعجازية عند مداخل القدس: «وخرج ملاك الرب وقتل خمسة آلاف ومائة وثمانين من معسكر آشور (سفر الملوك الثانى ١٩ - ٣٥). ولكن هيرودوت حكى نفس قصة سنحاريب والذى يسميه «ملك آشور والعرب»، ولكن «هيرودوت» نقل مكان الحادثة إلى «بلوسيوم» عند مداخل مصر، ويقول أن فئران الحقول

كامل فى إصلاحات ياشياهو، وتم تفسير مقتل سنحريب على يد أبنائه بعد عشرين سنة من حملته على يهودا على أنه عقاب على أقوال راف شاقه «شاقة» ودليلا على صحة نبوءة إشعيا. وكما ذكر فى (سفر الملوك الثانى ١٩: ٧): «فيسمع خبرا ويرجع إلى أرضه وأسقطه بالسيف فى أرضه».

فترة منسى:

توفى حزقيا هو بعد عدة سنوات من الحملة، أى حوالى سنة ٦٩٨ وتولى ابنه «منسى» الملك وهو مازال صبياً وإستمر فى الحكم حوالى ٥٥ سنة كان فى معظمها مواليا لآشور.

ويوصف «منسى» فى «العهد القديم» (المقرا) على أنه الملك الذى عبد آلهة أجنبية وأدخل إلى يهودا وإلى الهيكل نفسه رموزاً وثنية (سفر الملوك الثانى ٢١: ١ - ٧): «وعمل الشر فى عيني الرب حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل. وعاد فبنى المرتفعات التى أبادها حزقيا هو أبوه وأقام مذابح للبعل وعمل سارية كما عمل أخاب ملك إسرائيل وسجد لكل جند السماء وعبدها. وبنى مذابح فى بيت الرب الذى قال الرب عنه فى أورشليم أضع إسمى. وبنى مذابح لكل جند السماء فى دارى بيت الرب. وعبر ابنه فى النار وعاف وتفاعل واستخدم جانا وتوابع وأكثر عمل الشر فى عيني الرب لإغاضته. ووضع تمثال السارية التى عمل فى البيت الذى قال الرب عنه لداود وسليمان ابنه فى هذا البيت وفى أورشليم التى إخترت من جميع أسباط إسرائيل أضع إسمى إلى الأبد».

ومن ذلك يبدو أن «منسى» قد أدخل إلى الهيكل ديانات فينيقية وسورية وربما آشورية أيضا، وغير معروف ما إذا كانت هذه الأعمال نابعة من ثقته فى مقدرة الآلهة الأجنبية، أو أنها كانت ثمار وجهات نظره بشأن مكانة يهودا داخل الإمبراطورية الآشورية والتى كانت سبب عظمتها، أو أن هذه الأعمال كانت نتيجة ضغط القيادة الإمبريالية الآشورية، وهناك احتمال آخر وهو أن

تكون هذه الأعمال نتيجة تأثير الشخصيات الهامة الموالية للآشوريين والموجودة فى بلاط «منسى».

وعلى أية حال، يتضح أنه بفضل النفوذ الذى مارسه آشور على يهودا وبالذات فى عهد «منسى»، ودخول جيوشها إلى البلاد عدة مرات، بل ووجود قوات ثابتة ومرابطتها فيها، تمكن مساعدى ملك آشور الآراميين والآشوريين من أن يفرضوا تأثيرهم الدينى والثقافى على يهودا.

وفى المقرأ يصور «منسى» على أنه مخطئ كفارة له. ويؤكد إرميا على خطيئة الوثنية وعلى رؤسها عبادة الملك، وهى خطايا شاعت، كما يتضح، فى عهد «منسى» بين معاصرى النبى. ولكن «منسى» يوصف أيضا على أنه تائب، حيث ورد فى الإصحاح ٣٣ من سفر أخبار الأيام الثانى، أن قادة ملك آشور قد قبضوا عليه بتهمة التآمر، ووضع فى أحد سجون بابل حتى صلى للرب هناك وغفر له. وما أن عاد إلى القدس حتى إهتم بتحسين المدنية «بنى سوراً خارجياً لمدينة داود غرب جيحون وأزال الآلهة الأجنبية الموجودة فى بيت الرب» (أخبار الأيام الثانى ٣٣: ٤).

ويمكن أن تكون هذه القصة «الوعظية» ذات أصل تاريخى حيث كان هناك شك فى أن يكون «منسى» قد إشتراك فى التمرد، وبالتالي تم القبض عليه ثم أطلق سراحه بعد ذلك. وإذا كانت عبادة الآلهة الأجنبية. قد حدث بسبب وقوع «منسى» تحت التأثير الآشورى، فإن ضعف آشور فى نهاية أيامه ورغبة «منسى» فى إظهار التغييرات التى طرأت على أهدافه وأعماله فى مجال الدين. ولكن من الصعب تحديد الخلفية أو الدافع وراء هذه الأحداث. ولقد كانت الأحداث التى وقعت فى يهودا فى عهد «منسى» ذات أهمية نظراً لأهمية يهودا والحملات التى شنّها «أسرحدون»، «وأشور بنيبال» ملوك آشور على بابل. ولقد كان هدف حملة «أسرحدون» من سنة ٦٧٤ وحتى ٦٦٩ وحملة إبنه «أشور بنيبال» من سنة ٦٦٨ وحتى ٦٦٣، وهو إحتلال مصر،

وهُزم جيش آشور فى إحدى الحملات سنة ٦٧٤ عند مداخل مصر وإستعان «أسرحدون» فى هذه الحملات بجيوش الواسليين الموجودين فى فلسطين، ومن ضمن هذه الجيوش كان جيش «منسى» ملك يهودا. ولقد قدم «منسى» مساعدات وجيشا لآشور بنيبال» وسمح لجيش آشور بالعبور عدة مرات من يهودا، كما قام «آشور بنيبال» بعدة حملات حربية على وادى الاردن وذلك لضمان السيطرة على الطرق التجارية التى كانت لها أهمية كبيره جداً فى هذه الفترة بوصفها الشريان الحيوى للتجارة العربية اللازمة للملك ووزرائه؛ العطور والتوابل ووسائل الرفاهية. وبهذه الحملات بث الآشوريون الرعب فى قلوب القبائل العربية، كما أنهم مروا عدة مرات فى المناطق المحيطة بيهودا. ولم تخف وطأة آشور على يهودا إلا بعد أن ضعف جيش آشور وتحررت مصر من نفوذ آشور وانسحب جيشها منها بعد عام ٦٥٦ على الرغم من بقاء السلطة الآشورية فى البلاد على الأقل حتى عام ٦٤٩، وتشهد على ذلك القوائم الإدارية الآشورية فى جازر.

وبصفة عامة، «فقد ضعفت آشور من الداخل نتيجة حروبها المتتالية مع بابل وعيلام، ازداد الخطر الذى كان يهددها من الشمال وغزو بنى جومر (القيماريين) لحدود آشور، مما أشاع الأمل لدى يهودا فى أن تتحرر من سيطرة آشور، وتم هذا التحرر فعلا فى عهد ياشياهو حفيد «منسى».

وقبل أن يتولى ياشياهو الملك، مرت هذه السلالة الملكية بأزمة عنيفة: وهى مقتل «أمون» ابن «منسى» الذى تولى الملك لمدة سنتين أى (٦٤١ - ٦٤٠) قبل الميلاد على أيدي متآمرين فى السنة الثانية من توليه الملك، وهى عملية مغلقة بالغوض، ولكن يمكن أن يكون مقتل هذا الملك متعلقا بزيادة النفوذ الدينى الأجنبى فى القدس كما يتضح من سفر أخبار الأيام الثانى ٢٢: ٣٣ (وعمل الشر فى عيني الرب كما عمل «منسى» أبوه وذبح أمون لجميع التماثيل التى عمل «منسى» أبوه وعيها).

ولقد اتضحت أهمية «شعب الأرض» (العامة) بعد مقتل «أمون»، بإعتباره الجهة التى تقوم بتنصيب الملوك وقت الأزمة. وقد تدخل العامة هذه المرة وقاموا بضرب الذين تأمروا ضد «أمون» ونصبوا ابنه ياشياهو ملكاً عليهم (الملوك الثانى ٢:٢١). وبصعود ياشياهو للملك، وبعد أن إستقرت وإستتبت الأمور فى البلاد، وبالتحديد فى السنة الثامنة من حكمه، بدأ عهد جديد فى تاريخ يهودا، وحدث تغيير جذرى فى شتى المجالات السياسية والدينية والاجتماعية فى داخل يهودا، كما حدثت تغييرات جذرية أيضا فى سياستها الدولية.

ياشياهو وأعماله:

على الرغم من أن الأحداث التى ألت بأشور فى عهد «أشور بنيبال»، وبالذات فى أيامه الأخيرة غير واضحة الأهداف، إلا إنه يمكن القول، أنه فى نهاية عهده ضعفت العلاقة بين الأقاليم البعيدة، ومن بينها يهودا وبين العاصمة. ولقد زادت قوة مصر فى فلسطين كما احتل «بسماتيك الأول مؤسس الأسرة السادسة والعشرون» أشدود التى كانت تابعة للأشوريين. وقد حدثت فى آشور أزمة حادة بمجرد موت «أشور بنيبال» عام ٦٢٧، وكان سبب هذه الأزمة هو تمرد بابل على آشور بزعمامة الأمير الكلدانى «نبوبلاسر» الذى أسس بعد ذلك مدينة بابل الجديدة (الكلدانية). ومنذ ذلك الوقت بدأ صراع كبير بين ورثة «أشور بنيبال» وبين ملك بابل، ويحتمل أن تكون آشور نفسها قد انقسمت إلى قسمين إداريين متعاضدين. وقد بدأت الحرب بين «أشور إيتيل إلانى» بن «أشور بنيبال» (٦٢٧ - ٦٢٣) وبين أخيه «سين سر إشكون» (٦٢٣ - ٦١٢) والذى تفتتت الإمبراطورية فى عهده وخربت آشور نفسها أيضا. وعلى أساس هذا الموقف الذى حدث فى عهد «منسى»، وبالتحديد فى نهاية أيامه، قويت حركة التحرر من النير الآشورى بعد عشر سنوات من الاستعباد المستمر.

ولقد تحقق التحرر ليهودا تدريجيا دون إراقة دماء فى مجالين رئيسيين: ففي المجال السياسى سيطرت يهودا على مناطق مملكة إسرائيل السابقة، وهى السامرة والجليل، وفى المجال الداخلى حقق ياشياهو إصلاحات دينية جذرية، وكان التحرر فى هذين المجالين هو الدافع لحياء القومية الثقافية فى يهودا القديمة والتي كانت موجوده قبل سقوطها.

ولقد بدأت إصلاحات ياشياهو فى السنة الثانية عشرة من حكمه والتي توافق سنة ٦٢٨، وكانت هذه الإصلاحات ناتجة عن التأثيرات الدينية الآرامية والفينيقية والآشورية. ففي السنة الثامنة من ملكه، وكان مازال صبيا غضاً بدأ يبتهل لآلهة أبيه، وفى السنة الثانية عشرة بدأ فى تطهير يهودا والقدس من التماثيل والأصنام وشهد هو بنفسه تكسير وتحطيم هذه التماثيل والأصنام وذبح الذبائح لتطهير يهودا والقدس من هذه الأرجاس. ويتضح هذا فى (سفر أخبار الأيام الثانى ٣٤: ٣ - ٧) : «وفى السنة الثامنة من ملكه إذ كان بعد فتى إبتدأ يطلب إله داود أبيه. وفى السنة الثانية عشرة إبتدأ يطهر يهوذا وأورشليم من المرتفعات والسوارى والتماثيل والمسبوكات: وهدموا أمامه ذابح البعليم وتماثيل الشمس التى عليها من فوق قطعها وكسر السوارى والتماثيل والمسبوكات ودقها ورشها على قبور الدين ذبحوا لها. وحرق عظام الكهنة على مذابحهم وطهر يهوذا وأورشليم. وفى مدن «منسى» وأفرايم وشمعون حتى ونفتالى مع خرائبها حولها هدم المذابح والسوارى ودق التماثيل ناعماً وقطع جميع تماثيل الشمس فى كل أرض إسرائيل ثم رجع إلى اورشليم».

وإلى هذه الفترة تنسب عملية إزالة التماثيل الدينية التى ميزت عصر «منسى» (الملوك الثانى ٢٣: ٤ - ١٢). ولقد كان لتحرير يهودا من قبضة آشور الفضل الأكبر فى تطهير العبادة فى القدس نفسها، وبعد ذلك فى أنحاء يهودا وجنوب جيل أفرايم. وقد كان من نتائج تحرير يهودا أيضا منع التماثيل من أنحاء إسرائيل وفى كل مدن السامرة، وكذلك فى منطقة نفتالى،

كما تم تدمير المراكز الدينية المعروفة منذ أيام مملكة إسرائيل، وعلى رأسها المنصة الكبيرة التي في بيت الرب والتي أقامها «يربعام بن ناباط». وتوجد تفاصيل هذه الأعمال في سفر الملوك الثاني الاصحاح ٢٣، وقد نسبها المدون إلى العام الثامن عشر من ملك ياشياهو، ولكن يبدو أنها بدأت في العام الثاني عشر من ملكه وإستمرت حتى العام الثامن عشر، أى حتى عام ٦٢٢. ومن أبرز أعمال هذا الملك أنه حرم على الكهنة تقديم القرابين في بيت المقدس (الهيكل) على الرغم من أنه جمعهم في القدس. وقد قوت هذه الأعمال من مكانة القدس كمركز ديني في إسرائيل، كما رفعت أيضا من مكانة المملكة. ولقد كانت الايديولوجية المصاحبة لحركة الاصلاح هي التعبير عن هذه المسيرة التي عرفت باسم «تثنية التوراه»، وتبلورت في أن القدس، وهي المدينة التي إختارها الرب لتحمل إسمه، وهي المدينة المقدسة الوحيدة وهيكلها هو المكان الوحيد لعبادة الرب، وأى مكان آخر غير صالح لعبادة الرب وتقديسه. ولقد تبلورت وجهة النظر هذه منذ أيام «حزقياهو» ثم نُفذت بمفهومها الكامل في عهد ياشياهو الاصلاحى، وكان مؤيدوها هم الذين وجهوا الملك في كل أعماله. وقد حدثت ذروة هذه الإصلاحات في السنة الثامنة عشرة لحكم ياشياهو (٦٢١/٦٢٢)، عندما تم اكتشاف سفر الشريعة (التوراه) بطريق الصدفة عندما كانوا يقومون بترميم الهيكل في القدس وقراعه أمام الملك مما كان له أثر كبير في نفسه.

وتحتل مشكلة هوية هذا السفر المحور الرئيسى في دراسات المقراء، وأتضح بنسبة عالية جداً، أنه يمثل جزءاً كبيراً من سفر التثنية، سواء كان جميعه أو إصحاحات التوبيخ الأخيرة منه، وذلك لأنه السفر الوحيد من بين أسفار التوراه الذى يؤكد الخطر الشديد على عبادة الرب خارج المدينة المختارة، كما يبين أيضا عقوبة الذين يصرون على عبادة إلهاء أجنبيا. والسفر نفسه تمت صياغته في صورة عهد بين إسرائيل والرب على أن يقوم شعب إسرائيل بعبادة الرب ولا أحد غيره، بحيث يؤدي خرق العهد، كما هو

نائع فى عهد بين أتباع ديانا معاصرة لهم، إلى عقوبات خطيرة جداً، على رأسها إبادة الشعب والنفى والخراب. كما هو تبين ذلك مأخوذه عن منشورات أدبية يحتمل أنها أرامية المصدر. ويتضح التأثير العميق لهذا لسفر فى الإصحاحات الثانى والعشرين والثالث والعشرين من سفر الملوك لثانى حيث أراد المؤلف أن يبين أن اكتشاف هذا السفر بين جميع الإصحاحات التى تمت وليس إصحاحات ياشياهو فقط. وكما ذكر فإن الملك قد مزق ملابسه عند سماعه هذا السفر ثم قرئت الشريعة أمامهم جميعاً، والتى التزم فيها الشعب أمام الرب بتنفيذ كل ما هو مكتوب فيها: «فلما سمع الملك كلام سفر الشريعة مزق ثيابه. وأمر الملك حلقياً الكاهن وأخيقام بن شافان وعكبور بن ميخاو وشفافان الكاتب وعسايا عبداً للملك قائلاً: إذهبوا إسألوا الرب لأجلى ولأجل الشعب ولأجل كل يهودا من جهة كلام هذا السفر الذى وجد. لأنه عظيم هو غضب الرب الذى اشتعل علينا من أجل أن أباعنا لم يسمعوا الكلام هذا السفر ليعملوا حسب كل ما هو مكتوب علينا. وقد جمع ياشياهو مندوبى الشعب فى القدس وكل شيوخ يهودا وكل رجالها وكل مقيم فى القدس والكهنة والأنبياء وكل الشعب».

ولقد إنتهت النهضة القومية والدينية الكبيرة التى حدثت بين الجماهير نتيجة هذا العمل بالاحتفال بعيد الفصح فى القدس، «حيث لم يتم الاحتفال بهذا العيد بهذه الصورة منذ عهد القضاة الذين حكموا إسرائيل وطوال حكم ملوك إسرائيل وملوك يهودا».

وقد آمن الملك والشعب بأنه ستبدأ فترة جديدة فى تاريخ إسرائيل حيث ألغيت كل رموز عبادة الآلهة الغريبة التى تعود إلى عهد «منسى»، وألغيت أيضاً السوارى التى كانت مقامة فى القدس، وهو المكان الذى إختاره الرب وأصبح مكان العبادة الوحيد فى إسرائيل. وفى الحقيقة، كان لعملية الإصلاح وكذلك لحركة «التثنية التوراتية» التى صاحبته تأثير كبير فى تاريخ إسرائيل. حيث أدت إلى إحياء التقاليد التاريخية الخاصة بالعهد الذى قطع مع الرب فى بداية تاريخ بنى إسرائيل عند جبل سيناء.

وقد كان عهد ياشياهو عهد إنتعاش إقتصادي وسياسي ليهودا، وكان الاهتمام بالإحياء القومي يهدف إلى التوسع الإقليمي حيث عمل ياشياهو على أن يجمع من جديد تحت سلطة القدس كل مايمكن ضمه من مملكة إسرائيل. ولقد وصلت يهودا في المرحلة الاولى من الوادي الذي في جيل أفرام حتى بئر سبع الذي يقع جنوبها، وبعد ذلك إمتدت إلى الجليل، كما توسع ياشياهو أيضا ناحية شمال فلسطين واستعاد السيطرة على الجزء الشمالي للبحر. وقد وجدت دلائل سيطرة على هذه المناطق في الحصن الموجود على شاطئ البحر شمال أشدود والمعروف اليوم باسم «متسار حشيباهو» والذي تم الكشف عنه منذ فترة ضمن الحفريات الأثرية. ويحتمل أن يكون هذا الحصن قد بنى لسبب عسكري يتعلق انتشار سيطرة السلطات المصرية على فلسطين وإحتلال أشدود في ذلك الوقت في عهد بسماتيك الأول،، وهو الوقت الذي توقفت فيه توسعات ياشياهو في إتجاه الشمال. وقد كانت السنوات الأخيرة من ملك ياشياهو مليئة بالأحداث. ففي الصراع بين آشور وبابل الكلدانية تعاظمت قوة بابل حيث إنضم إليهم حليف قوى، هو بنى ميدى (الميديين) الذي أقاموا مملكة بعد خراب عيلام على يد آشور بنيبال». ولقد إشتراك القوة الثالثة في ذلك الوقت، وهي مصر، في هذه الأحداث عندما جاء «بسماتيك» لمعاونة آشور الضعيفة ولكن غير معروف ما إذا كانت هناك معاهدة بينهما أم لا. وعلى أية حال، فقد حاربت الجيوش المصرية عام ٦١٦ بجانب الآشوريين ولكن بلا جدوى، حيث سقطت مدينة آشور في يد الميديين عام ٦١٤. وفي عام ٦١٢ ونتيجة لهجوم مفاجئ مدينة «نينوى» عاصمة آشور، وهو الأمر الذي أغضب كل الشعوب وأثارهم على «ناحوم الكوشي» النبي الذي عاصر الأحداث، لأنه أبدى سبروره البالغ للسقوط المفاجئ لعاصمة الامبراطورية الطاغية.

وما أن خربت «نينوى» حتى أبرم ملك الميديين الظافر معاهدة مع «نبويلاسر» ملك بابل وبذلك وصلت الإمبراطورية إلى نهايتها. ولكن الجيش

الآشوري إنسحب غرباً وبدأ يحارب مرة أخرى وتمركز في «حاران» التي أحتلها الميديون والبابليون، وفي عام ٦٠٩ تمكن ملك آشور الأخير من التمرکز في كرمكيش، التي خف إليها ملك مصر.

ولست لدينا معلومات واضحة عن الإتجاه السياسى ليهودا أثناء هذه الثورات، كما أننا لانعرف الأسباب التي جعلت ياشياهو يخرج عام ٦٠٩ ويسد الطريق أمام «نخو» بن «بسماتيك» ملك مصر، عندما أسرع متجها إلى منطقة كركميش وحاران لإنقاذ بقايا الجيش الآشورى، وربما كان من هذه الأسباب، أن ياشياهو كان يخشى من قوه مصر أو من إمكان صحوة الآشوريين، أو أنه كانت هناك معاهدة بينه وبين البابليين! وعلى أية حال، فقد حاول وقف الجيش المصرى بجوار مجيدو، ولكنه أصيب فى المعركة التي دارت بينه وبين الجيش المصرى ونقل إلى القدس حيث مات هناك. وبعد موته تدخل «شعب الأرض» كعادته فى أزمة الوراثة الملكية وقاموا بتصيب ابنه يهوآحاز، الذى لم يكن ابنه الأكبر، لأن ابنه الأكبر كان يهوياقيم. ولكن ما أن عاد «نخو» وخرج بعد عدة شهور من حصار حاران حتى أسر «يهوآحاز»، ونصب أخاه «يهوياقيم» بدلا منه وقام بفرض عقوبة على يهودا وسلم الذهب والفضة إلى فرعون: «ودفع يهوياقيم الفضة والذهب لفرعون إلا أنه قوم الأرض لدفع الفضة بأمر فرعون. كل واحد حسب تقويمه. فطالب شعب الأرض بالفضة والذهب ليدفع لفرعون نخو» (الملوك الثانى ٢٣:٣٥).

ولكن الحكم المصرى على إسرائيل لم يستمر إلا سنوات معدودة، حيث هزم الجيش المصرى عام ٦٠٥ فى موقعة بجوار كركميش التي تقع على نهر الفرات. وكان المنتصر فى هذه المعركة هو نبوخذ نصر بن نبوبلاسر الذي تولى الملك على بابل بعد موت أبيه بعدة شهور. وفى عام ٦٠٤ وصل جيش بابل إلى سوريا وإسرائيل ويهوداً وقام باستعباد «يهوياقيم»، وأصبحت يهودا فى قبضة المملكة الكلدانية.

نهاية عصر يهوذا ودمار الهيكل

يجرى تصوير أحداث العشرة عاماً الأخيرة من الحكم البابلي في يهوذا بين دفتي سفر الملوك الثاني. (الاصحاحات ٢٤ - ٢٥)، وفي الأساس عبر صفحات سفر إرميا، ذلك النبي الذي بلغ ذروة نشاطه النبوي في تلك الأونة، هذا بالإضافة إلى مواد تاريخية لاحقة تم الاهتداء إليها في التواريخ البابلية الجديدة من شأنها أن تستكمل الصورة المتبلورة من خلال الشهادات الواردة في "المقرا"، وخاصة فيما يتعلق بمراحل سيطرة "نبوخذ نصر" على أرض فلسطين، وتاريخ بابل حتي عام ٥٩٤ (حيث لم يحفظ لنا التاريخ البابلي الأجزاء التي تسرد تاريخ "نبوخذ نصر" وحياته بعد عام ٥٩٤).

ويتبين من مطالعة التاريخ البابلي، أن "نبوخذ نصر" استطاع في أولى سنوات حكمه أن يبسط نفوذه على كافة الأراضي الحيثية، وهو ما يشير إلى سوريا وأرض فلسطين. وقد امتد نفوذه حتى عسقلان التي استعصت على قواته بعض الشيء. بيد أنه تمكن منها، ونفى ملكها ومواطنيها، ثم قام بتدمير المدينة، وقفل عائداً إلى بابل. وقد حدثت هذه الواقعة في شهر كيسليف، أي الشهر التاسع، وبقيناً أن "يهويا قيم" قام تحت تأثير هذا الحدث المصيري بدعوة الشعب بأسره لأن يمثل صائماً أمام الرب في القدس (إرميا ٣٦: ٩). وفي تلك الأثناء تلا النبي لفيفة نبوخته في حضرة الملك وطالب فيها بالخضوع التام إزاء بابل. وحسب تصورات إرميا (٣٧: ٦، ٢٥: ١٢) نجد أن بابل ستحتفظ بنفوذها طيلة فترة حكم "نبوخذ نصر" وابنه وحفيده، أي لمدة ٧٠ عاماً (وهذا النمط الأدبي المألوف، يرمى إلى سنوات عمر الملك، قارن مع إشعياء ٢٣: ١٥)، ومن ثم فإن أي محاولة لشق عصا الطاعة كان محكوماً عليها بالفشل مسبقاً.

وظل "يهويا قيم" يسير في ركاب ملك بابل لمدة ثلاث سنوات، وما أن حاول "نبوخذ نصر" عام ٦٠١ أن يغزو مصر، وحاقت به الهزيمة في أعقاب

معركة حامية الوطيس عند مشارف مصر، حتى رفع "يهويا قيم" راية العصيان (ملوك ثان ٢٤: ١).

وعلى ما يبدو، فإن مواطني يهودا لم يكونوا قد اعترفوا بعد - باستثناء إرميا والمقربين منه - بسطوه بابل وقوتها، ويضاف إلى ذلك، أن الملك "يهويا قيم" - الذي نصبه ملك مصر - كانت تداعب خياله بعض أوهاام بخصوص القوة المصرية وإنها قد تحل محل الآشوريين، حيث اعتبر حكام يهودا أن دمار آشور هو بمثابة معجزة حقيقية، إذ حطم الرب «مطرقة كل البلاد»، وتحققت وعود الأنبياء، وأنه من الآن فصاعداً سيسود عصر السلام المنشود. والحقيقة هي أن النبي "حبقوق" أدرك مغزى هذه الأحداث وتأثيرها على آشور، وأعرب عن اندهاشه البالغ لأن الرب رفع هامة الكلدانيين على حين غرة، «الأمّة المُرّة القاحمة السالكة في رحاب الأرض لتملك مساكن ليست لها». بيد أن وعى حكام يهودا، وارتفاع شأن الفراعنة من الأسرة السادسة والعشرين، الذي جعل من مصر مجدداً دولة عسكرية عظيمة، تحظى بقدر كبير من الأهمية، وتسعى لإثارة الأذنان في أرض فلسطين ضد السلطات البابلية، وتقريبهم منها - كل ذلك ساعد على تقوية ساعد أنصار التمرد في القدس.

ولم يتدخل "نبوخذ نصر" لمدة ثلاث سنوات بصورة مباشرة لقمع التمرد، ولكنه أطلق كتائبه العسكرية على "يهويا قيم"، وفي عام ٥٩٨ فحسب قام بغزو يهودا، وفي ذات الوقت فارق "يهويا قيم" الحياة، وخلفه ولده "يهوياكين" (كانياهو) سنة ٥٩٧. واتخذ قراراً بالخضوع لبابل (ملوك ثان ٢٤: ١٢). وفتح بوابات القدس أمام "نبوخذ نصر". بيد أن هذا الخضوع لم ينقذ يهودا، ذلك أن "نبوخذ نصر"، وفقاً لرواية التاريخ البابلي: «حل بمدينة يهودا، أي القدس، واحتلها في ثانی أيام شهر آذار. وقبض على ملكها. ونصب الملك الذي ارتضاه، ثم جَبَى ضرائب باهظة وأرسلها إلى بابل». وقد

كان هذا الملك هو "صد قياهو" عم يهوياكين، وقد كان عقاب يهودا قاسياً للغاية، إذ أنه علاوة على الضرائب الباهظة التي شملت جميع كنوز القصر الملكي، والذهب الذي جعله سليمان في معبد الرب - قام ملك بابل بإجلاء «القدس بأسرها، وجميع الحكام والقادة، عشرة آلاف منفي. وجميع الصناع وأصحاب المهن. ولم يتبقى هناك سوى فقراء "شعب إسرائيل"، وحتى الملك "يهوياكين" وأمه ونسائه وخصيانه تم نفيهم أيضاً. وعلى النقيض من "عسقلان" لم يدمر "نبوخذ نصر" القدس العاصية، إذ يبدو أن خضوع "يهوياكين" الذي خرج من المدينة المحاصرة بصحبة أمه وعبيده ليكون في استقبال "نبوخذ نصر"، هو الذي أنقذ المدينة من الدمار في هذه المرحلة.

وبدلاً من الملك المنفي هو وبلاطه ونسائه وخصيانه، أجلس "نبوخذ نصر" العرش "متنيا بن ياشياهو" هو عم "يهوياكين"، الذي تغير اسمه منذ ذلك الحين وصار يدعى "صدقياهو" (ومن المحتمل أن عملية تغيير الاسم ترتبط بالتمتع بوضع "التابع" وباليمين الذي يؤديه التابع الجديد في حضرة الملك ضماناً لأنه لن يحدث بالقسم)، ومع ذلك فإن "يهوياكين" أثناء نفيه ما برح يعتبر ملكاً ليهودا في عيون البابليين وظل يتناول طعامه في مأدبة ملك بابل. وهناك وثائق تعود للسنة الثالثة عشرة لحكم "نبوخذ نصر" (٥٩٢) تشير إلى منح وجبات الطعام إلى "يهوياكين" ملك يهودا وأبنائه الخمسة. وقد جعلت هذه الحقيقة - الحفاظ على مكانة "يهوياكين" حتى في ظل نفيه - بطبيعة الحال زعيماً للمنفيين. (فظلوا يحسبون سنوات نفيهم وفقاً لتاريخ تولية للحكم، (حزقيال ١: ٢) كما ترتب عليها حالة من التوتر الزائد في يهودا، والفوضى من جراء غياب الصفوة في بابل، ولم يستطع المعتدلون الذين كانوا على استعداد لتحمل نير بابل مدعومين بإرميا ونبואته - وكان من بينهم الملك نفسه - أن يصمدوا في وجه المتطرفين أنصار الثورة الذين استندوا إلى الدعم المصري. وحتى بين دوائر المنفيين ببابل ظهر أنبياء تنبأوا

بخلاص قريب، ويسقوط بابل خلال سنوات معدودات (إرميا ٢٩: ٢ - ٢٢). وكان هناك أنبياء على شاكلتهم فى القدس - وهم الذين دعاهم إرميا باسم "الأنبياء الكذبة"، وكان من ضمنهم حنانيا بن عازور من جبعون الذى وعد الشعب، بأن نير "نبوخذ نصر" سيتهوى «بعد عامين»، والمحتمل هو أن السقوط الكامل الذى كان من نصيب آشور. والضربات التى ألت بمصر، صورت لهؤلاء المتفائلين طرحاً مفاده أن أية امبراطورية عسكرية لن يطول بها الأجل، وأن النهاية المحتومة لكل إمبراطورية هى أمر مقرر، شأنه شأن تقدمها. وقد كان تصور إرميا قريب جداً من الواقع. إذ تصور أن بابل ستواصل بسط نفوذها حتى تبلغ من العمر عتياً، ومن ثم ينبغى أن يحنوا لها الرؤوس. وإذا كانت وجهه نظره هذه صادرة عن نفس التصورات بشأن الامبراطوريات الرائحة والغادية على صعيد الساحة العالمية، فقد أصبح النبى الذى تنبأ بذلك، بمرور السنين، نبى الدمار، الذى حذر باستياء بالغ من الحمق السياسى الذى دمر المملكة، ويوشك على تدمير الهيكل، وكانت جذور هذا الشر تكمن - حسب رأيه - فى الخطايا الأخلاقية والدينية، التى تساهم أيضاً فى تدنيس الهيكل (إرميا ٧: ١٠ - ١١).

إن الاعتداد بالنفس نظراً لانتسابه إلى الكهنة، ومراة الكهنة فى عناتوث، وأبائه الذين أبعادوا عن سلك الكهانة فى عهد سليمان، كل ذلك مجتمعا ترك أثراً عميقاً فى شخصيته، لقد كان يحذر أبناء يهودا مطالباً إياهم بالخنوع حتى تمر العاصفة، وناضل بمخاطرة حقيقية من أجل هذه الآراء. لقد ازدرى مصر وقوتها، وكان مقدراً له أن يهبط إليها فى شيخوخته، ليقتضى بها ما بقى من عمره. وما أن تحققت نبوعته المفجعة، حتى كان عوناً للمتبقين، وزعيماً للمنفيين فى طريقهم إلى بابل.

وقد تسبب الخلافات الداخلية فى يهودا الناجمة عن التوجه السياسى الذى تفشى فى عهدى يهويا قيم وصدقياهو، فى توسيع هوة الخلافات الاجتماعية وجعلت من القدس فى سنواتها الأخيرة ساحة للصدامات والمطاردات. وقد قيدت أيضاً فى عهد "يهويا قيم" وبشكل قاسى مساحة الحرية الممنوحة للأنبياء، وأحدهم، على سبيل المثال، وهو أوريا بن شماعيا، الذى تنبأ بخراب يهودا والهيكل، ثم فر إلى مصر هارباً، تم تسليمه إلى "يهويا قيم" وجرى إعدامه، وحتى إرمياء نفسه حوكم فى عهد "يهويا قيم" من قبل الحكام والكهنة بسبب نبوخته عن الدمار «وأجعل هذا البيت كشيلوه». ولولا مجموعة من الحكام المتعاطفين معه وتدخلهم للدفاع عنه. كان سينتظره بالطبع مصيراً معتماً هو الآخر (إرميا: ٢٥).

ويبدو أن الدافع للتمرد الأخير الذى قام به "صد قياهو" كان وثيق الصلة بالحملة البحرية التى شنّها "بسماتيك الثانى" ملك مصر على المنطقة الفينيقية سنة ٥٩١، وقد أفلحت هذه الحملة وألهمت شرارة الأمل فى نفوس أعداء بابل، ومنذ ذلك الحين اشتد ساعد المتطرفين، وتحالف صدقياهو مع ملك مصر وتهيأ الشعب لمحاربة بابل، وكان الحماس الذى ملك نفوس طبقات الشعب وانتشرت الآمال المسيحانية انتشرت، حتى بين دوائر الأثرياء، أمراً غير مسبوق، وكان تحرير العبيد العبريين الذى جرى تصويره فى سفر إرمياء ٢٤: ٨، يحمل بعض أوجه الشبه مع طقس تجديد العهد الذى أجراه ياشياهو. بيد أن الفرحة كانت قصيرة الأمد. ففي عام ٥٨٨ تقدم نبوخذ نصر نحو يهودا على رأس قوات هائلة وضرب حصاراً على القدس، استمر لمدة سنتين، وأثناء الحصار وصلت قوات النجدة المصرية، بقيادة الفرعون خفرع، الذى تولى حكم مصر فى العام نفسه، لكن حاقت به، على ما يبدو، الهزيمة فتقهقر عائداً صوب مصر. ويحكى هيرودوت كذلك (المكتاب الثانى

(١٦١). أن خفرع قاد جيشاً لمهاجمة صيدا (صيدون)، ودخل في معركة بحرية ضد ملك صور.

والواضح أن هذا التدخل المصرى لم يكن بوسعه - وفى آخر لحظة - أن يغير مجرى الأحداث، حيث شدد الجيش البابلى حصاره وقطع كافة خطوط الاتصالات مع المناطق المجاورة. ويحتمل أن أوانى "لاخيش" الفخارية الشهيرة، ترجع لهذه الفترة، وكذا الخطابات التى تعكس أحوال الحصون وجندھا المضطربين فى خضم المحنة، وفى النهاية استفحلت المجاعة داخل القدس المحاصرة، وتم اختراقها فهرب صدقياھو، ثم ألقى القبض عليه. ولأنه لم يحافظ على قسم التابعين، عاقبه البابليون بوحشية بالغة، فذبحوا أبناءه أمام عينيه، وفقتت عيناه، واقتيد إلى بابل مكبلاً بالأصفاد.

ولكن نهاية يھودا لم تتم إلا مع دمار القدس نهائياً، وخراب الهيكل الذى جرى وصفه تفصيلاً فى سفر الملوك الثانى (٢٥ : ٨ فصاعداً): «وفى الشهر الخامس فى اليوم السابع، وهى السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذ نصر" ملك بابل جاء نبوزرادان رئيس الشرطة عبد ملك بابل إلى اورشليم، وأحرق بيت الرب وبيت الملك، ولكن بيوت اورشليم وجميع بيوت العظماء، وهدمت جيوش الكلدانيين أسوار اورشليم. أما بقية الشعب الذين بقوا فى المدينة و الهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل، وبقية الجمهور، فقد سباهم نبوزرادان رئيس الشرطة. وكلن رئيس الشرطة أبقى من سكان البلاد زارعى الكروم والفلاحين» وعهد بأمر السكان الذين تبقوا فى البلاد إلى جدالياھو بن أحيقاف بن شافان، سليل أسرة شهيرة من الحكام (جده شافان كان كاتباً فى عهد ياشياھو. وكان فيما يبدو أحد كبار المعتدلين الذى عارضوا التمزد) وكان مقره مدينة "ماتسافا" فى أرض بنيامين بالمنطقة التى لم تدمر فيما يبدو أثناء الحرب. وقد استمر سلطانه مدة قصيرة للغاية، حيث شرع فى تجميع قادة الجيوش الذين هربوا، لدى خراب القدس، من مدن يھودا المحصنة ثم

عادوا فيما بعد إلى البلاد، وأخبر جداليا هو جميع المنضمين إليه أنه يحق لهم أن يقيموا في "المدن التي يسيطرون عليها".

ويشير هذا الأمر في ذهن عملية الإصلاح الزراعي التي طبقها سرجون ملك آشور بعد احتلاله للسامرة. عندما وزع أراضي المنفيين على المواطنين المتبقين. ولكن بعد مرور فترة قصيرة أعتيل جداليا هو على يد شخص من الأسرة الحاكمة وهو "يشمعئيل بن ناتانيا". الذي أرسله ملك العمونيين. وقد قضى هذا الاغتيال على فلول الحكم اليهودي بعد الخراب. فقد توجس قادة الجيش الذين كانوا مع "جداليا هو" والشعب الذي معهم، من انتقام الكلدانيين، فولوا الأدبار صوب مصر، أخذين النبي إرمياء معهم، ويرمز إغتيال "جداليا هو" في الوعي الشعبي إلى نهاية وجود يهودا. وبعد مرور خمس سنوات من ذلك التاريخ (٥٨٢) عاد نبوزرادن قائد جنود ملك بابل ونفى ٧٤٥ نسمة من يهودا. وكان هذا هو السبي الثالث الذي يقوم به البابليون في يهودا، التي ما برحت خربة حتى فترة العودة سنة ٥٣٨ ق. م.

الفهرست

رقم الصفحة	الموضوع
٤	وثيقة اسرائيلية دامغة بعدم صحة الرواية التوراتية
١٦	مقدمة المترجم
٥١	خرائط وصور تاريخية
	الجزء الأول
	بدايات تاريخ بني إسرائيل
٦٤	أرض فلسطين بين بلدان الشرق الأوسط
٧٢	أرض كنعان قبل غزوات بني إسرائيل وأثنائها
٨٢	حملات أمنحوتب الثانى وتحتمس الرابع
٩٢	أرض كنعان فى حقبة غزو بني إسرائيل
٩٩	غروب شمس السيادة المصرية على أرض كنعان
١٠٣	بدايات تاريخ العبرانيين
١١٣	الآباء على ضوء الاكتشافات الحديثة
١٢٠	بنو إسرائيل فى مصر
١٢٦	الخروج من مصر وجبل سيناء
١٣١	احتلال أرض كنعان والاستيطان فيها
١٣٧	البرهان الأثرى ..
١٤٢	استرجاع أساليب الاحتلال العسكرى
١٤٨	غزو فلسطين فى الميزان العسكرى
١٥٥	استيطان الأسباط ونتائجه

الموضوع	رقم الصفحة
سبل الاستيطان في مرآة قوائم الأنساب السبطية	١٦٠
عصر القضاة	١٦٧
الإرهاصات الأولى لإقامة الملكية	١٧٥
الصدام مع شعوب شرقى نهر الأردن	١٧٩
الصراعات مع الفلسطينيين	١٨٨
الجزء الثانى	
فترة الهيكل الأول	
المملكة الموحدة	١٩٧
فترة النبى صموئيل	١٩٩
الملك شاول	٢٠٠
تاريخ داوود	٢٠٤
داوود ملكاً على إسرائيل	٢٠٧
تاريخ سليمان	٢١٦
مملكة سليمان فى الشرق القديم	٢١٧
انقسام الملكتين	٢٢٣
فترة الملكتين	٢٢٧
المصادر التاريخية	٢٢٩
فترة التأسيس المنفصل	٢٣٣
فترة الحلف الوثيق	٢٣٨
التحدى الآشورى	٢٤٣
الثورة الدينية الاجتماعية - نمرد ياهو	٢٤٦

الموضوع	رقم الصفحة
فترات الانحطاط والازدهار (دمار مملكة إسرائيل)	٢٥٠
ازدهار مملكة إسرائيل (عهد يربعام)	٢٥٧
أنبياء المكتوبات	٢٦٠
ازدهار مملكة يهوذا	٢٦٣
دمار مملكة إسرائيل على يد آشور	٢٦٧
مملكة يهوذا منذ تخریب السامرة وحتى تخریب القدس	٢٧٩
عهد حزقياهو	٢٧٩
النبي إشعي	٢٨١
حملة سنحاريب	٢٨٤
فترة منسى	٢٨٧
ياشياهو وأعماله	٢٩٠
نهاية عصر يهوذا ودمار الهيكل	٢٩٦

هذا الكتاب

أقامت الصهيونية فى العصر الحديث، رغم علمانياتها، دعواها فى الحق فى إقامة دولة يهودية فى فلسطين إستنادا إلى ما ورد فى كتاب العهد القديم من مرويّات عن قصة نشأة العبرانيين وبنى إسرائيل فى كل من مصر وأرض كنعان، وهى المرويّات التى ثبت أنها دوت بعد تواترها شفاهة بقرون عديدة وفق وجهات نظر مختلفة للمدوينين. وقد آمن اللاهوتيون بصدق هذه الاحداث وباركوا كل خطوات الصهيونية فى الاستيلاء على أرض فلسطين، باعتبارها «أرض الميعاد» التى ستظل أرضا خالية عبر التاريخ فى انتظار عودة اليهود إليها. وفى العصر الحديث ظهرت مدرستان لهما أهمية كبيرة فيما يتصل بتصنيف نصوص التوراة وفقا لمصادر تدوينها، من ناحية، وبما يتصل بموثوقية المادة التاريخية التوراتية على ضوء الاكتشافات الأثرية من ناحية أخرى. وقد توصل علماء الآثار سواء الأوروبيين، أو اليهود والاسرائيليين، إلى نتائج بالغة الأهمية بشأن قضايا مثل : إقامة بنى إسرائيل فى مصر وخروجهم منها، وغزوهم لأرض كنعان وقيام مملكة داود و سليمان، توصلت إلى أنه لم يتم العثور على أية اكتشافات أثرية أو نصوص لدى دول الحضارات المحيطة بفلسطين تؤكد حاشية الروايات. وهذا هو موضوع هذا الكتاب الذى مهد له بمقدمة ضافية الاستاذ عبد الله الشامى رئيس قسم اللغة العبرية بكلية الآداب جامعة عين شمس الذى يهتم بالمسئور حول إهمال التاريخ الفلسفى ومدى مصداقية الأساطير الدينية حول فلسطين فى ضوء الاكتشافات ناحية أخرى.



التعريف بالمؤلف

أستاذ ورئيس قسم اللغة العبرية وآدابها
كلية الآداب جامعة عين شمس

صدرت له المؤلفات التالية :

- ١- إنشاء وتطوير الطيران الإسرائيلى (١٩٧٢).
- ٢- جولة فى الدين والتقاليد اليهودية (١٩٧٥).
- ٣- اللغة العبرية للمبتدئين (١٩٧٨).
- ٤- تاريخ وتطور اللغة العبرية (١٩٧٨).
- ٥- لمحات من الأدب العبرى الحديث (١٩٧٨).
- ٦- الشخصية اليهودية الإسرائيلى والروح العدوانية (١٩٨٦).
- ٧- الفلسطينيون والإحساس الزائف بالذنب فى الأدب الإسرائيلى (١٩٨٨).
- ٨- عجز النصر - الأدب الإسرائيلى وحرب ١٩٦٧ (١٩٩٠).
- ٩- الشخصية اليهودية فى أدب إحسان عبد القدوس (١٩٩٣).
- ١٠- الوصايا العشر - دراسة مقارنة فى اليهودية والمسيحية والإسلامية (١٩٩٣).
- ١١- القوى الدينية، فى إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة (١٩٩٤).
- ١٢- إشكالية الهوية فى إسرائيل (١٩٩٧).
- ١٣- قواعد اللغة العبرية (١٩٩٧).
- ١٤- الرموز الدينية فى اليهودية (١٩٩٩).
- ١٥- موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية (٢٠٠١).
- ١٦- العبرانيون وبنى إسرائيل فى العصور القديمة بين الرواية التوراتية والاكتشافات الأثرية (٢٠٠١).
- ١٧- اليهود واليهودية فى العصور القديمة بين التكوين السياسى وأبدية الشتات (٢٠٠١).

المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات

٥ ش مصطفى طموم - المنيل القاهرة تليفاكس : ٣٦٥٥٤٨٧



الناشر